تفسير القرآن الكريم

تفسير سورة فاطر



الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المفسِّر [(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكِّيَّة، وآياتُها خَمْسٌ وأَرْبعونَ أو سِتٌّ وأربعون].

قَوْله: [مَكِّيَّة] أصحُّ الأَقْوَالِ في المكِّيِّ والمَدَنِيِّ أنَّ ما نزل بعد الهِجْرَة فهو مَدَنِيٌّ وإن نزل بمَكَّة، وما نزل قبل الهِجْرة -أي: قبل وصول النَّبيِّ ﷺ المدينةَ- فإنَّه مَكِّيٌّ ولو نزل في غَيْرِ مَكَّةَ؛ هذا هو أصحُّ ما قيل في تَعْريفِ المكِّيِّ والمَدَنِيِّ.

والغالبُ في الآياتِ المَكِّيَّة قُوَّةُ العِبارَةِ وشِدَّتُها وقِصَر الآياتِ، ومَوْضوعها غالبًا في أصول الدِّين وتَقْريرِ التَّوْحيدِ.

وأمَّا الآياتُ المَدَنِيَّـة فإنَّها بالعَكْسِ؛ تَجِدُ عباراتِها أسهَلَ وأَطْـوَلَ، وغالـب مَوْضوعها في فروع الدِّينِ؛ لأنَّ النَّاسَ غالبَهُم قد قاموا بالتَّوْحـيدِ، ولها ضوابِـطُ معروفَةٌ في أُصولِ التَّفْسيرِ وعَلاماتٌ.

وهنا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّها [مَكِّيَّة]، واعلمْ أنَّ السُّورَة إذا كانت مَكِّيَّة، واسْتُثْنِيَ بعضُ آياتِها -مثلًا يقول: (مَكِّيَّة إلا آيَةَ كذا وكذا)- فإنَّ هذا الاستثناءَ غَيْرُ مَقْبولٍ من قائِلِه إلا بِدَليلٍ؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّ السُّورَة جُزءٌ واحِدٌ؛ بمَعْنى أنَّ الرَّسُولَ ﷺ إذا

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

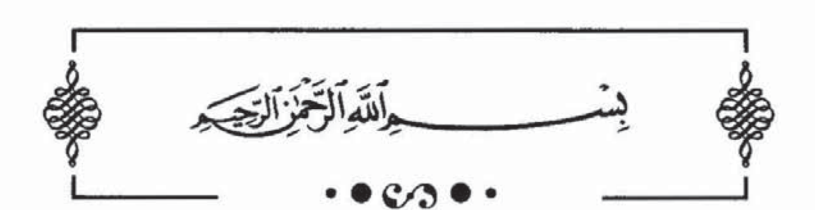
نزلت آيَةٌ، قال: ضعوها في موضِعِ كذا من سورَةِ كذا[١].

فالسُّورَة المَكِّيَّة مَكِّيَّةٌ ولا يُسْتَثْنَى منها شَيْءٌ، والسُّورَةُ المَدَنِيَّة مَدَنِيَّة ولا يُسْتَثْنَى منها شَيْء إلا بِدَليل، ولا يَكْفي أن يقولَ العالِـمُ: (إلا كذا، إلا كذا)، بل لا بُدَّ فيه من سنَدٍ؛ لأنَّ هذا خَبَرٌ، والأَخْبارُ لا بُدَّ من سَنَدٍ لها حتى تَصِلَ إلى غايَةِ السَّنَد.

وَقَوْل المُفَسِّــر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إنَّها خَمْسٌ وأربعونَ آيَةً، أو سِتٌّ وأربعونَ آيَةً] هذا لا يَضُـرُّ؛ فالاختـلافُ في عَدَدِ الآياتِ أَمْرٌ ليس بضارٍّ؛ ولهـذا في سورةِ (الفاتحة) اختلف العُلَمـاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل البَسْمَلَة آيَةٌ من آياتِها أو مُسْتَـقِلَّة مع الاتِّفاقِ على أنَّ الفاتِحَة سَبْعُ آياتٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها [أي البسملة]، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

البَسْمَلَةُ آيَةٌ من كِتَابِ الله مُسْتَقِلَّة، لا تكون تَبعًا لما قَبْلها ولا مُقَدِّمَة لما بعدها؛ بمَعْنى أنَّها ليست من التي قبلها ولا مِنَ التي بعدها؛ لكنْ يُؤْتى بها في ابتداءِ السُّورَة علامَةً على ابْتِدائِها إلا في سورة (براءة) فإنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْ فيها البَسْمَلَة.

يقول بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: لأنَّها بعْضٌ من سورة (الأنفال).

ويقول آخرون: لأنَّها نَزَلَتْ بالسَّيْفِ والشِّدَّةِ على المُنافِقين والكُفَّارِ، وهذا لا يُناسِبُه البراءةُ بالبَسْمَلَة التي هي (بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم) فإنَّ البَسْمَلَة بَرَكَةٌ ورَحْمةٌ لا تتناسَبُ مع الشِّدَّة والغِلْظة والقَتْل والقِتال، ولكن هذا ليس بصحيحٍ، بل أَقْرَبُ شَيْءٍ أنَّ الصَّحابَة رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ أُشْكِلَ عليهم: هل هي من (الأنفال) أو مُسْتَقِلَّة؟ فوضعوا فاصلًا ولم يضعوا البَسْمَلَة[1]، فلم يجزموا لا بهذا ولا بهذا، على أنَّنا نَعْلَمُ بأنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْها؛ لأنَّ البَسْمَلَة لو نَزَلَت بين (الأنفال) و(براءة) لكان بقاؤها حتميًّا؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وعلى هذا فيكون اجتهادُ الصَّحابَةِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ مُوافِقًا تَمامًا لواقِعِ الحالِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها [أي البسملة]، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

أما إِعْرابُها فقد تقدَّم مِـرارًا، وذكرنا أنَّ أَحْسَـنَ الإِعْـراباتِ فيها أنَّ الجارَّ والمَجْرور متعلِّقٌ بمَحْذُوفٍ مُؤَخَّرٍ فِعْلِيٍّ مُناسِـبٍ، فإذا أردْتَ أن تتوضَّأَ، وقلت: (بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم)؛ فالتَّقْديرُ: (بسم الله أَتَوَضَّأُ).

• ● ۞ ● •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١].

•• ● ⁂ ● ••

اعلم أنَّ الحَمْد هو وَصْفُ المَحْمودِ بالكَمال مع المَحبَّةِ والتَّعْظيمِ، وقد حَمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَه في أوَّلِ الأُمُور وآخِرِها.

ففي أوَّلِ الأُمـورِ الكَوْنِيَّـة قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقـال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وفي أوَّلِ الأُمورِ الشَّرْعِيَّةِ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

كما حَمِدَ نَفْسَه على مُنْتَهى الأُمُور أيضًا، قـال الله تعالى في آخِـرِ سورة الزُّمَـر: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

فحَمِدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَه في أوَّلِ الأَمْرِ وفي مُنْتَهى الأمر؛ لأنَّ الله تعالى له الأَمْرُ أوَّلًا وآخِرًا، وكُلُّ أَمْرِه فإنَّه مَحْمودٌ عليه؛ لأنَّه مَبْنِيٌّ على الحِكْمَة والرَّحْمَة.

وهنا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحَمْد: مُبْتَدأ، لله: خَبَرُه، واللَّام هنا للاسْتِحْقاق والاخْتِصاص؛ لِلْمَعْنَيينِ جميعًا، أمَّا كَوْنُها للاسْتِحْقاقِ؛ فلأنَّه لا أحَدَ أَحَقُّ بالحَمْدِ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه مَحْمودٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّ كلَّ ما يَفْعَلُه وكُلَّ ما يُشَرِّعُه فإنَّه مَحْمودٌ

عليه لكماله، وأمَّا كونُها للاختصاصِ فلأنَّ (أل) في (الحَمْد) هنا للاسْتِغْراقِ؛ أي: كلُّ حَمْدٍ فهو لله، ثابتٌ له، ومَعْلومٌ أنَّه لا أحَدَ يَخْتَصُّ بهذا الوَصْفِ العامِّ الشَّامِلِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ من يُحْمَد سوى اللهِ لا يُحْمَد إلا على أشياءَ جُزْئِيَّةٍ غَيْرِ شامِلَةٍ، لكنَّ الذي يُحْمَدُ على كلِّ شَيْءٍ هو الله، وبهذا عَرَفْنا أنَّ اللَّام للاسْتِحْقاقِ والاخْتِصاصِ أيضًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ الله تعالى نَفْسَه بذلك كما بيَّن في أوَّلِ سورَةِ (سبأ)].

ففي أوَّلِ (سبأ) قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [سبأ:١]، لكنْ هناك حَمِدَ نَفْسَه لعُمومِ مُلْكِه الذي له ما في السَّمواتِ والأَرْض، وهنا حَمِدَ نَفْسَه لابتداءِ خَلْقِه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خالِقِهما على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ].

وَقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ لهم عُقولٌ أخصُّ من عُقولِ البَشَرِ؛ لأنَّ عُقولَ البَشَرِ قد تستولي عليها الشَّهْوَةُ فيُضَيِّعُ الإِنْسانُ عَقْلَه. قَوْله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ جَمْع (رسولٍ) يقول: [إلى الأَنْبياءِ]، والأَصَحُّ إلى الأنبياءِ وغَيْرِهم؛ يقولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] رُسُلُ اللهِ تعالى إلى هذا المُحْتَضَر ليَقْبِضوا رُوحَه، فهم رُسُلٌ إلى الأنبياءِ وإلى غَيْرِهم؛ فتَخْصيصُ الآيَةِ بالأَنْبياءِ يُعْتَبَرُ قُصورًا في التَّفْسيرِ.

قَوْله تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾: ﴿أُوْلِىٓ﴾ بمَعْنى أَصْحاب؛ يعني أنَّ المَلائِكَة لهم أَجْنِحَة، وهو جَمْع (جَناحٍ)، هذا الجَناحُ يَطيرونَ به بِسُرْعةٍ فائِقَة أَسْرَع من الجِنِّ؛

بدليلِ أنَّ العِفْريتَ من الجِنِّ قال لسُلَيْمانَ لَمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] وكان له عادة أنَّه يقوم في وقتٍ مُعَيَّنٍ فقال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في الوَقْتِ المُعَيَّنِ وإلَّا لكانَ الأَمْرُ مُبْهَمًا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

يعني مثلًا: إن نَظَـرْتَ مثلًا أَبْعَد شَيْءٍ -هم قالوا هكـذا- قَبْلَ أن يرتَدَّ إليه طَرْفُه، فإنَّه يأتيه به، وفِعْلًا أتاه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ [النمل:٤٠].

قال العُلَمـاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكِتابِ كان يَعْرِفُ اسْمَ الله الأَعْظَمَ، وأنَّه دعا باسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، فحَمَلَتْه الملائِكَةُ وأَلْقَتْه بين يَدَيْ سُلَيْمانَ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ المَلائِكَة أَسْرَعُ من الجِنِّ، ولا شَكَّ في هذا؛ أنَّهم أَسْرَعُ وأَقْوى، فهم لَهُم أَجْنِحَةٌ يَطيرون بها بِسُرْعَة فائقة عَظيمَةٍ.

جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان له سِتُّ مِئَة جَناحٍ[1]، كلُّ جناحٍ له قوَّة عظيمَةٌ في الحَمْلِ والطَّيَران، ماذا تكون سُرْعَتُه؟

لا شكَّ أنَّها سُرْعَةٌ فائِقَة جدًّا؛ لأنَّنا إذا رأينا الآن الطَّيَّاراتِ النَّفَّاثَة أَجْنحِتُها التي تَحمِلُها وهي المراوِحُ التي تُدْخِلُ الهواءَ ليَحْمِلَ الطَّائِرَةَ لا تَبْلُغُ هذا المبْلَغَ ولا عُشْرَه، ومع ذلك تَنْتَقِل بهذه السُّرْعَة العَظيمَة وهذا الارتفاع العَظيم، فجبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له سِتُّ مِئَة جَناحٍ قد سَدَّ الأُفُقَ، وهذا يَدُلُّكَ على أنَّ لهم سُرْعَةً فائِقَةً عَظيمَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الأَجْنِحَة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وأكْثَرُ؛ ولذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ ظاهِرُها أنَّ ذلك في العَدَدِ لا في الصِّنْفِ؛ لأنَّ هذا هو الأَصْلُ، ويُحْتَمَل أن يكون في الصِّنفِ؛ لأنَّنا نرى الطَّائِر مثلًا له جناحان، لكنْ كُلُّ ريشة مِن هذه الأَجْنِحَة لها عملٌ خاصٌّ في تَكْييفِ الطَّيَرانِ، منها مثلًا ما يَنْصِبُه حتى يرتَفِع، ويَخْفِضُه حتى ينْزِل، ويَفرِشُه حتى يَسْتَقِرَّ، هذا شَيْءٌ مُشاهَد؛ ولهذا بعض الأحيان تُنْتَفُ أَشْياءُ مُعَيَّنَةٌ من الجناح ثُمَّ لا يَطيرُ، مع أنَّ الباقِيَ في جناحه أكثَرُ ممَّا نُتِفَ بكثيرٍ، فيُحْتَمَل أنَّ قَوْله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يعني: باعتبار الصِّنفِ.

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ويُحْتَمَل أنَّه باعتبارِ العَدَدِ وأنَّ المَلائِكَةَ بَعْضُهم له جناحان، وبَعْضُهم له ثلاثة، وبَعْضُهم له أربعةٌ، ولا ينافي ذلك أنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له سِتُّ مِئَة جناح؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ويكون مِمَّا زاده أنْ جَعَلَ لِجبْريلَ سِتَّ مِئَةِ جناحٍ.

فإذا قُلْتَ: هل نعرف كيْفِيَّة هذه الأَجْنِحَة؟

فالجواب: لا؛ كَيْفِيَّة هذه الأَجْنِحَة لا نعلمها، وهذا نَظيرُه تمامًا ما جاء في صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّنا نَعْلَمُ مَعنى الصِّفَة، ولكِنَّنا نَجْهَل كَيْفِيَّة الصِّفَة، لله عَزَّوَجَلَّ وَجْهٌ، نعلم مَعْنى الوَجْه، لكن هل نَعْلَمُ كَيْفِيَّته؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ ما غاب عنك لا يخاطِبُك الله به إلا بِبيانِ معناه فقط، وأمَّا كَيْفِيَّته فلا يُمْكِنُك إدراكُها؛ لأنَّه غائِبٌ ولا نَظيرَ له، والشَّيْءُ لا يُعْرَفُ إلا بِمُشاهَدَتِه أو مُشاهَدَة نَظيرِه أو الخَبَرِ الصَّادِقِ عنه.

ونُعْرِبُ: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ بدلًا أو صفةً لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ وبدَلُ المَجْرورِ مجْرورٌ، وعلامة جَرِّهِ فَتْحَةٌ مُقَدَّرَة على الأَلِف نِيابَةً عن الكَسْرَة، والمانِعُ من الصَّرْف الوَصْفِيَّةُ والعَدْلُ.

وكذلك نقولُ في ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ولذلك قال: (ثُلَاثَ) ولَمْ يَقُلْ: (ثُلَاثٍ)، وقال: ﴿وَرُبَٰعَ﴾ ولم يَقُلْ: (وُرباعٍ).

قَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: يزيدُ في الخَلْقِ سواء كان في المَلَائِكَة أو غَيْرِهم، يزيدُ ما يشاءُ مِمَّا تَقْتَضيه حِكْمَتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك تَجِدُ المَخْلوقاتِ لَهَا أَيْدٍ وأَرْجُلٌ بِحَسَب حاجَتِها إلى هذه الأَيْدي والأَرْجُل، فبنو آدم لهم أَرْجُلٌ يَمْشون بها، ولهم أيدٍ يَبْطِشونَ بها ولا يَمْشون بها؛ لأنَّ هذه الأَيْديَ مَحَلُّ الأَخْـذِ والعطاء، فَأُكْرِمَ الإِنْسَانُ بأن تكونَ يداه غَيْرَ مُسْتَعْمَلةٍ في المَشْي، بخلاف الحيوانِ؛ فالحيوانُ يداه مُسْتَعْمَلةٌ في المَشْيِ؛ لأنَّه يأخُذُ بِفَمِه، ويُعْطي بفَمِه، ويَنْقل بفَمِه، حتى الهِرَّة إذا أرادَتْ أن تنقل أولادَها تَنْقِلُهم بفَمِها، لكنَّ الآدَمِيَّ مُكَرَّمٌ، فجعل الله تعالى يَدَيهِ غَيْرَ مُسْتَعْمَلَتينِ في المَشْيِ، فهو يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ على حَسَب ما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ وحاجَةُ ذلك المَخْلوقِ، وكلُّ ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ مِمَّا هو مُعَلَّقٌ بِمَشيئَتِه فقد تقدَّم أنَّه مَقْرونٌ بالحِكْمَة.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تَعْليلٌ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: كأنَّ سائلًا يسأل: وهل ذلك صعبٌ عليه؟

فكان الجوابُ من هذه الجُمْلَة أنَّه سَهْلٌ؛ لأنَّ الله على كُلِّ شَيْء قديرٌ، فكلُّ شَيْءٍ مَوْجودٍ قادِرٌ على إعْدامِهِ، وكُلُّ مَعْدومٍ قادِرٌ على إيجادِهِ.

لكنْ لو قال لك قائِلٌ: هل يَقْدِرُ على أن يَجْعَلَ الشَّيْءَ المُتَحَرِّك ساكِنًا في آنٍ واحِدٍ؟

نقولُ: كَلِمَة (مُتَحَـرِّك) نَقيضُ (ساكِن) إذا وَصَفْتَه بالمُتَحَـرِّك فيقينًا لَيس بساكِنٍ، وإذا وَصَفْتَه بأنَّه ساكِنٌ، فيَقينًا ليس بِمُتَحَرِّك؛ فلذلك قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

إنَّ المستحيلَ غَيْـرُ وارِدٍ؛ لأنَّ المُسْتَحيلَ لا يمكنُ وُجودُهُ، ليس المَعْنى أنَّه لا يُمْكِنُ باعتبارِ قُدْرَة الله، لكنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا أراد أن يَجْعَلَ هذا المُتَحَرِّكَ مُتَحَرِّكًا صار مُتَحَرِّكًا لا ساكِنًا، أمَّا أن يكونَ مُتَحَرِّكًا ساكنًا في آنٍ واحدٍ، كيف ذلك والمُتَحَرِّكُ غَيْرُ ساكِنٍ؟

يقال[1]: إنَّ الشَّيطانَ كان يَفْرَحُ بِمَوْتِ العالِمِ، إذا قيل: (مات فلان العالِمُ) فرح واسْتَأْنَسَ، لكن إذا قيل: (مات عابِدٌ) يقولُ: هذا هَيِّنٌ، فقال له جنوده: لماذا تَفْرَحُ بِمَوْت العالِمِ هذا الفَرَحَ العَظيمَ، ومَوْتُ العابِد لا يُهِمُّك مع أنَّ العابِدَ مُنْقَطِعٌ عن الدُّنْيا، وزاهِدٌ في الدُّنْيا، ويُكْثِرُ الذِّكْر والصَّلاة وغيرها؟

قال: لأنَّ العالِمَ أشَدُّ عليَّ من العابِد، قالوا: كيف؟ قال: سأُثْبِتُ لكم الآن، اذهبوا إلى العابِدِ وَقولوا له: هل يَقْدِرُ الله عَزَّوَجَلَّ على أن يَجْعَلَ السَّموات والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة أو لا؟ فذهبوا إلى العابِدِ، قالوا له: هل يَقْدِرُ الله على أن يَجْعَلَ السَّمواتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة؟ قال: هذا مُسْتَحيلٌ، ولا يَقْدِرُ الله على هذا، ثم قال لهم قولوا له: هل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُق مِثْلَه؛ أي: أنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الله؟ فذهبوا له، وقالوا له: ما تقـولُ: هل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُقَ مِثْلَ الله؟ قال: نَعَمْ، إنَّ الله على كلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، يَقْدِرُ الله على أن يَخْلُقَ ربًّا مِثْلَه.

إِذَن: كَفَرَ هذا العابِدُ سلبًا وإيجابًا؛ نَفْيُه القُدْرَةَ في الأَوَّلِ كُفْر، وإثباتُهُ القُدْرَةَ في الثاني كُفْر.

ثم قال لهم: اذهبوا إلى العالِمِ، واسْأَلوهُ عن هَذَيْنِ السُّؤالَيْنِ، فذهبوا إلى العالم

(١) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٢٩)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٦٩)، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

قالوا له هَلْ يَقْدِرُ الله عَزَّوَجَلَّ على أن يَجْعَلَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في جَوْفِ بَيْضَة؟

قال: نعم، يقولُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] إمَّا أن تَصْغُرَ السَّمَواتُ والأَرْض، أو تَكْبَرَ البَيْضَة، المهمُّ إذا أراد قال فكانَ، قالوا: فهل يَقْدِرُ الله أن يَخْلُقَ مِثْلَه؟

قال: هذا أمرٌ مُسْتَحيلٌ، والمِثْلِيَّةُ لا يُمْكِنُ أن تتطابَقَ أبدًا؛ لو لم يكن من الفارِقِ العَظيمِ إلا أنَّ هذا حادِثٌ وذاك واجِبُ الوجودِ، هذا مُسْتَحيلٌ.

المهمُّ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، لكنَّ الشَّيْءَ المُسْتَحيلَ الذي لا يُتَصَوَّر لا يُتَصَوَّر، وليس المُرادُ هنا المُسْتَحيلَ عادةً؛ فالمُسْتَحيلُ عادةً يُخْلِفُه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله هو خالقُ العادَةِ وقادرٌ على تَغْييرِها، وهذه النَّارُ التي تَحْرِق كانت بَرْدًا وسَلامًا على إبراهيمَ، وهذا الماءُ السَّيَّال صار جامِدًا كالطَّوْدِ العَظيم، والعادَةُ يُمْكِنُ أن يُغَيِّرَها الله عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ سُهولَةٍ، لكنَّ الكَلامَ على الأَمْرِ المُمْتَنِع المُسْتَحيلِ.

يقولُ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّه لا تتعلَّقُ به القُدْرَة؛ لأنَّه مُسْتَحيلٌ؛ ولهذا قال السَّفاريني في العقيدة[1]:

«.............................. .... وَاقْتَدَرْ

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ ....»

وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه عند العُقَلاءِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا ليسَ فيه اسْتِثْناءٌ، كتب الجلال رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو السيوطي- على هذه الآيَة في سورة (المائِدَة) قال: «وَخَصَّ العَقْلُ ذَاتَهُ فليس عليها بقادرٍ»؛ يعني: على كلِّ شَيْء قديرٌ إلَّا على ذاتِه فليس عليها بقادِرٍ.

---

(١) العقيدة السفارينية (ص٥٢).

نقول: هذا الاسْتِثْناءُ لا شَكَّ أنَّه باطِلٌ؛ لأنَّ الآيَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَقَوْله: «إنَّ العَقْلَ خَصَّ ذاتَه فليس عَلَيها بقادِرٍ» نقولُ: إنَّ العَقْلَ لا يُمْكِنُه أن يُخَصِّصَ هذا الخَبَر بدون دليلٍ، ولو ذَهَبْنا نخصِّص مثل هذه العُموماتِ بالعُقولِ لَأَبْطَلْنا كثيرًا من دَلالاتِ الكِتَابِ والسُّنَّة.

وماذا تريد بِقَوْلك: «خَصَّ العَقْلُ ذاتَهُ فليس عَلَيْها بقادِرٍ؟» إن أردْتَ أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكُنْ قادرًا على ذاتِهِ؛ بمَعْنى أنَّه لا يَقْدِر مثلًا أن يُمْرِضَ نفسه أو أن يُعْدِمَ نَفْسَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا أَصْلٌ لم تتعلَّقْ به القُدْرَة؛ لأنَّ هذا من الأُمورِ المُسْتَحيلَة، وإن أردتَ أنَّه ليس قادِرًا على أن يفعل، فلَعَلَّ هذا مُرَادُه -لأنَّ الأشاعِرَة ومن شابَهَهُم يُنْكِرون الأَفْعالَ الاخْتِيارِيَّةَ- فهذا كَذِبٌ؛ بل العَقْلُ يدلُّ على أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَزَلْ ولا يزال فعَّالًا لِما يُريدُ.

وتُوجَدُ عِبارَةٌ تقع كثيرًا بين النَّاس تقول: (إنَّ الله على ما يشاءُ قَديرٌ) نقولُ: هذه عِبارَة خَطَأٌ؛ لأنَّ هذا يُوهِمُ أنَّ ما لا يَشاؤُهُ فليس قادِرًا عليه، هذا أوَّلًا.

وأمَّا قَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]، فالمشيئة هنا ليست عائِدةً على القُدْرَة بل عائِدَةٌ على الجَمْع؛ يعني: إذا شاء جَمْعَهُم فإنَّه قديرٌ عليه ردًّا على من أنكروا البَعْثَ، وقالوا: كيف يَجْمَعُ الله النَّاسَ ويَبْعَثُهم بعد أن ماتوا؟

ثانيًا: أنَّكَ إذا قُلْتَ: (إنَّه على ما يشاءُ قَديرٌ) فقد خالَفْتَ التَّعْبيرَ القُرْآنِيَّ الذي أطلق الله فيه وعَمَّمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثالثًا: أنَّ هذا مَأخوذٌ مِن مَذْهَبِ القَدَرِيَّةِ؛ لأنَّ القَدَرِيَّةَ يقولون: (إنَّ الله لا يَقْدِرُ على عَمَلِ العَبْدِ) فهو غَيْرُ داخِلٍ في قُدْرَة الله، وإذا لم يَقْدِر عليه فإنَّه لا يَشاؤُه، وكذلك

يقولون: إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا كان فِعْلُ العبد في غَيْر مَشيئَتِه فإنَّه غَيْر قادرٍ عليه؛ لأنَّ اللهَ قادرٌ على ما يشاء فقط.

فلأَجْلِ هذا نقول: إنَّ هذه العِبارَة لا تَنْبَغي، وإن كان صاحِبُها يريد بها معنًى صحيحًا، فقد يُريدُ بها معنًى صحيحًا كما هو ظاهِرُ عبارَةِ كَثيرٍ من المُسْلمينَ الذين يَنْطِقونَ بهذا الشَّيْءِ، ونقول: إنَّ الأكْمَل أن تقول: «إنَّ الله على كُلِّ شَيْء قديرٌ».

فإن قلت: إنَّه ورد في قِصَّةِ آخِرِ من يُدْخِلُه اللهُ الجَنَّة فيقول اللهُ له: لَمَّا قال هذا لكَ وعَشَرَةُ أَمْثَالِه، قال الله له: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] هذا حديثٌ قدسيٌّ؟

فالجواب: أنَّ هذا في قَضِيَّة مُعَيَّنَة؛ يعني: لو وَقَعَ شَيْء يَسْتَغْرِب الإِنْسَانُ وُقوعَهُ ويَسْتَبْعِدُه، فلنا أن نقول: إنَّ الله تعالى إذا شاء شيئًا فهو قادرٌ عليه؛ بمَعْنى أنَّه فاعِلُه كقَوْله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] بخلاف القُدْرَة المُجَرَّدَة عن الفِعْل، فإنَّ هذه لا تُقَيَّد بالمَشيئَة.

وظاهِرُ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ جميعَ المَلائِكَة رسلٌ، فهل هذا الظَّاهِرُ مُرادٌ؟

الجواب: غَيْرُ مُرَادٍ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ أَثْنى على نَفْسه بالحَمْدِ، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم (١٨٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بعبادِهِ يُعَلِّمُهم كيف يَحْمَدونَه؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خَبَرٌ، لكن معناها الإرشادُ والتَّوجيه؛ كما قال الله تعالى في آيَة أخرى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١].

ولهذا ذَهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ إلى أنَّه كلَّما جاءت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهي على تَقْدير: (قل) حتى قالوا في قَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] المَعْنى: (قل: الحَمْدُ لله).

ولكنَّ الصَّوابَ خلافُ ذلك، وأنَّ هذا خَبَرٌ من الله ونَحنُ نَتلوه نُثْني به على الله، ولا حاجَةَ إلى أنْ يَأْمُرَنا الله بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ اسْمِ (الله) للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وهذا الاسْمُ خاصٌّ به، لا يقال لغيره، وهو أَصْلُ الأَسْماءِ؛ ولذلك تأتي الأَسْماء بعده في الغالِبِ صِفَةً له، ولا تأتي سابِقَةً عليه إلا نادِرًا كما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم:١-٢] وإلا فإنَّ الغالِبَ أنَّ الأَسْماء تأتي تابِعَةً له، فهو أصل الأَسْماءِ؛ ولهذا لا يُسَمَّى به غَيْره أبدًا لا عَلَمًا ولا صِفَةً بأيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ.

وهل هو مُشْتَقٌّ أو اسمٌ جامِدٌ؟

الصَّحِيح بلا شَكٍّ: أنَّه مُشْتَقٌّ؛ لأنَّ جَميعَ أَسْماء الله تعالى مُشْتَقَّة؛ بمَعْنى أنَّها دالَّةٌ على المعاني التي أُخِذَتْ منها؛ فهو مُشْتَقٌّ من الأُلُوهِيَّةِ؛ لأنَّ الاشتقاقاتِ تكونُ من المَصْدَرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو فاطِرُ السَّمواتِ والأَرْضِ لم يُشارِكْه أحدٌ في ذلك لِقَوْله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كَمالُ قُدْرَته وحِكْمَتِه؛ حيث ابتدأ خَلْقَ هذه السَّمواتِ العَظيمَةِ وهذه الأَرْضِ على هذا النِّظامِ البَديعِ من غَيْر أن يَسْبِقَ مثالٌ يَحْتذيهُ ويَقْتَدي به، ومعلومٌ أنَّ مُبْدِعَ الصَّنْعَة يُشْهَدُ له بالخِبْرَة والقُدْرَة؛ لأنَّه أَنْشأَ شيئًا جديدًا وصارَ هذا الشَّيْءُ الجَديدُ مُنْتَظِمًا على تَمامِ الانْتِظامِ وغايَةِ الإِحْكامِ فإنَّه يُشْهَد له بالكمالِ والخِبْرَة، ففي كَوْنِه فاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ دليلٌ على القُدْرَةِ وعلى الحِكْمَةِ؛ لأنَّه خَلَقَهُما على غَيْر مثالٍ سَبَقَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ السَّمواتِ مُتَعَدِّدةٌ، وقد بيَّنها الله تعالى في آيَةٍ أخرى أنَّها سَبْعٌ، وقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وأمَّا الأَرْض فذُكِرَت مفرَدَةً باعتبارِ الجِنْسِ، وهي سَبْعُ أَرَضينَ، والدليلُ من القُرْآنِ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، ومن السُّنَّة: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات المَلائِكَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ من المَلائِكَة مَنِ اصْطَفاهُم الله تعالى رُسُلًا إلى الخَلْقِ بالوَحْيِ وغَيْرِ الوَحْيِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هؤلاء الرُّسُلَ لهم أجْنِحَة مُتَعَدِّدَةُ الأَصْنافِ ومُتَعَدِّدَةُ الأَعْيان، يعني أنَّها مُتَعَدِّدَةٌ كمِّيَّةً وكَيْفِيَّةً؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أنَّ فيها إِشارَةً إلى سُرْعَةِ تَنَقُّلِ المَلائِكَةِ لِقُوَّةِ أَجْنِحَتِهم؛ لِقَوْله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ وإنَّما قُلْتُ: (لِقُوَّةِ أَجْنِحَتِهِم)؛ لأنَّه لو لا أنَّ لهذه الأجنحة مَزِيَّة عظيمَةً اسْتَحَقَّتْ أن يُنَصَّ عليها لذُكِرَ غَيْرُ الأَجْنِحَة كالرُّؤوسِ مثلًا، ولكنْ ذَكَرَ الأجنِحَةَ لما فيها من القُوَّة لحَمْلِها هؤلاء المَلائِكَةَ؛ ولأنَّها تكون عند الإِرْسالِ أَسْرَعَ، وقد ذكرنا مثالًا لذلك يدُلُّ على أنَّ المَلائِكَة أَسْرَعُ من غَيْرِها في الطَّيَران في قِصَّة عَرْشِ بِلْقِيسَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يزيدُ على الاثنين والثَّلاثة والأَرْبَعة بما شاء؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى فضَّلَ المخلوقاتِ بَعْضَها على بعضٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ والزِّيادَةُ مُقابِلُها نَقْصٌ.

إذن: فهناك مُفاضَلَةٌ بين المَخْلوقاتِ بعضِها مع بعضٍ، ولكن هل المُرادُ القُوَّةُ أو كِبَرُ الجِسْمِ أو العقل أو العِلْم أو غَيْر ذلك؟

الجوابُ: العُمومُ؛ لأنَّه قال: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ فهذا يزيدُهُ قوةً في الجِسْم، وهذا يزيدُهُ قوَّةً في العَقْلِ، وهذا يَزيدُهُ قُوَّةً في الطُّولِ، وهذا يزيده قوةً في العِلْم... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّك إذا وَجَدْتَ من نَفْسِك نَقْصًا في خَلْقِكَ فاطْلُبْ إكمالَهُ من الله؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ معناه: لا تَسْأَلِ الزِّيادَةَ في خَلْقٍ ولا خُلُقٍ إلا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو المانُّ بما يزيد به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ المَشيئَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وقد تَقَدَّمَ أنَّ المَشيئَةَ كلَّما ورَدَتْ وَرَدَتْ معلَّقَةً بالحِكْمَةِ، واسْتَدْلَلْنا لذلك بِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإِنْسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ القُدْرَةِ العامَّةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادِرٌ على أن يَزيدَ في الخَلْقِ ما يشاء وقادِرٌ على الإيجادِ والإِعْدامِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة الذين يزعمون أنَّ أفعالَ العَبْدِ غَيْرُ مَخْلوقةٍ ولا مقدورَةٍ لله؛ لِعُمـومِ قَوْلِه تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأَفْعالُ العَبْدِ من الأَشياءِ.

• ● ۞ ● •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

•●☙●•

﴿ مَّا ﴾ شَرْطِيَّةٌ تَجْزِمُ بدليلِ الفِعْلِ بعدها، ولكنَّ الفِعْلَ بعدها أمامنا مكسورٌ ﴿يَفْتَحِ﴾ فنقول: إنَّ هذه الكَسْرَة عارِضَةٌ من أجل تَوَقِّي الْتِقاءِ السَّاكِنَيْنِ، وإلا فإنَّها مَجْزومةٌ، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البَيِّنَة:١] وأَصْلُها: (لم يَكونْ).

قَوْله تعالى: ﴿يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فَتْحُ الشَّيْءِ: إزالَةُ الحَواجِزِ دونه؛ يعني: متى فتحْتَ البَيْتَ؛ يعني: أَزَلْتَ الحاجِزَ المانِعَ مِن دُخولِهِ وهو البابُ، والرَّحْمَة إذا فُتِحَتْ فإنَّ الإِنْسَانَ يَدْخُل إليها ويَلِجُ فيها.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾: ﴿مِن﴾ بيانٌ لـ﴿ مَّا ﴾، و﴿ مَّا ﴾ شَـرْطِيَّةٌ مُفيدَةٌ للْعُمومِ، وعلى هذا فيكونُ في الآيَةِ عُمومٌ؛ أي: أيُّ رَحْمةٍ يَفْتَحْها الله عَزَّوَجَلَّ للنَّاسِ فلا أَحَدَ يَسْتَطيعُ إِمْساكَهَا.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَرِزْقٍ ومَطَرٍ]، وهذا على سبيلِ التَّمْثيلِ لا الحَصْرِ؛ لأنَّ رَحْمَةَ الله أَكْثَرُ من ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] فرَحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لا تُحْصَى في أَنْواعِها فضلًا عن أَفْرادِها.

قَوْله تعالى: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يُمْسِـكُها، بل سَتَصِلُ إلى مَن فَتَحَها الله تعالى له، ولا يَرُدُّها أحد، كما جاء في الحديث الصَّحيح؛ أنَّ الرَّسُول ﷺ بعد أن يَرْفَعَ من الرُّكوع كان يقول: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[١] ويقَوْلُهُ كذلك بعد الصَّلاة[٢]، وقال النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله ابن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ...»[٣].

فلا أحد يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِـكَ رَحْمَةَ الله مهمـا عَمِلَ، حتى لو حاول الحَسَدَ والتَّشْوِيهَ ومَنْعَ الرِّزْق لا يَسْتَطِيعُ، إذا فتح الله الرَّحْمَةَ للعَبْدِ فلا أحد يَسْتَطِيعُ أن يَحُولَ بينه وبينها؛ ولهذا جاءتْ: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

و(لا): نافيةٌ للجِنْس، وهي أَنَصُّ شَيْء على العُمومِ؛ ولهذا عُـمومُ لا النافِيَةِ للجِنْسِ لا تَخْصِيصَ فيه أَبَدًا.

والضَّميرُ في ﴿لَهَا﴾ يعود على الرَّحْمَةِ.

وَقَـوْله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ لعلَّكَ تتـوقَّع أن يكون نَصُّ الآيَـة الكريمَةِ (وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا)؛ لأنَّ الكَلَام الآن في الرَّحْمَة وهو في الجُمْلَة الأولى قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فيَقْتَضي أن تكون الجُمْلَةُ الثانية كالأُولى؛ أي: (وَمَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم (٤٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) هكذا تتوقَّعُ، ولكن ليس الأمر كذلك.

لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لم يُخَصِّصْ بالرَّحْمَة حتى نَقولَ: إنَّ المُتَوَقَّع أن يقول: (فَلَا مُرْسِلَ لَهَا) بل قال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ وحَذَفَ المُتَعَلَّق لِيُفِيدَ العُمومَ؛ أي: (وما يُمْسِكْ من رَحْمَةٍ وما يُمْسِك من شَرٍّ فلا مرسل له) حتى الضَّرَر الذي يُمْسِكُه الله عَزَّوَجَلَّ لا أحد يرسله إليك، حتى الرَّحْمَة التي أَمْسَكَها الله عنك لا يُمْكِنُ أن يُرْسِلَها أحدٌ إليك.

ولهذا يسعى الإِنْسَانُ أحيانًا إلى ما يراه من رَحْمَةِ الله مِن رِزْقٍ أو غَيْرِه، ثم يَحُول القَدَرُ بينه وبينه، يتعَرَّضُ الإِنْسَان أحيانًا لأخطارٍ ولكن يَسْلَمُ منها، قد يَحْصُل للسَّيَّارة انقلابٌ أو تصادمٌ، فيموت أناسٌ أقوى مِنْكَ أجسامًا، وأقوى منك مَنَعَةً، وتبقى أنت.

إذن: أمسك الله عنك الضَّرَر، ولولا هذا الإِمْساكُ لَهَلَكْتَ فيمن هلك.

إذن نقول: (ما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له) أي: لِمَا أَمْسَكَهُ، فعاد الضَّميرُ في ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ على لفظِ ﴿وَمَا﴾ ولفظ ﴿وَمَا﴾ مُذَكَّرٌ، بخلافه في الأَوَّل، فعاد على ﴿رَّحْمَةٍ﴾ لأنَّها مُؤَنَّث.

الآن تبيَّنَ لنا: أنَّ السِّياقَ على أَتَمِّ ما يكون من البلاغَةِ، وأنَّ ما كنا نتوقَّعُه من أن يقال: (فلا مُرْسِلَ لها) ليس على ما نتوقَّع؛ لأنَّ قَوْله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لا يعني الرَّحْمَةَ، إذن هو عامٌّ؛ ولهذا نقول: إنَّ قَوْلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وما يُمْسِكْ من ذلك] فيه قُصورٌ؛ لأنَّ قَوْله: (من ذلك) يعود إلى الرَّحْمَة، ولكن نقول: (وما يُمْسِكْ من ذلك وغَيْرِه).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد إِمْساكِهِ]، وهذا لا شكَّ

أَنَّه احتمال، وأَنَّه يُحْتَمَل أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى إمساك المُسْتَفادِ من قَوْله تعالى: ﴿يُمْسِكْ﴾.

فإذا قيل: هل لهذا نظير؛ أن يعودَ الضَّميرُ على المَصْدَر المفهومِ من الفِعْل قبله؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنَّ مَرْجِعَ الضَّميرِ لا بُدَّ أن يكون اسْمًا مذكورًا مطابِقًا قبل أو بعد، أو مُقَدَّرًا، المُهِمُّ أنَّ مَرْجِعَ الضَّمير اسْمٌ، والاسْمُ إمَّا أن يُذْكَر بلفظه الصَّريحِ مقدَّمًا أو مُؤَخَّرًا أو مُقَدَّرًا، وإمَّا أن يُؤخَذَ من مصدرِ فعلٍ سابقٍ، هنا على كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكٍ؟

فالجوابُ: كَلِمَة (إمساك) سَبَقَتْ؛ لأن ﴿يُمْسِكْ﴾ فعل مَأْخوذٌ من (الإمساك).

إذن: فقد تضمَّنَ الفِعْلُ ذلك اللَّفْظَ وهو الإمساكُ، ونظيره قَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨] ﴿هُوَ﴾؛ أي: العَدْلُ المَفْهومُ من قَوْلِه تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

والأَصْلُ في مَرْجِع الضَّمير أن يكون اسْمًا مذكورًا متقدِّمًا مطابِقًا، وقد يتأخَّرُ، وقد يُقدَّرُ، وقد يكون مفهومًا من مَصْدَرِ فِعْلٍ سابِقٍ، كما هو في قَوْله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وكما في هذه الآيَة على تَقْديرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهل يُمْكِن أن يُحْتَمَل عَوْدُ الضَّميرِ على غَيْرِ (الإمساكِ)؟

الجواب: نعم، فيُحْتَمَلُ أن يعود على (الله) عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد اللهِ، وتكون كقَوْله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣]، ويكونُ الضَّميرُ في قَوْله تعالى:

﴿مِنْ بَعْدِ﴾ عائِدًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أَقْرَبُ؛ لأنَّها أدَلُّ على كمالِ التَّصرُّف في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالِبُ على أَمْرِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فِعْلِه] وهذا التَّفْسيرُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاصِرٌ؛ لأنَّ قَوْله: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِبُ على أَمْرِه]، هذا أَحَدُ معاني (العزيزِ)؛ فإن (العزيزَ) له ثلاثَةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، والقَهْرِ، والامْتِناعِ.

١- القَهْرُ وهو مَعْنى قَوْله: [الغالب على أَمْرِه]، ونقول: إنَّه يَشْمَلُ الغالِبَ على أمره الذي لا يُغلَب، وهذا هو القَهْرُ.

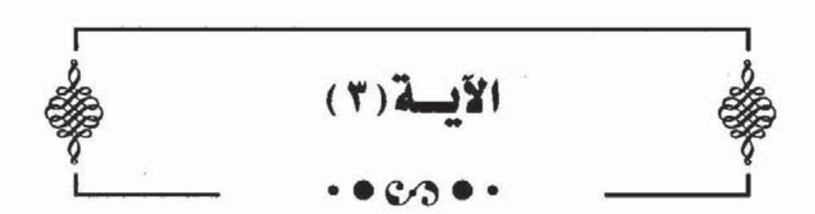
٢- ذو القَدْرِ الرَّفيعِ العالي، وهذا مَعْنى قَوْلنا: (عِزَّةُ القَدْر).

٣- أمَّا عِزَّةُ الامتناعِ؛ يعني: أنَّه يَمْتَنِع أن ينالَه سوءٌ أو نَقْصٌ أو عَيْبٌ.

فالعِزَّةُ إذن ثلاثةُ معانٍ، وليست معنًى واحدًا.

أما ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في فِعْلِه]، وهذا أيضًا قصورٌ؛ لأنَّ الله حكيمٌ في فعله وَقَوْله، في قَدَرِه وشَرْعِه، في الكُلِّ، بل إنَّ الحكيمَ لها مَعْنًى آخرُ؛ لأنَّها مَأْخوذةٌ من الحُكم والإِحْكام، فهو ذو حُكمٍ وذو إحكامٍ، والحُكْمُ كَونيٌّ وشَرْعِيٌّ، والإحكامُ في الغاية أو في الصُّورَة التي عليها الشَّيْء، فالجميعُ أربعةُ أَنْواعٍ، ويَقْرِنُ الله تعالى دائمًا بين العِزَّةِ والحِكْمَةِ؛ لما في ذلك من كمال عِزَّته وحِكْمَتِه.

• • ۞ • •



الآية (٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

تصديرُ الخِطابِ بالنِّداءِ يدلُّ على الاهتمامِ به والعِنايَةِ به؛ لأنَّ النِّداءَ يتضَمَّنُ التَّنْبيهَ؛ ولهذا إذا قلْتَ للطَّالِبِ: (يا وَلَدُ) فإنَّه يَنْتَبِهُ، فتصديرُ الحُكْمِ بالنِّداء يدلُّ على العِنايَةِ به؛ لأنَّ النِّداءَ يُفيدُ التَّنْبيهَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَهْل مَكَّةَ].

وهذا بلا شَكٍّ قصورٌ؛ لأنَّ النَّاسَ عامٌّ، والواجِبُ علينا في القُرْآن والسُّنَّة أن نُبْقِيَ العامَّ على عُمومِه حتى يقومَ دليلٌ على إرادَة الخُصوصِ، وإلَّا فإنَّ الواجِبَ إبقاؤُهُ على عُمُومِهِ؛ لأنَّه ليس لنا الحَقُّ في أن نَتصَرَّفَ في مدلولاتِ الأَلْفاظِ المُخالِفَة لظاهِرِها إلا بِدَليلٍ من المُتكَلِّم أو من يَتكَلَّم مبيِّنًا كَلَامَه؛ كالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنِّداءُ إذن عامٌّ لجميعِ النَّاسِ.

قَوْله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المُرادُ بالذِّكْرِ هنا ذِكْرُ النِّعْمَة بالقَلْبِ، وذِكْرُها باللِّسانِ، وذِكْرُها بالفِعْل (بالجوارِحِ).

فذِكْرُها بالقَلْبِ بأن يتأمَّلَ الإنْسانُ، من أين أتت هذه النِّعْمَة؟ ومَن الذي خلقه؟ ومن الذي أمَدَّهُ بالرِّزْق وهو في بَطْنِ أمِّه لم يَخْرُجْ بَعْدُ؟ ومن الذي أعدَّه لقَبُولِ

ما يَمُرُّ به وتَصَوُّره وتَعَقُّله وتَنْفيذه؟

الجواب: الله، فأنت إذا تذكَّرْتَ في قلبك -ونَسْأَلُ الله أن يُعيذَنا وإيَّاكُم مِنَ الغَفْلَةِ- عَرَفْتَ أنَّ ما بكَ من نِعْمَة فهو مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيتأمَّلُ الإِنْسَانُ: يقول: مَنِ الذي أَوْجَدَني؟ من الذي أَمَدَّنِي بالنِّعَم وأنا في بطن أمي، ولا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يُوصِلَ إليه لُقْمَةَ العَيْشِ أو جَرْعَةَ الماء، ثم مَن الذي أعدَّني وهيَّأَني لأن أكونَ قابِلًا لِما فيه مَنْفَعَتِي في الدُّنْيا والآخِرَة؟

الجواب: الله عَزَّوَجَلَّ.

فالنِّعَم إيجادٌ وإمْدادٌ وإعدادٌ، وكُلُّ ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ؛ هذا ذِكْرُها بالقلب.

وأمَّا ذِكْرُها باللِّسان أن يُثْنِيَ على الله بها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] فيتَحَدَّثُ بالنِّعَم لا على سَبيلِ الافْتِخارِ، ولكنْ على سبيل الثَّناءِ.

ذِكْرُها بالجَوارِحِ أن يُرَى أَثَرُ هذه النِّعْمَة عليه، فإن كانت النِّعْمَةُ عِلْمًا رُؤِيَ أَثَرُ هذه النِّعْمَة عليه بِحُسْنِ التَّصَرُّف، والوَقارِ، والسَّكِينَة، والأَدَب، ونَشْر العِلْمِ، والدَّعْوَةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هذا مثال، وإذا كان بِمالٍ يُرَى أَثَرُ النِّعْمَة عليه بالإِنْفاقِ فيما يُحِبُّه الله عَزَّوَجَلَّ من الزَّكاةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبَة، والصَّدَقاتِ المُسْتَحَبَّة، والثِّيابِ الجَميلَةِ، وما أَشْبَه ذلك: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»[1] هذا ذكرٌ بالجوارِحِ.

ومِن ذِكْر النِّعْمَة بالجَوارِحِ أيضًا أن يقوم بالشُّكْر، والله عَزَّوَجَلَّ أَمَرَنا بذِكْرِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٤٣٨)، من حديث عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نِعْمَتِه للغايَة؛ وهي كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] ليس المُرَادُ أيضًا أن تَذْكُرَ النِّعْمَةَ فقط، بل لا بُدَّ من قَرْنِ هذا الذِّكْرِ بالشُّكْرِ.

فصار الذِّكْرُ يَشْمَلُ ثلاثَةَ أُمورٍ: الذِّكْر بالقَلْبِ، واللِّسانِ، والجوارِحِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: (نِعْمَةَ) مفردٌ مضاف، فيَشْمَلُ جميع النِّعَمِ، وهي كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِسْكانِكُمُ الحَرَمَ ومَنْعِ الغاراتِ عنكم] هذا التَّفْسيرُ بناءً على أنَّ المُخاطَبَ أَهْلُ مَكَّة، ولكن نقول: ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالنِّعَمِ التي لا تُحْصَى، وهي كثيرةٌ جدًّا كما أسْلَفْنا الأَمْثِلَة عليها، فتكونُ نِعْمَةً بالإيجادِ والإمْدادِ والإعْدادِ، كلُّ هذه مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ.

قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعني: إذا تَقَرَّرَ أَنْ شَكَرْتُم نِعْمَةَ الله عليكم فإنَّنا نُوَجِّهُ إليكم هذا السُّؤالَ المُتَضَمِّنَ للنَّفْيِ.

قال: [﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ زائِدَةٌ، و﴿خَالِقٍ﴾: مُبْتَدَأ، ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ بالرَّفْعِ والجَرِّ نعتٌ لـ﴿خَالِقٍ﴾ لفظًا ومحلًّا، وخَبَرُ المُبْتَدَأ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ﴾].

﴿هَلْ﴾: حرفٌ فهي أداة اسْتِفْهام.

و﴿مِنْ﴾ زائِدَةٌ زائِدَة، وكيف (زائِدَةٌ زائِدَة)؟ أي: زائِدَةٌ لَفْظًا زائِدَةٌ للمَعْنى؛ لأنَّها تُفيدُ توكيدَ النَّفْيِ والتَّنْصِيص على الأُمُور، و﴿خَالِقٍ﴾ إذن مُبْتَدَأ مرفوع بضَمَّةٍ مُقَدَّرَة على آخِرِه مَنَعَ من ظُهورِها اشْتِغالُ المَحَلِّ بحركَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِد.

و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه قراءتان (غَيْرُ) و(غَيْرِ)، وكلاهُما صحيحٌ، أمَّا على قِراءَة الجَرِّ (غيرِ الله) فهي صِفَةٌ تابعةٌ لِلَفْظِ ﴿خَٰلِقٍ﴾ لأنَّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مَجْرورٌ، وأمَّا على قِراءَة الرَّفْعِ فهي صِفَةٌ تابعةٌ لِمَحَلِّ ﴿خَٰلِقٍ﴾؛ لأنَّ محلَّه الرَّفْع على الابْتِداء.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالرَّفْعِ والجَرِّ نعتٌ لخالِقٍ لفظًا ومَحَلًّا] في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفٌّ ونشرٌ مُشَوَّش، ونقول: (غيْرُ مُرَتَّبٍ) إذا صار في القُرْآن أو في الحديثِ، أمَّا في كَلَامِ النَّاسِ فنقول: (مُشَوَّش).

فهو (بالرَّفْع والجَرِّ نَعْتٌ لخالِق) لو كان مُرَتَّبًا لقال: (نَعْتٌ لخالِقٍ محلًّا)؛ لأنَّه بالرَّفْعِ يكون نعتًا للمَحَلِّ، وبالجَرِّ يكون نعتًا لِلَّفْظ.

وعلى كُلِّ حالٍ: ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيها قراءتان، ولكلٍّ منهما وجْهٌ في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَوْله[﴿يَرْزُقُكُم﴾: خَبَرُ المُبْتَدَأ] هل الفِعْلُ نَفْسُه خَبَرُ المُبْتَدَأ أو الجُمْلَة؟

الجواب: الجُمْلَة، لكنَّهُم عند الإِعْراب يتساهَلونَ فمثلًا يقول: (فلانٌ في المَسْجِد) يقولُ: (في المسجد): جارٌّ ومَجْرورٌ خَبَرُ المُبْتَدَأ.

قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ اسْتِفْهامٌ بمَعْنى النَّفْي، وقد ذَكَرْنا سابقًا أنَّ الاسْتِفْهامَ إذا كان بمَعْنى النَّفْيِ فإنَّه مُشْرَبٌ مَعْنى التَّحَدِّي؛ يعني: لو قال: (لا خَالِقَ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ) استقامَ الكَلَامُ، لكن إذا قال: (هل من خالِقٍ) صار أَبْلَغَ؛ لأنَّه يَتَضَمَّن النَّفْيَ والتَّحَدِّيَ، كأنَّه يقول: (أروني خالِقًا غَيْرَ الله يَرْزُقُكم من السَّماء والأَرْض) كما قال الله تعالى في آيَةٍ أخرى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٠].

وَقَوْله تعالى: ﴿خَٰلِقٍ﴾ الخَلْقُ في اللُّغَةِ: التَّقْديرُ، ومنه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَلأَنْـــتَ تَفْـــرِي مَـــا خَلَقْـــتَ وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْـرِي(١)

فَقَوْله: (تَفْرِي مَا خَلَقْتَ)؛ يعني: ما قدَّرْتَ، ولكنه يُطْلَقُ على الإيجادِ المَسْبوقِ بتَقْديرٍ، فهنا ﴿خَلِقٍ﴾ بمَعْنى مُوجِدٍ إيجادًا مَسْبوقًا بتَقْديرٍ، وَقَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

الجواب: لا، لا خالِقَ غَيْرُ الله يَرْزُقُنا من السَّماء والأَرْضِ، وقد سبق لنا مِرارًا على نَفْيِ الخَلْقِ عمَّا سِوى الله، وقلنا: إنَّه قد جاءت نُصُوصٌ تَدُلُّ على أنَّ غَيْرَ الله يَخْلُق.

وأَجَبْنا على ذلك بأنَّ خَلْقَ غَيْرِ الله ليس إيجادًا، ولكنه تَحْويلٌ من صُورَةٍ إلى صورَةٍ، وأيضًا ليس عامًّا، وكذلك خَلْقُ غَيْرِ اللهِ هو مِنْ خَلْقِ اللهِ في الواقِعِ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] حتى لو أنَّني الذي خلَقْتُ هـذا الشَّيْءَ يعـني: أَوْجَدْتُه؛ بمَعْنى: غَيَّرْتُه من حالٍ إلى حالٍ، فإنَّ فِعْلي هذا مخلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فعليه نقول: إنَّ الخالِقَ الحَقيقِيَّ هو الله.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ بمَعْنى يُعْطيكُم؛ لأنَّ الرِّزْق بمَعْنى العَطاءِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨].

قَوْله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرِّزْقَ من السَّماءِ بالمَطَرِ، وهذا لا شكَّ أنَّه داخِلٌ فيه؛ فإنَّ المَطَرَ من الرِّزْق النَّازِل من السَّماءِ، وهل هناك رِزْقٌ غَيْرُه يَنْزِلُ من السَّماء؟

نعم، الوَحْيُ وهو رِزْقٌ مَعْنَوِيٌّ.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص٣٢).

ولماذا لا نقول: الطُّيُور مطلقًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل:٧٩] فهي تَنْزِلُ من السَّماء وهي رِزْقٌ للعِبادِ أيضًا؟

والجوابُ: هي رِزْقٌ من الأَرْضِ ومِنَ السَّماء.

ويُمْكِن أن نقول: إنَّ الطَّلَّ مِنَ الرِّزْقِ الذي هو المَطَر (الرُّطوبَة)، وهي من السَّماء أيضًا وهي رِزْقٌ؛ لأنَّها تَنْفَعُ الأَشْجار.

قَوْله: [﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ومِن (الْأَرْضِ)] قدَّرَ ﴿مِّنَ﴾ إِشَارَةً إلى أن (الأَرْضَ) معطوفةٌ على السَّماء.

قَوْله: [﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المَطَرَ، ومِنَ (الْأَرْضِ) النَّباتَ]، وهذا صحيح، لكنه قاصِرٌ؛ لأنَّ الرِّزْقَ من الأَرْض أكْثَرُ من النَّباتِ، فالرِّزْق من الأَرْض يَشْمَلُ النَّباتَ والمَعادِنَ، والمياه؛ وغيْرُ ذلكَ كَثيرٌ من الأَرْضِ.

وَقَوْله: [والاسْتِفْهامُ للتَّقْريرِ؛ أي: لا خالِقَ رازِقٌ غَيْرُه] قَوْله: [للتَّقْريرِ] ثم قال: أي: [لا خالِقَ] هذا شِبْهُ تناقُضٍ؛ لأنَّ قَوْله: [لا خالِقَ] يقتضي أن يكون معناه النَّفْيَ، وهو كذلك، فهو للنَّفْيِ المُشْرَبِ بالتَّحَدِّي، وأنَّه لا خالِقَ إلا الله، وإذا كان لا خالِقَ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ الواجِبَ أن نعبد الله وَحْدَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣]؛ أي: (لا معبود حقٌّ إلا هو)، وكيف تعلمونَ أنَّه لا رازِقَ يَرْزُقُنا من السَّماء والأَرْض إلا اللهُ، ثم تذهبون فتَعْبدونَ غَيْره؟! هل هذا إلا نَقْصٌ في التَّصوُّر، ونقصٌ في العَقْلِ أيضًا والتَّصَرُّفِ؟! فهو نَقْصٌ في التَّصوُّر والعقل والتَّصَرُّف.

فإذا كان لا رازِقَ إلا اللهُ كيف تَعْبُد اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، والأَشْجارَ

والأَحْجارَ، والشَّمْس والقَمَر، والبَقَر أيضًا، فيوجَدُ أناسٌ يَعْبدونَ البَقَرَ، وأنَّه إذا مَرَّتِ البَقَرَة على طريقِ القِطارِ الحَديدِ فإنَّه يجب أن يَقِفَ ولو تكَسَّرَ كلُّ مَن فيه، وطبعًا القطارُ يَمْشِي بِسُرْعَة إذا وقف تصادَمَتِ الأقراص، ومات مَنْ فيها، أو تكَسَّر، ومع ذلك يقول هؤلاء يجب أن تَقِفَ؛ لأنَّ هذه إله، أو أن تَدْخُل دكَّانه وتأكُلَ ما شاءت وتَدَعَ ما شاءت!

هل هذه عُقُولٌ؟! الجواب: لَيْسَت عُقُولًا، وكانوا في الجاهِلِيَّة يصنعون آلِهَة من التَّمْر، فإذا جاعوا أَكَلوها، أكلوا الإله، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الرَّازِقَ وَحْدَه بإقْرارِكُم واعْتِرافِكُم فيجب أن يكون هو المَعْبودَ وَحْدَه؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:١٦٣].

وأمَّا إِعْرابُ هذه الجُمْلَةِ العَظيمَةِ التي بها يَدْخُل الإِنْسَانُ في الإِسْلام أو يَخْرُج؛ يَدْخُل إن نَطَقَ بها، ويَخْرُج إن أَنْكَرَها.

فإِعْرابُها فيه سِتَّةُ أَوْجُهٍ للنَّحْوِيِّينَ، وأَلَّفَ بَعْضُ العُلَماءِ رسالَةً في ذلك، ولكن أَحْسَنُ ما يُقالُ في إِعْرابها أنَّ: (لا): نافِيَةٌ للجِنْسِ، و(إلَه): اسْمُهَا، وخَبَرُها مَحْذُوفٌ تَقْديرُهُ: (حَقٌّ)؛ أي: لا إِلَه حَقٌّ و(إلا): أداة استثناء، و(الله): بدلٌ من الخَبَرِ المَحْذوفِ.

وهل النَّفْيُ هنا مُسَلَّطٌ على (الوجود) أو على الوجود بِحَقٍّ؟

الجواب: (على الوُجودِ بِحَقٍّ)؛ لأنَّ هناك آلِهَةً دون الله تُعْبَدُ، لكن لَيْسَتْ بِحَقٍّ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، وقال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، فالآلِهَة موجودَةٌ، لكنَّها لا تَسْتَحِقُّ أن تكون آلهةً؛ إذ ليس لها رُبوبِيَّة.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من أَيْنَ تُصْرَفون عن تَوْحيدِهِ مع إقرارِكُم بأنَّه الخالِقُ الرَّازِقُ؟] لو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن عِبادَتِه) لكان أحسَنَ؛ لأنَّ (لا إله إلا هو) تَوْحيدُ أُلوهِيَّة، وليس تَوْحيدَ رُبوبِيَّة، وكَلِمَةُ تَوْحيدٍ تَشْمَل الرُّبوبِيَّةَ أيضًا، فلو قال: (فأنَّى تُصْرَفون عن عبادَتِه وَحْدَه مع إقرارِكُم أنَّه الخالِقُ وَحْدَه) لكان أَحْسَنَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ قال: أي: [تُصْرَفون]، فـ(الأَفْكُ) بمَعْنى الصَّرْف، ماضيه (أَفَكَ) ومُضارِعُه: (يَأْفِكُ أَفْكًا) أَمَّا الإِفْكُ بالكَسْرِ فهو الكَذِبُ.

والكَذِبُ -في الواقِع- يَتَّفِقُ مع (الأَفْكِ) من حيث المَعْنى؛ لأنَّ الكَذِب هو الإخبارُ بِخلافِ الوَاقِعِ، فهو صَرْفٌ للشَّيْء عن حَقيقَتِه، قال الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٩]؛ أي: يُصْرَفُ عَنْهُ من صُرِفَ.

إِذَن: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تُصْرَفونَ عن عِبادَتِه وَحْدَه مع إقرارِكُم بأنَّه الخالِقُ وَحْدَه.

والاسْتِفْهامُ في قَوْله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ، يعني: كيفَ تُقِرُّونَ بأنَّه الخالِقُ وَحْدَه ثم تَعْبدونَ معه غَيْرَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب ذِكْرِ نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارِحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمِّيَّة ذِكْر النِّعْمَة؛ لأنَّها صُدِّرَت بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يدُلُّ على الأَهَمِّيَّة؛ لأنَّ ما صُدِّرَ بالنِّداءِ معناه تَنْبيهُ المُخاطَبِ على الاسْتِماعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بالشَّرائِعِ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فكما يَجِبُ على المُسْلِم أن يَذْكُرَ نِعْمَةَ الله يَجِبُ على الكافِرِ أيضًا أن يَذْكُر نِعْمَةَ الله، وبناءً عليه فإنَّه يُعاقَب على عَدَمِ ذِكْر النِّعْمَةِ في الآخِرَة، وقد يُعاقَبُ عليه أيضًا في الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فَضْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عبادِهِ بالنِّعَم؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١] وليس نِعْمَةً فقط، ولكنَّها جنس، فيشمل جميعَ ما أَنْعَم الله علينا من نِعَمِ الدِّينِ والدُّنْيا سواءٌ عادت إلى البَدَنِ، أو العَقْل، أو العِرْض، أو المال.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا خالِقَ إلا اللهُ بدليل قَوْله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ووَجْهُ ذلك أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمَعْنى النَّفْي، كأنَّه قال: (لا خالِقَ إلا الله).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الرِّزْقَ يأتي الإِنْسَانَ من فوق ومن تَحْت، مِنَ السَّماء والأَرْض؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَانُ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له الإيجادُ والإِعدادُ والإِمدادُ؛ فالإمدادُ مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الرِّزْقَ إمدادٌ للإِنْسَانِ، والإيجادُ مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وأمَّا الإعدادُ فقد أعدَّنا الله لِقَبُولِ الحَقِّ، فإذا كان اللهُ أَعَدَّكُم لهذا القَبُول والاسْتِدْلال بالأَدِلَّة على مَدْلولاتِها، فأنَّى تُؤفكونَ عنها؟

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإِقرارَ بتَوْحيدِ الرُّبوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ الإِقْرارَ بتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّة، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فكما أنَّه هو الخالِقُ وَحْدَه فيجب أن يكون هو المَعْبودَ وَحْدَه؛ ولهذا نقولُ: تَوْحيدُ الأُلُوهِيَّة يَتَضَمَّن تَوْحيدَ الرُّبوبِيَّةِ

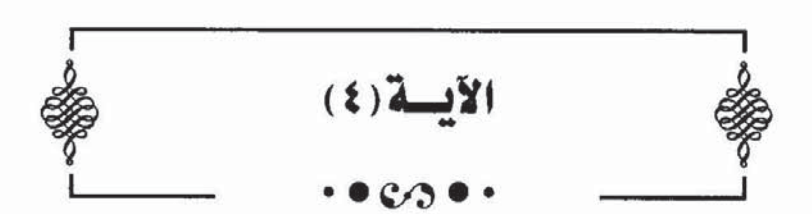
والأَسْماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّه لا يُعْبَدُ إلا من عُلِمَ بأنَّه الرَّبُّ الخالِقُ الكامِلُ في صفاته، وتَوْحيدُ الرُّبوبِيَّة يَسْتَلْزِم تَوْحيدَ الأُلوهِيَّة وتَوْحيدَ الأَسْماءِ والصِّفاتِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بُطلانُ أُلُوهِيَّةِ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لكنْ كيف تَجْمَعُ بين هذا النَّفْيِ وبين إثباتِ الآلِهَة لغير الله في قَوْله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود:١٠١]؟

الجواب: أنَّ الأُلوهِيَّةَ الحَقَّ ليسَتْ إلا لله، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: سَفاهَةُ أولئكَ القَوْمِ الذين يَعْبُدونَ مع الله غَيْرَه مع إِقْرارِهم بأنَّه هو الخالِقُ الرَّازِقُ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ لأنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمَعْنى الإنكارِ والتَّوْبيخ.

• • ۞ • •



الآيــة (٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

• • • •

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا مُحَمَّدُ في مجيئِكَ بالتَّوْحيدِ والبَعْثِ، والحِسابِ والعقابِ، ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾].

قَوْله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: (إنْ) هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ وجوابه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ واقْتَرَن بالفاء؛ لأنَّه مُصَدَّرٌ بـ(قد).

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: يَنْسِبوكَ إلى الكَذِب، فيقولون: إنَّكَ كاذِبٌ، لست رسولًا مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، بل أنت ساحِـرٌ ومَجْنونٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ وما أشبه ذلك، وبَعْضُهم يقول: لا بَعْثَ ولا جزاءَ ولا حِسابَ ولا عِقابَ، إن كَذَّبوك فهذا أمرٌ ليس بِبِدْعٍ مِن بني آدم وليس غريبًا من صنيعِ بني آدَمَ.

﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مَنْ كَذَّبَهُم؟ كَذَّبَهُم أَقْوامُهُم حتى قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلان، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[(١)] حتى إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَبِثَ في قَوْمِه أَلْفَ سنةٍ إلا خَمْسينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

عامًا يَدْعوهُم سرًّا وجَهْرًا، وبالتَّوْبيخِ وبالوعد، ومع ذلك ما آمَنَ معه إلا قليلٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿رُسُلٌ﴾ التَّنْكيرُ هنا للتَّكْثيرِ والتَّعْظيم؛ أي: رُسُلٌ كثيرةٌ ورُسُلٌ عَظيمَة أيضًا كُذِّبَت؛ كُذِّبَ نوحٌ، وكُذِّبَ إبراهيمُ، وكُذِّبَ مُوسى، وكُذِّب عيسى، وهؤلاء هم أولو العَزْمِ من الرُّسُل، وآخِرُ الرُّسُلِ كُذِّبوا، فتكْذيبُكَ إِذَن ليس بِبِدْعٍ.

ويُرادُ بهذا تَسْلِيَة النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّ الإِنْسانَ إذا عَلِمَ أنَّ غَيْره أُصيبَ بِمِثْل مُصيبَتِه تسلَّى بذلك؛ لو أنَّ أَحَدًا أصيب بحادِثٍ، ثم رَأَيْنا الحوادِثَ فيها من انْكَسَرَتْ يَدُه، ومن انْكَسَرَتْ أُصْبُعُه، ومن انْكَسَرَ فَخِذُه، ومن انكسر صُلْبُه، فقام الذي انْكَسَرَتْ أُصْبُعُه يَصيحُ ويَتَضَجَّر، قلنا له: فلان انكسر صُلْبُه، فيَخِفُّ عليه الأَلَمُ وينساه؛ لأن تَسَلِّيَ النَّفْس بالغَيْرِ له أثرٌ عظيمٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]، فاشْتِراكُكُم في العذاب لن يُخَفِّفَ عنكم كما هو الشَّأْن في حال النَّاسِ في الدُّنْيا، وقالت الخَنْساءُ تَرْثي أخاها صَخْرًا[1]:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي عَـلَى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِـي
وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّـأَسِّي

قالتْ: (أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي) أقول: هـذه مات أخوها، وهـذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، فأَنتِ وغيرُكِ سواءٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هنا الجارُّ والمَجْرورُ مُتَعَلِّق بـ﴿تُرْجَعُ﴾ وقُدِّم لإفادَةِ الحَصْرِ؛ يعني: إلى الله لا غَيْرِهِ تُرْجَع الأُمُور، وقد يقال: إنَّه قُدِّمَ أيضًا لفائِدَةِ

(١) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص:٧٢)، الكامل للمبرد (١/ ١٦).

لَفْظِيَّةٍ وهي مراعاةُ الفواصِلِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُرْجَعُ الأُمُورُ في الآخِرَة فيُجازِي المُكَذِّبين ويَنْصُرُ المُرْسَلينَ] وهذا أيضًا من القُصُور؛ لأنَّ الأُمُورَ تُرْجَعُ إليه في الآخِرَة وفي الدُّنْيا أيضًا، فإنَّ الله يَنْصُرُ المُرْسَلين في الدُّنْيا ويُعاقِبُ المُكَذِّبين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]

إِذَن: قَوْله تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هذا عامٌّ في أُمُور الدُّنْيا والآخِرَة، وأُمُورِ الشَّرْع وأُمُورِ القَدَر، فكلُّ الأُمُورِ تُرجَع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هو الأَوَّلُ والآخِرُ، منه المُبْتَدَى وإليه المُنْتَهى، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، قال ابْنُ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَانَ لَهُ شَيءٌ فَلْيَأْتِ بِهِ؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾» وماذا يبقى؟ إذا كان الخلق -وهو الإيجاد- لله، والأمر في التَّصَرُّف والتَّصَرُّف لله ماذا بقي لنا؟ ما بَقِيَ شَيْءٌ.

ولهذا لم يبقَ شَيْءٌ في الدُّنيا والآخِرَة لأَحَدٍ أبدًا، فالأُمُورُ كُلُّها لله.

والأُمُورُ هنا جَمْعُ (أَمْر) بمَعْنى الشَّأن؛ أي: شُؤُونُ الدُّنْيا والآخِرَة والشُّؤون القَدَرِيَّة والشَّرْعِيَّة؛ كلُّها تُرْجَع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا كانت تُرْجَع إلى الله وقد كُذِّبَت الرُّسُلُ، فما مصيرُ الرُّسُلِ والمُكَذِّبينَ؟

الجواب: مصيرُ الرُّسُلِ النَّصْرُ في الدُّنْيا والآخِرَة، ومَصيرُ المُكَذِّبينَ الخِذْلانُ والخِزْيُ والعارُ في الدُّنْيا وفي الآخِرَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ تَكْذيبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس ببِدْعٍ؛ فالرُّسُلُ قد كُذِّبَتْ من قبله، وهذا واضِحٌ من اللَّفْظ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ عِنايَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بِرَسولِه ﷺ، وهـذا مَأْخوذٌ من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلَّى رسولَهُ بِذِكْر من كُذِّبَ مِن قَبْلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ سُنَنَ الله تعالى في خَلْقِه واحِدَةٌ؛ لأنَّه أَهْلَكَ من كَذَّبوا الرُّسُل وهَدَّد من كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله؛ لأنَّه قال: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ يعني: أنت رسولٌ وهم رُسُلٌ، ولولا ذلك لم يكن لِقَوْله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فائِدَةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ مرْجِعَ الأُمُور والشُّؤونِ كُلِّها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ووجه اختصاصِ هذا بالله تقديمُ المعمول؛ فتَقْديمُ المَعْمولِ يُفيدُ الحَصْرَ، إذَن: إلى الله لا إلى غَيْره تُرْجَع الأُمُور.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَان إذا أصابَتْه الضَّرَّاء أن يَرْجِعَ إلى رَبِّه وأن يتعَلَّقَ به فإذا كانت الأُمُور تُرْجَعُ إلى الله فليَكُنْ طَلَبُ إزالَةِ الضَّرَر من الله.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وجوبُ تَحْكيمِ الكِتابِ والسُّنَّة، وأنَّه لا يَجوزُ العُدولُ عمَّا دَلَّ عليه الكِتابُ والسُّنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأنَّ الأُمُورَ والشُّؤونَ تُرجَع إلى الله، ومنها الحُكْمُ بين النَّاس، فيجب أن يكونَ مَرْجِعُه إلى الله.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ من حَكَّمَ غَيْرَ الكِتَاب والسُّنَّة فقد اعْتَدَى على حَقِّ الله؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إليه وَحْدَه ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لا يجوز للإِنْسَان أن يُسْنِدَ ما رَزَقَه الله مِن رِزْق، سواءٌ كان علمًا أم مالًا أم جاهًا أم ولدًا أم زَوْجَة، إلى نَفْسِه، فيقول: إنَّما أوتِيتُه على عِلْمٍ عندي؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على العبادِ بِإِرْسالِ الرُّسُلِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ وإِرْسالُ الرُّسُلِ من أكْبَرِ النِّعَمِ؛ لأنَّنا لا نَسْتَطِيعُ أن نَعْرِف كيف نَعْبُدُ اللهَ إلا عن طريق الرُّسُلِ، فالإِنْسَانُ يَعْرِف مثلًا بِفِطْرَتِه أنَّ الله تعالى موجودٌ، وأنَّ له ربًّا خالِقًا مدبِّرًا، لكن لا يَعْرِف كيف يَصِلُ إلى هـذا الرَّبِّ إلا من طريـق الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث جعل للرُّسُل من يُكَذِّبهم؛ لأنَّه لولا تَكْذيبُهُم ما حصل الامْتِحانُ، فهذه من الحِكَم العَظيمَة؛ أن يجْعَل الله للرُّسُلِ من يُكَذِّبهم، فلولا تكْذيبُهُم لم يَحْصُلِ الامتحان؛ إذ لو كان النَّاسُ كُلُّهُم على الطَّاعَة ما تَمَيَّزَ الخَبيثُ من الطَّيِّب ولا تَبَيَّنَ المُؤْمِنُ من الكافِرِ، ولا قامَتِ سوقُ الجهادِ، ولا الأَمْرُ بالمعروفِ، ولا النَّهْيُ عن المُنْكَر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد:٤].

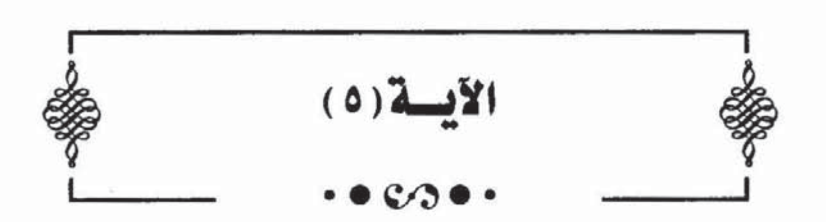
فهذه من الحِكْمَة في وجودِ المُكَذِّبين للرُّسُلِ، وهناك حِكَمٌ كثيرة؛ منها أيضًا: أنَّه لا يَتَبَيَّنُ الحَقُّ حتى يُعْرَفَ الباطِلُ كما قيل[1]:

.... وَبِضِــــدِّهَا تَتَبَــيَّنُ الأَشْــيَاءُ

فلولا الباطِلُ الذي يُنازِعُ الحَقَّ ما عَرَفوا الحَقَّ، ولكان الكُلُّ سواءً، ولا نَعْرِفُ حقًّا من باطِلٍ.

••۞••

(١) انظر: ديوان المتنبي (ص١٢٧).



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

•••

النِّداءُ هنا مُوَجَّهٌ لعمومِ النَّاسِ؛ لكُلِّ النَّاسِ المُؤْمِنِ والكافِرِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ بالبَعْثِ وغَيْرِه] وصَدَق، فكُلُّ ما وَعَدَ الله به فإنَّه حَقٌّ، سواءٌ البَعْثُ، أو العِقابُ، أو الثَّواب، أو النَّصْر، أو الخِذْلان، أو غَيْر ذلك مِمَّا وَعَدَ الله به، فإنَّه حقٌّ.

و﴿حَقّٞ﴾ هنا بمَعْنى صِدْق وثابِت، فهو باعتبارِ الإِخْبارِ به صِدْقٌ، وأنَّه سيكونُ، وباعْتِبارِ وُقوعِهِ ثابِتٌ، ولا بُدَّ؛ فالحَقُّ هنا بمَعْنى الصَّادِق من حيثُ الخَبَرُ به، الواقِع من حيثُ ثُبوتُه، وأنَّه أمرٌ كائِنٌ لا محالَةَ، فليس وَعْدُ الله عَزَّوَجَلَّ كوَعْدِ غَيْرِه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عن الإيمان بذلك] ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾ والنَّهْيُ هنا مؤكَّدٌ بالنُّونِ: ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾، بدون النون: (تَغُرَّكُمْ)؛ أي: تَخْدَعَنَّكم، وهذا مُفَرَّعٌ على ما قبله؛ لأنَّ الإِنْسَانَ الذي تَخْدَعُه الدُّنْيا يكون إيمانُه بِوَعْدِ الله تعالى ضعيفًا؛ إذ إنَّ الدُّنْيا تُلْهيه وتَخْدَعُه حتى يَنْجَرِف وراءها.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا شَكَّ أنَّنا في حياةٍ، وضِدُّها المَوْتُ، و(دنيا): اسْمُ تَفْضيلٍ، مذكَّره (أَدْنى) مثل: عُلْيا وأَعْلى، سُمِّيَتْ دُنْيا من وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّها مُتَقَدِّمَة عن الآخِرَة، فهي أَدْنى إلى النَّاسِ مِنَ الآخِرَة؛ ولهذا تُسَمَّى الحالَ الأُولى.

الثاني: وسُمِّيَتْ دنيا أيضًا من دُنُوِّ مَرْتَبَتِها.

فهي دانيةٌ بمَعْنى قَرِيبةٍ؛ لأنَّها هي الأُولى، وهي دانيةٌ بمَعْنى دُنُوِّ المَرْتَبَة؛ لأنَّ ما فيها من النَّعيمِ -إنْ قُدِّرَ- فإنَّه مُنَغَّصٌ تَنْغِيصًا مُسْتَقْبَلًا أو تَنْغِيصًا حاضِرًا؛ تَنْغيصًا حاضِرًا؛ لأنَّ نَفْسَ النَّعيمِ الذي تُنَعَّمُ به في الدُّنْيا لا بُدَّ أن يُشابَ بِكَدَرٍ؛ كما قال الشاعر:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُسَـاءُ وَيَـوْمٌ نُسَّــرْ[1]

وهذا لو تَأَمَّلْته لوَجَدْتَه كذلك، كلَّ يومٍ في أُسْبوعٍ ناظِرْ نَفْسَكَ؛ يومٌ تكونُ فَرِحًا مسرورًا، ويَوْمٌ تَغْتَمُّ، ويوم تأتيكَ أَشْياءُ خارِجِيَّة تُفْرِحُك، ويوم آخَرُ بالعَكْس، ثم لو قُدِّرَ أنَّ صَفْوَها خلا من ذلك؛ يعني: لم يُشَبْ بأذًى، فإنَّ المُسْتَقْبَل يُنَغِّصُ عليك هذا الصَّفاءَ؛ كما قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُـهُ بِادِّكَـارِ المَـوْتِ وَالهَـرَمِ[2]

فلا بُدَّ من أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إمَّا مَوْتٌ عاجِلٌ، وإمَّا هَرَمٌ مُذْهِبٌ.

فالإِنْسَانُ إذا قُدِّرَ أنَّ الله تعالى مَدَّ له في العُمُر فإنَّه يَرْجِعُ إلى حاله الأولى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠] يَرْجِع إلى حاله الأولى يَسْقُط

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

(٢) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

تَمْييزُه، ويكون أشَدَّ من الصَّبيِّ؛ يعني: كونه عالَةً على غَيْره أَشَدُّ من كَوْنِ الصَّبيِّ عالَةً على غَيْرِه؛ لأنَّ الصَّبيَّ ليس عنده عَقْلٌ وتَمْييزٌ، غايَةُ ما هنالِكَ أَنَّه يصيحُ، وإن أُعْطِيَ شيئًا لَعِبَ به وسَكَتَ، لكنَّ هذا الهَرِمَ عنده شَيْءٌ من التَّمْييزِ.

تَجِدُه يصيحُ على أهْلِه، ويَرْفَعُ صَوْتَه عليهم، ويقول: كيف تَنْسَوْن حاجتي، حينها كُنْتُ شابًّا كنت أعْمَلُ وأُنْفِقُ عليكم، وأُحْضِرُ لكم الطَّعام والشَّراب، واليومَ تَنْسَوْن، فهو يُفْزِعُهُم أكْثَرَ، ثم هو أيضًا ثَقيلٌ، أمَّا الصَّبيُّ فيَسْتَطِيع الواحِدُ أن يَحْمِلَه على يَدِه ويَمْشِي به يمينًا ويَسارًا؛ حتى يَسْكُت، لكنَّ هذا الهَرِمَ هو الإشْكالُ؛ لذلك إذا تذَكَّرَ الإنْسَانُ أنَّه إمَّا أن يموتَ أو أن يَصِلَ إلى هذه الحالِ، فمهما كان عَيْشُه فسوف يَتَنَغَّصُ؛ ولهذا نقول: هذه الحياةُ دُنْيا، وهي مَأْخوذَةٌ من دُنُوِّ الزَّمَنِ ودُنُوِّ المَرْتَبَةِ والقَدْر.

قَوْله: [عن الإيمانِ بذلك]؛ أي: بِوَعْدِ الله، وما أَكْثَرَ الذين غَفَلوا عن وَعْدِ الله! وما أكْثَرَ الذين اعْتَمَدوا على الأَسْبابِ الظَّاهِرَة فَنَسُوا الأَسْبَاب التي وراءها!

فكَثيرٌ من النَّاسِ يقول في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠] كيفَ يَنْصُرُ الله المُسْلِمينَ وهم على هذه القِلَّة على أعدائِهم الكُفَّارِ وهم بهذه الكَثْرَة وبهذه القُوَّة، كيف يكون هذا؟!

فيعْتَمِدُ على الحياة الدُّنْيا وعلى الأَسْبابِ المادِّيَّة دون ما وراءها، والواجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بِوَعْدِ الله، فالله تعالى وَعَدَ أن يَنْصُرَ من يَنْصُرُه كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النُّور:٥٥].

يقول قائل: كيفَ يَسْتَخْلِفُنا الله في الأَرْضِ وعندنا الأُمَم القَوِيَّة الكَثيرَةِ ما الجواب على ذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا تَغُرَّكَ الدُّنْيا حتى في النَّصر، أَسْبَابُ النَّصْرِ ليست هي المادَّة فقط، بل هناك شَيْءٌ وراءها وهي قُوَّة العزيز عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمِه وإِمْهالِهِ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيْطانُ]؛ يعني: لا يَخْدَعْكُم أيضًا مَن وَصْفُه الخِداعُ؛ ولهذا جاء وَصْفُ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ و(غَرورٌ): فَعولٌ، صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ؛ لأنَّ غُرورَهُ كان وصفًا لازِمًا له لُزُومَ الوُجُوبِ.

و(الغَرورُ) غَيْرُ (الغُرُور) بالضَّمِّ؛ (الغُرورُ) بالضَّمِّ مَصْدَرٌ، و(الغَرورُ) صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ دالَّةٌ على المَعْنى ومن قام به المَعْنى، (فالغَرورُ) إِذَن هو الشَّيْطانُ، سواء كان إنسِيًّا أم جِنِّيًّا؛ فمن شَياطِينِ الجِنِّ من يَغُرُّ، وهو معروف، وهو الشَّيْطانُ الذي يُلْقِي في قلبِكَ ما يَخْدَعُك، ومن شياطينِ الإِنْسِ أيضًا من يَغُرُّ، وهم جُلَساءُ السُّوءِ الذين يأتون الإِنْسَانَ فيَدْخُلونَ فيه كما يَدْخُلُ الماء في المَدَر، أو النَّار في الفَحْم، يدخلون له دخولًا بحيث يكون كالنَّائِمِ أو كالميِّت بين يَدَي الغاسِل، فالله عَزَّوَجَلَّ حَذَّرَنا من هؤلاء.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمِه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشَّيْطانُ].

[في حِلْمِه وإِمْهالِهِ]، صحيح أَنَّ الإِنْسَانَ قد يَغْتَرُّ بالله في حِلْمِه وإِمْهالِهِ فيقول لنفسه: لو كُنْتُ على خَطَأٍ لعاقَبَني الله، وما دام الله عَزَّوَجَلَّ يَرْزُقُني ويُعافِيني فهذا دليلٌ على أنِّي على حقٍّ، لكنَّ هذا من الأَمانِيِّ الباطِلَة التي حذَّرَ عنها رسولُ الله ﷺ فقال:

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]؛ أي: الأمانِيَّ، وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيثُ الصِّحَّة، لكنَّ معناه صحيحٌ بلا شَكٍّ، فإنَّ الكَيِّسَ الحازِمَ هو الذي يَعْمَل لِمَا بعد المَوْت.

فَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: ولا يَخْدَعَنَّكُم بالله في حِلْمِه وإمهاله، وغير ذلك مِمَّا يَتَعَلَّقُ بأفعالِهِ وأحكامِهِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الخادِعُ وهو الشَّيْطانُ؛ قَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشَّيْطانُ] هذا اسْمٌ للشَّيْطان (إِبْليسُ) وهو مُشْتَقٌّ من شاطَ يَشِيطُ إذا غَضِبَ، أو من شَطَنَ يَشْطِنُ إذا بَعُدَ، والوَصْفان ثابتانِ للشَّيْطانِ؛ لأن عِنْدَه طَيْشًا وسُوءَ تَصَرُّفٍ، كالذي يَشِيطُ غضبًا، وهو أيضًا شاطِنٌ؛ أي: بعيدٌ عن رَحْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَعَنَه فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٨].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهَمِّيَّة التَّصْديقِ بِوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ، وَجْهُ ذلك أنَّه صَدَّرَه بالنِّداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بالفُروعِ؛ لأنَّ الخِطابَ هنا عامٌّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ وَعْدَ الله لا بُدَّ أن يَقَعَ؛ لأنَّه خَبَرٌ من صادِقٍ قادِرٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ في حال الخَبَرِ عنه، واقِعٌ في حال إيقاعِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّه يَجِبُ على الإِنْسَان أَلَّا يَرْتَبِطَ بالدُّنْيا مهما حَصَلَ له من زَهْرَتِها ونَعيمِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ من اغْتَرَّ بالدُّنْيا فإِنَّه مَخْدوعٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تَخْدَعَنَّكم؛ لأَنَّ العاقِلَ لا يَنْخَدِعُ بذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى وجوبِ العِنايَةِ بالآخِرَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فإذا نُهينا عن الحَياةِ الدُّنْيا، فمعناه أَنَّنا نُلْزَمُ أو نُؤْمَرُ بالعنايَةِ بالآخِرَة؛ لأَنَّها في الحَقيقَةِ هي المُنْتَهى، أَمَّا هذه الدُّنْيا فإِنَّ الإِنْسَانَ يَمُرُّها عابرًا فقط، حتى القُبُور التي يبقى فيها الإِنْسَانُ مِنَ السَّنَواتِ لا يَعْلَمُها إلا اللهُ هي مَحَلُّ عُبُورٍ، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] سَمِعَ أعرابِيٌّ فتًى يَقْرَأُ هذه الآيَةَ، فقال: (والله ما الزَّائِرُ بِمُقيمٍ) أو (إِنَّ الزَّائِرَ لظاعِنٌ)؛ لأَنَّه قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ والمعروف أَنَّ الزَّائِرَ يَبْقى مُدَّةً ثم يَنْصَرِف.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: دُنُوُّ الدُّنْيا مَرْتَبَةً ودناءَتُها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فهي وإن كانت حياةً لكنها دُنْيا، ويَسْتَلْزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخِرَة؛ لأَنَّ وَصْفَ الضَّرَّة بالعَيْبِ يدلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جوازُ تَنَعُّمِ الإِنْسَانِ بالدُّنْيا على وجهٍ لا تَغُرُّه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولم يَقُلْ: (فلا تَتَنَعَّمُوا في الدُّنْيا بشَيْءٍ)، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الخَطَرِ من كثرة المالِ ويُسْرِ العَيْشِ؛ لأَنَّ هذا قد يَخْدَعُ المَرْءَ، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ

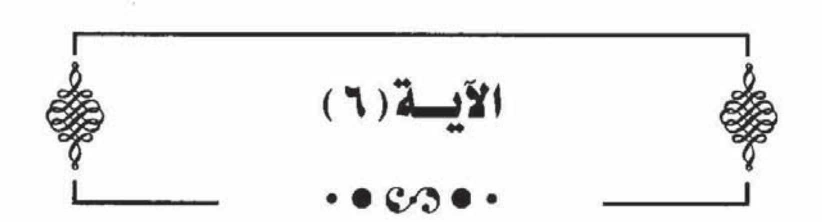
تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[(١)].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: وُجُوبُ الحَذَرِ من الشَّيْطانِ ووَساوِسِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وسواءٌ كان الشَّيْطانُ إنسيًّا أم جنيًّا؛ لأنَّ الشَّيْطانَ الإنْسِيَّ يَغُرُّ الإِنْسَانَ كما يَغُرُّه شيطانُ الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحَذَرُ الشَّديدُ من هذا الذي يَغُرُّنا؛ من شياطينِ الإِنْسِ والجِنِّ؛ لأنَّه وَصَفَه بِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ والغَرورُ -كما سبق- إمَّا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ وإمَّا صيغَةُ مُبالَغَةٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.



الآية (٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

• • ◦ • •

هـذه الجُمْلَةُ مُؤَكَّـدَة بـ﴿إِنَّ﴾، وقال: ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولم يَقُلْ: (إنَّ الشَّيْطان عَدُوُّكم) لثُبُوتِ هذه العداوَةِ؛ ولهذا أتى بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّة المُكَوَّنَةِ من مُبْتَدَأ وخَبَرٍ، فـ﴿عَدُوٌّ﴾: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ و﴿لَكُمْ﴾: خبَرٌ مقدَّمٌ، وتقديمُ الخَبَرِ هنا يفيد الحَصْر؛ يعني: كأنَّه ليس عَدُوًّا إلا لكم، ومعلومٌ أنَّ من انْحَصَرَت عداوَتُه في شَخْصٍ فإنَّه يَجِب عليه أن يَحْتَرِز منه أكثَرَ وأكثر.

وَقَوْله تعالى: ﴿عَدُوٌّ﴾ على وَزْنِ فَعُولٍ، فهي صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، والعَدُوُّ ضِدُّ الوَلِيِّ، فإذا كان الوَلِيُّ هو النَّاصِرَ المُتَوَلِّيَ لأَمْرِك المُعْتَنِيَ به، فالعَدُوُّ هو الخاذِلُ الذي لا يُهِمُّه أَمْرُك، فالشَّيْطانُ عَدُوٌّ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لَمَّا أكَّد أنَّه عدُوٌّ لنا رَتَّبَ على ذلك فقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ والفاءُ هنا يُسَمُّونَها فاءَ التَّفْرِيعِ؛ أي: فِبَسَبَب ثُبوتِ كَوْنِه عَدُوًّا اتَّخِذوه عَدُوًّا؛ يعني: اجْعَلوه عَدُوًّا لكم بحيث تَنْفِرون منه نُفُورَكُم من الأَعْداءِ.

فإذا قال قائل: كيف نَتَّخِذُه عدُوًّا؟

الجوابُ: نَتَّخِذُه عَدُوًّا بِكَرَاهَتِه وبُغْضِه، وبِعَدَمِ الانْصياعِ لِأَمْرِهِ وَوَسْوَسَتِهِ؛

لأَنَّه كما قال الله عنه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] فهو لا يأمُرُ إلا بالفَحْشاءِ والسُّوءِ ومَعْصِيَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أَحْسَسْتَ من نَفْسِك أَنَّكَ تَهْوَى المَعْصِيَةَ فاعْلَمْ أَنَّ هذا من إملاءِ الشَّيْطانِ، فيَجِبُ عليك أن تَنْفِرَ من هذا؛ لأَنَّ هذا صادِرٌ من عَدُوٍّ لك، لا يريدُ إلا إِضْرارَكَ وخِذْلانَكَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعَةِ الله، ولا تُطيعوه] يعني: أطيعوا اللهَ ولا تُطيعوا الشَّيْطانَ، وأنتم إذا أَطَعْتُم الله فإنَّ هذا أَعْظَمُ سلاح يَغيظُ هذا الشَّيْطانَ، فإذا أَطَعْتَ الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّك بذلك تَغيظُ الشَّيْطانَ وتَدْحَرُه وتُذِلُّه كما أَنَّك تُذِلُّ أولياءه أيضًا وتَغيظُهُم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩] إلى أن قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، فهؤلاء القَوْمُ بِصِفَتِهِمُ المذكورَةِ يَغيظونَ الكُفّار، والكُفَّارُ أَوْلِياءُ الشَّيْطانِ، فإذا كانوا يَغيظونَ الكُفَّارَ فإنَّهم يَغيظونَ الشَّيْطانَ أيضًا، فأَعْظَمُ شَيْءٍ لإغاظَةِ الشَّيْطانِ هو أن تقومَ بطاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

يُرْوَى أَنَّ الشَّيْطانَ يقول عن بني آدم: «أَهْلَكْتُهُمْ بالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ والاِسْتِغْفَارِ»[1]، فالتَّوْحيدُ وسُؤالُ المَغْفِرَة لا شكَّ أَنَّه يَغيظُ الكُفَّارَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ أتباعَهُ في الكُفْرِ ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النَّارِ الشَّديدَةِ].

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ تفيدُ إثباتَ الحُكْمِ في المذكورِ ونَفْيَه عمَّا سواه؛ يعني: ما

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (٧)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٣٦)، والطبراني في الدعاء رقم (١٧٨٠)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يدعو حِزْبَه إلا لهذا الأَمْرِ؛ لأنْ يكونوا من أصْحابِ السَّعِيرِ، واللَّامُ في قَوْله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ اللَّامُ هذه لِلعاقِبَة؛ يعني: يدعو حِزْبَه للشَّرِّ والفَحْشاءِ لِأَجْلِ أن يكونوا من أصحابِ السَّعيرِ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حِزۡبَهُۥ﴾ أتباعَهُ في الكُفْرِ] قد يقال: إنَّ فيه قُصُورًا؛ لأنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ الحِزْبُ المُطْلَقُ لا شَكَّ أَنَّهُم الكُفَّارُ، لكِنْ من عصى الله عَزَّوَجَلَّ ولو لم يكن كافِرًا في مَعْصِيَةٍ من المعاصي فله من حِزْبِيَّةِ الشَّيْطانِ بِقَدْرِ ما عصى الله، لكنَّ الحِزْبَ المُطْلَقَ هم الكُفَّارُ.

قَوْله تعالى: ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: من أصحابِ النَّارِ، والسَّعيرُ هو النَّار الشَّديدَةُ، وإنَّما يدعوهم لذلك؛ لأَنَّه لما غَوى -والعياذ بالله- وتكَبَّرَ عن عِبادَة الله قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحج:٣٩].

لما خُذِل -والعياذ بالله- وطُرِدَ وصار غاويًا حَرَصَ على أن يكون له أَتْباعٌ في غَيِّه، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ؛ فأَهْلُ الحَقِّ يَوَدُّون أن يكون لهم أتباعٌ في الحَقِّ، وأَهْلُ الباطِلِ يودون أن يكون لهم أتباعٌ في الباطِلِ، فالشَّيْطان -والعياذ بالله- لَمَّا كان من أصحابِ النَّار أَحَبَّ أن يكون النَّاسُ -أي: بنو آدَمَ- أن يكونَ النَّاسُ كُلُّهم من أصحابِ النَّار، هؤلاء الذُّرِّيَّة ذُرِّيَّة آدَمَ، وشقاء إبليسَ إنَّما كان لتَرْكِه السُّجُود لآدَمَ، فلا جَرَمَ أن يُغْوِيَ ذُرِّيَّته وأن يحارِبَ بِكُلِّ ما يَسْتَطِيع إغواءَهم حتى يكونوا من أصحابِ النَّار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الشَّيْطانِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ عَداوَتِه المُؤَكَّدَة للإِنْسَان؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَهَمِّيَّة إيمانِنا بذلك؛ أي عِلْمنا بأنَّه عَدُوٌّ، لكنْ ما وَجْهُ ذلك؟

الجوابُ: تَقَدَّمَ في (البَلاغَة): أنَّ الخِطابَ الخَبَرِيَّ هو الخِطابُ الذي يُلْقَى إلى المُخاطَبِ بدون تَوْكيدٍ، وأنَّه لا يُؤَكَّدُ في مقامِ الخِطابِ الخَبَرِيِّ إلا لِسَبَبٍ؛ الخطابُ الخَبَرِيُّ إذا أُلْقِيَ إلى إِنْسَانٍ خالي الذِّهْنِ فإنَّه لا يُؤَكَّد؛ لأنَّه لا داعِيَ للتَّوْكيدِ، فالتَّوْكيدُ ليس فيه إلا زيادَةُ كَلِماتٍ لا فائِدَةَ منها، لكِنْ إذا كان الأَمْرُ ذا أَهَمِّيَّة فإنَّه يؤَكَّدُ ولو كان لإِنْسَانٍ خالي الذِّهْن، فإذا كان عالِمًا بالأَمْرِ صار أيضًا تَوْكيدُهُ أَبْعَدَ، ولا نَحْتاجُ إلى التَّوْكيدِ على كُلِّ حالٍ.

فالآن نقول: كَوْنُ اللهِ أَكَّدَ هذا الكَلَامَ، والإِنْسَانُ خالي الذِّهْن أو عالِمٌ به من قَبْلُ يدُلُّ على أَهَمِّيَّة الإيمانِ بهذا الأَمْرِ الذي عليه الشَّيْطانُ، وهو أنَّه هنا عَدُوٌّ.

وقد قال عُلَماءُ البلاغَةِ: إنَّ الخَبَرَ إذا أُلْقِيَ إلى عالِمٍ به مُؤَكَّدًا كان ذلك من أجل أنَّ هذا المُخاطَبَ نُزِّل مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ لِكَوْنِه لم يَقُمْ بما يَقْتَضيه هذا الخِطاب، ومثلوا لذلك بِقَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المُؤْمِنون:١٥] فكُلٌّ يَعْلَمُ أنَّه سيموت، كُلُّنا نَعْلَمُ أنَّنا مَيِّتونَ، لكِنْ لماذا أَكَّدَ لنا المَوْتَ ونحن نَعْلَمُ به ونتأَكَّدُ منه؟

الجوابُ: لأنَّ فِعْلَنا فِعْلُ المُنْكِرِ للمَوْت؛ حيث إننا لا نُصَدِّقُ ولا نَعْمَلُ لما بعد الموت.

إذن: نأخذ من هذه الآيةِ: أَهَمِّيَّةَ إيمانِنا بأنَّ الشَّيْطانَ لنا عَدُوٌّ؛ لأنَّه أَكَّدَ الخَبَرَ مع أنَّه مُلْقًى إلى إِنْسَانٍ خالي الذِّهْنِ لا يدري بأنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ، أو إلى إِنْسَانٍ عالِمٍ به لكِنَّه نُزِّلَ مَنْزِلَة المُنْكِرِ؛ لِكَوْنِه لم يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ عَدُوًّا له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجُوبُ البُعْدِ عمَّا يَأْمُرُ به الشَّيْطانُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذِكْرُ الأَوْصافِ المَذْمومَةِ إذا كان المَقْصودُ بها نُصْحَ المُخاطَبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ﴾ فلو رَأَيْتَ شَخْصًا مُغْتَرًّا بآخَرَ، يَحْسَبُه صَديقَه، وهذا الشَّخْصُ الذي اغْتَرَّ به صاحِبُه عَدُوٌّ له، نعلم أنَّه يريدُ أن يُوقِعَ به كلَّ سُوءٍ، فإنَّه يَجِبُ علينا أن نَنْصَحَهُ عنه، ونَذْكُر معايبَ هذا الشَّخْص حتى لا يَغْتَرَّ به، فنقول: إنَّكَ تُصاحِبُ فلانًا وهو عَدُوٌّ لك، حتى وإن كانت عَداوَتُهُ لِكَوْنِه يَهْديه إلى صِراطِ الجَحيمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ رَحْمَةِ الله تعالى بعبادِهِ؛ لأنَّ العِلْمَ بِعَداوةِ الشَّيْطانِ غَيْرُ مُدرَكٍ لنا ولَكِنَّ الله تعالى هو الذي أَخْبَرَنا به، ثم حثَّنا بل أَمَرَنا بِمُخالَفَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

مَسْأَلَة: لكِنْ هل هذه الآيَةُ فيها دليلٌ على أنَّ مِن النَّاسِ من يَدْخُلُ النَّار ولا يُخَلَّدُ فيها فلا يكون من أصحابِها؟

نقول: يُمْكِنُ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ يُريدُ من النَّاس أن يَبْلُغوا الذِّرْوَة في المُخالَفَة، وإذا بَلَغوا الذِّرْوَة في المُخالَفَة وكَفَروا حينئذٍ يكونون من أصحابِ النَّارِ الذين يُخَلَّدون فيها، أمَّا المَعاصي التي دون ذلك فإنَّ أصحابَها وإن دخلوا النَّار -كما دَلَّتْ عليه النُّصُوص- فلا يكونون من أصحابِها.

• • ۞ • •



الآية (٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر:٧].

•••

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُه جُمْلَةُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والعذابُ: العُقوبَةُ، وأتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّةِ لِثُبوتِ هذا العَذابِ واسْتِمْرارِه؛ لأنَّ الكافِرينَ مُخَلَّدونَ في نار جَهَنَّم، و(الشَّديدُ) بمَعْنى القَوِيِّ، وأمَّا غَيْرُهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الذين آمنوا؛ الإيمانُ مَحَلُّه القَلْبُ؛ أي: صدَّقوا بما يَجِبُ الإيمانُ به مع القَبولِ والإِذْعانِ، فالإيمانُ ليس مُجَرَّد التَّصْديقِ، بل هو تصديقٌ مَقْرُونٌ بِقَبولٍ وإذعانٍ؛ قبولٍ لِمَا آمَنَ به، وإذعانٍ يَقْتَضيه هذا الإيمانُ، أمَّا مُجَرَّدُ التَّصْديقِ فليس إيمـانًا، ولو شِئْتُم لَضَرَبْنا مثلًا بأبي طالِبٍ؛ فإنَّ أبا طالِبٍ كان مُصَدِّقًا للنَّبِيِّ ﷺ، ولكِنَّه لم يَقْبَل، ولم يُذْعِنْ، فلم يَنْفَعْه هذا التَّصْديقُ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا بمـا يَجِبُ الإيمانُ به تصديقًا مُسْتَلْزِمًا للقَبُولِ والإِذْعانِ، وأمَّا قَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا بُدَّ من العَمَلِ الصَّالِح حتى يَتِمَّ الإيمانُ ويَتحَقَّق ويَتبَيَّن.

قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: العَمَلُ الصَّالِحُ هو الذي كان خالِصًا صوابًا؛ أي: خالصًا لله، صوابًا في مُوافَقَةِ شَريعَةِ اللهِ، وهذا التَّعْريفُ يَعُمُّ هذه الأُمَّةَ وغَيْرَها، فما كان

خالِصًا لله مُوافِقًا لِشَريعَتِهِ فهو صالِحٌ، وما لم يكن كذلك فهو فاسِدٌ، فلو فُقِدَ الإخلاصُ من العَمَلِ لم يكن صالحًا، ولو وُجِدَ الإخلاصُ لكن لم يكن على وَفْقِ الشَّريعَة لم يكن صالحًا، وعلى هذا فالأَعْمالُ البِدْعِيَّةُ -وإن أَخْلَصَ فيها صاحِبُها- ليست بصالِحَةٍ، والأَعْمالُ الشَّرْعِيَّة إذا شارَكَها الرِّياءُ وإرادَةُ الخَلْقِ لم تكن صالِحَةً.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه تتكَرَّرُ في القُرْآنِ كثيرًا، وهي على ما قال النَّحْويُّونَ: من بابِ حَذْفِ المَنْعوتِ ووجودِ النَّعْتِ للدَّلالَةِ عليه؛ لأَنَّ أَصْلَها: وعَمِلوا الأَعْمالَ الصَّالِحاتِ.

قَوْله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ذَكَرَ لهم عَمَلًا وذكر لهم جَزاءَيْنِ، أمَّا الذين كفروا فذَكَرَ عملًا واحدًا وجزاءً واحدًا، فالذين كفروا لهم عَذابٌ شديدٌ؛ العَمَلُ: الكُفْرُ، والجزاءُ: العذاب الشَّديد، أمَّا الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ فهذان عَمَلانِ والجزاءُ: لهم مَغْفِرَةٌ وأجرٌ كبيرٌ، فمَغْفِرَةٌ لِذُنوبِهِم، وأَجْرٌ كَبيرٌ على أعمالِهِمُ الصَّالِحاتِ.

والمَغْفِرَةُ هي سِتْرُ الذَّنْبِ والتَّجاوُزُ عنه؛ لأَنَّها مَأْخوذَةٌ من المِغْفَرِ، وهو ما يُسْتَرُ به الرَّأْسُ للوِقايَةِ من السِّهامِ، وهذا لا يكون إلا إذا كان قَوِيًّا يمنع، وليست المَغْفِرَة مُجَرَّدَ السِّتْر؛ لأَنَّ مُجَرَّدَ السِّتْر والعُقوبة ليس بِمَغْفِرَة، بل لا بُدَّ من أَمْرَيْنِ: السِّتْرِ، وعَدَمِ المُؤاخَذَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ﴾ الأَجْرُ: الثَّوابُ الذي يُجازَى به العامِلُ، حتى الأُجْرَة مثلًا إذا اسْتَأْجَرْتَ رجلًا يَعْمَل لك عملًا وأَعْطَيْتَهُ أُجْرَةً، فهذا أَجْرٌ، وسَمَّى الله عَزَّوَجَلَّ الثَّوابَ أَجْرًا؛ لأَنَّه لا بُدَّ أن ينالَهُ العامِلُ، فهو كأُجْرَةِ الأَجيرِ، فلا بُدَّ أن ينالَهَا العامِلُ، وهذا كقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فسمَّى

العَمَلَ لله قَرْضًا؛ لأنَّ القَرْضَ يَجِبُ إيفاؤُهُ؛ فمِثْلُ هذه الآياتِ تَدُلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَوْجَبَ على نفسه أن يُثيبَ العامِلَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هل هو كبيرٌ في حَجْمِه أو كبيرٌ في معناه؟

الجواب: كلاهما؛ لأنَّ «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ أَلْفَيْ عَامٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ»[1]، وهذا لا شَكَّ أنَّه كبيرٌ واسِعٌ، وكذلك في المَعْنى؛ لأنَّه دائمٌ وثابِتٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا بيانُ ما لِموافِقِي الشَّيْطانِ وما لِمُخالِفيهِ] مُوافِقُو الشَّيْطانِ هم الذين كفروا، ومخالِفُوه الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحاتِ.

إذن: يَجِبُ علينا أن نَتَّخِذَ الشَّيْطانَ عَدُوًّا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ الثَّوابِ والعِقابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ؛ حيث يَجْمَع بين الشَّيْءِ وضِدِّه، وهو مِصْداقُ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣] قال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ مثاني أنَّه تُثَنَّى فيه المعاني، وهنا لَمَّا ذَكَرَ عذابَ الكافرينَ ذكر ثوابَ المُؤْمِنينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَلاغَةُ القُرْآنِ أيضًا من وجهٍ آخر: حيث بدأ بذِكْرِ عذابِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة القيامة، رقم (٣٣٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الكافرينَ بعد أن ذَكَرَ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فبدأ بما فيه التَّحْذيرُ قبل ما فيه التَّبْشيرُ من أجل المناسَبَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الكافِرَ عذابُهُ شديدٌ؛ يعني: ليس بالعذاب السَّهْل، ووَجْهُ شِدَّتِه بالكمِّيَّة والكَيْفِيَّة؛ لأنَّه دائِمٌ؛ ولأنَّه عذابٌ لا نظيرَ له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأَجْرَ لا يَثْبُتُ إلا باتِّصافٍ تامٍّ بِوَصْفَينِ؛ أحدهما: الإيمانُ، والثاني: العَمَل الصَّادِقُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَقْسيمُ الأَعْمالِ إلى صالِحٍ وفاسِدٍ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والضَّابِط في ذلك: أنَّ ما كان خالِصًا صوابًا فهو صالِح، وما كان فيه شِرْك أو بِدْعَةٌ فليس بصَالِحٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ينالونَ أَجْرَهُم من وَجْهَيْنِ؛ من زوالِ المَكْرُوهِ الثَّابِت؛ بِقَوْله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وحُصُولِ المَطْلوبِ الثَّابِتِ بِقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ؛ لأنَّه لمَّا ذَكَرَ عملًا واحدًا في الكُفَّار ذكر جزاءً واحدًا، ولمَّا ذكر وَصْفَيْنِ في المُؤْمنين ذكر وَصْفَيْنِ في ثوابِهِم، وهذا ظاهرٌ أيضًا في سورة (الإِنْسان): ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إذا تَأَمَّلْتَها وجدت الله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُرْ في الكافرين وعذابِهم إلا قليلًا بالنِّسْبَة للأَبْرارِ.

والسَّبَبُ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ فقال تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فقط، ولم يَقُلْ شيئًا عن هذه، فكان الجَزاء مُخْتَصَرًا ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ وذكر الأبرارَ وأطال في ذكر ما لهم من نَعيمٍ؛ لأنَّه ذَكَرَ عِدَّةَ أَعْمالٍ من أَعْمالِهِم:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٥-٩] الإخلاص التامُّ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٩-١٠].

فذكر عِدَّةَ أوْصافٍ من أوصافِهم، فأطال في ذِكْر جزائِهم؛ لَمَّا أطال في ذكر أعمالِهم أطال في ذكر الجزاء بِخلافِ الكافرينَ، وهذا بلا شَكٍّ من بَلاغَة القُرْآن.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الأُجُورَ تَخْتَلِفُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فالأُجُور تَخْتَلِفُ باختلاف العَمَلِ، وتَخْتَلِف باختلافِ العامِلِ، وإذا كانت مُتَعَدِّيَة فإنَّها تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ من انْتَفَعَ بها.

فمثلًا: تَخْتَلِف باختلافِ العَمَل كما في حديث: «**أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»(١)، والواجِبُ أفضل من المُسْتَحَبِّ.

وباختلاف العامِلِ كما في قَوْلِه ﷺ: «**خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى**»(٢) وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المواقيت، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتَخْتَلِف أيضًا باختلاف المحَلِّ إذا كانت مُتَعَدِّيَةً، فالصَّدَقَة على القَريبِ صَدَقةٌ وصِلَة، والصَّدَقَة على من هو أشَدُّ حاجَةً أَفْضَلُ من الصَّدَقَة على من دونه، وهكذا.

فاختلاف الأَعْمالِ يَسْتَلْزِمُ اختلافَ الأُجُور أيضًا، وتَخْتَلِفُ أيضًا باختلاف الإِخْلاصِ؛ فكلَّما كان الإِنْسَان في عمله أَخْلَصَ كان عَمَلُه أفضَلَ.

ويُمْكِن أن نقول أيضًا: تَخْتَلِفُ باختلافِ الاتِّباعِ، فكلَّما كانتِ العبادَةُ أَتْبَعَ لله كانت أكْمَلَ.

وعلى كُلِّ حالٍ: فهذه الاختلافات في وُجُوهِها تَخْتَلِفُ لها الأُجُور.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونزَل في أبي جهلٍ[1] وغيره: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بالتَّمْويهِ] أبو جَهْلٍ كان يُسَمَّى في الجاهِلِيَّة أبا الحكم؛ يعني: أَنَّه ذو حِكْمَة وعَقْل ورَوِيَّة، لكنَّه سُمِّيَ في الإِسْلام أبا جَهْلٍ؛ لأنَّ أَعْظَمَ الجَهْلِ أن يَبْقَى على كفره، ولا يُؤْمِنُ بالله، نزل فيه ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾: ﴿أَفَمَن﴾ الهَمْزَةُ هنا للاسْتِفْهام، والفاء: حَرْفُ عطف، والمعطوف عليه مُختلَفٌ فيه؛ فمنهم من قال: إنَّه مقدَّرٌ بين الهَمْزَة وحَرْفِ العَطْف فيكون بحَسَبِ السِّياقِ، ومنهم من قال: إنَّ المعطوفَ عليه ما سَبَقَ، فعلى الأَوَّل نُقَدِّرُ المَحْذوفَ بما يناسِبُ المقامَ، فمثلًا قَوْله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف:١٠٩] التَّقْديرُ: أَغَفَلُوا فلم يَسِيروا في الأَرْض، وهنا نقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ نُقَدِّرُها بما يناسِبُ، فنقول: التَّقْديرُ: أَتُدْرِكونَ هذا الشَّيْءَ فمن زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه، أو نقول: أَيَسْتَوي المُؤْمِنُ والكافِرُ فمن زُيِّنَ له سوء عَمَلِه.

ولكن القَوْل الثاني في المَسْأَلَة أَنَّه معطوفٌ على ما سبق أحسن؛ لأنَّ الأَصْلَ

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٥٠٦).

عدمُ التَّقْديرِ، ولأنَّه في بعضِ الأحيانِ يَصْعُبُ على الإِنْسَانِ أن يقدِّر المَحْذوفَ، وعلى هذا القَوْلِ يقولون: إنَّ حَرْفَ العَطْفِ (الفاء) يُقَدَّرُ سابقًا للهَمْزَة، فيكون فيه تقديمٌ وتَأْخيرٌ، والتَّقْديرُ على هذا: (فَأَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه).

وَقَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مَن المُزَيِّنُ؟

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ المُزَيِّنَ الشَّيْطانُ، وذكر أنَّ المُزَيِّنَ هو الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وفي بعض الآيات يكون المُزَيِّنُ مُبْهَمًا كما في هذه الآية، وكما في قَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤].

فالمُزَيِّنُ الله، والمُزَيِّن الشَّيْطان، فإذا قلْتَ: كيف تَجْمَعُ بين هذا وهذا؟

فالجواب: أنَّ المُزَيِّنَ المُباشِرَ هو الشَّيْطان، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فهو مُزَيِّنٌ بالتَّقْديرِ؛ يعني: هو الذي قدَّر على الشَّيْطان أن يُزَيِّنَ لهم، ومعلومٌ أنَّ الله تعالى خالِقُ الشَّيْطانِ، وما نتج من أعماله فهو مضافٌ إلى الله؛ كما نقول في الإِنْسَانِ: إنَّه مَخْلوقٌ لله، وما نتج من أعماله فهو مَخْلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فيكون تَزْيينُ الله تعالى حَسَبَ التَّقْديرِ؛ يعني: هو الذي قدَّر أن يُزَيِّنَ الشَّيْطانُ لهم أَعمالَهُم.

قَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: (عمل) مفردٌ مضافٌ، فيَشْمَلُ كُلَّ الأعمال، سواء كانت شِـرْكًا أو عُدْوانًا على الغَيْر، أو سوءَ السُّلوكِ وفَسادَ الأخلاقِ، أو غَيْر ذلك.

المُهِمُّ: أنَّه شامِلٌ لكُلِّ الأَعْمالِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتَّمْوِيهِ]؛ أي: أنَّه يُمَوِّهُ على النَّاس أنَّ هذا العَمَلَ الذي يقوم به عملٌ حَسَنٌ.

قَوْله تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: رأى سُوءَ عمَلِه حَسَنًا، وهذا أشَدُّ ما يكون؛ أن يكون الإِنْسَانُ على خَطَأٍ ويرى أنَّه على صوابٍ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا لا يكاد يظهر عن غَيِّهِ؛ حيث إنَّه يَعْتَبِرُه صوابًا، ومن ذلك مَثَلًا أصحابُ الحِيَلِ (المخادعون)، فالمُنافِقُ مثلًا زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه؛ لأنَّه يرى أنَّه ذَكِيٌّ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤] وهذا من سوء العَمَلِ.

وكذلك المُتَحَيِّلون على الرِّبا بأَنْواعِ الحِيَلِ هؤلاء أيضًا زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم؛ ولهذا لا تكاد تَجِدُهم مُقْلِعِينَ عمَّا هم عليه؛ لأنَّه قد زُيِّنَ ذلك في نُفُوسِهم فلا يُقْلِعون عنه؛ المُهِمُّ أنَّ هذا له أَمْثِلَة كثيرةٌ.

بقِي علينا أن نقول: (من) مُبْتَدَأ فأين خَبَرُه؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَنْ: مُبْتَدَأ، خَبَرُه: كمن هداه اللهُ، لا؛ دَلَّ عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ يعني: (كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له سُوءُ عَمَلِه ورأى سوءَ عَمَلِه سَيِّئًا)؛ لأنَّ الذي زُيِّن له سوءُ عَمَلِه سيسْتَمِرُّ عليه، والذي رآه سيئًا سوف يَتَجَنَّبُه، وهذا ما يقوْلُه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كمن هداه الله]، ومِثْلُ هذا التَّعْبيرِ يأتي في القُرْآن كثيرًا؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] فالخَبَرُ مَحْذوفٌ؛ أي: كمن ليس كذلك.

فَقَوْله: [لا]؛ يعني: ليس هذا كهذا، قال: بينهما فَرْقٌ؛ فإنَّ من زُيِّنَ له سوء عَمَلِه فسوف يبقى على ضَلالِهِ، ومن لم يُزَيَّنْ له سُوء عَمَلِه ورآه سيئًا فَسَيَتَجَنَّبُه ولا يقع فيه.

وَقَوْله: [دلَّ عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾]، وعلى هذا، فالفاء هنا ليست واقِعَة في خَبَرِ المُبْتَدَأ، بل خَبَرُ المُبْتَدَأ مَحْذُوفٌ، لكنها عَطْفٌ على ذلك الخَبَرِ؛ أي: فإنَّ الله يُضِلُّ من يشاء عن الحَقِّ فلا يهتدي إليه، ويهدي من يشاء إلى الحَقِّ فَيَلْتَزِمُه، وهنا يقول: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ تقدَّمَ كثيرًا تعليقُ الأشياءِ بالمَشيئَة، ولكنَّنا قلنا ونقول: إنَّ هذه المَشِيئَةَ مَقْرُونَةٌ بالحِكْمَةِ؛ من اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُضِلَّه أَضَلَّه، ومن اقتَضَتْ حِكْمَتُه أن يَهْدِيَه هداه، من الذي تَقْتَضِي حِكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُضِلَّه؟

هو الذي أراد الضَّلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

فإذن: إضْلالُ الله تعالى للعَبْدِ في مَحَلِّه، وذلك بأن يكون هذا الرَّجُل لا يريد الخَيْر، وإنَّما يريد الشَّرَّ.

واعلم أنَّ الهِدايَةَ والضَّلالَ إمَّا عَدْلٌ وإمَّا فَضْلٌ، فالضَّلالُ عَدْلٌ؛ لأنَّه جُوزِيَ بحَسَب ما أراد، لَمَّا أراد الضَّلالَ -والعياذ بالله- وزاغ قَلْبُه أُزيغ، وأمَّا الهِدايَة فإنَّها فَضْل من الله عَزَّوَجَلَّ يَتفَضَّلُ بها على من يشاء من عباده.

ولهذا لو قال قائِلٌ: كيف يَجْعَلُ الله تعالى هذا مُهْتَدِيًا وهذا ضالًّا، أليس هذا ظُلْمًا؟

والجواب: لا؛ لأنَّ مَنْعَ الهِدايَة من هذا الضَّالِّ إنَّما هو لُمقْتَضَى عَدْلِه، أمَّا هِدايَة المهتدي فبِفَضْله.

فنقول: إنْ مَنَعَكَ ما هو لك فقد ظَلَمَك، وإن مَنَعَك فَضْلَه فَفَضْلُ الله يؤتيه من يشاءُ، ولولا أنَّك لَسْتَ أَهْلًا للهِداية ما منعك الله هدايته.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ المُراد بالهِداية هِدايَةُ التَّوفيقِ، وربَّما نقول: هِدايَة التَّوفيق والدَّلالَة، ولكنَّ الأَهَمَّ هو هِدايَة التَّوْفيقِ، ولَعَلَّ هذا هو المُرادُ هنا؛ لأنَّ الذين أضَلَّهُم الله قد هداهم الله هِدايَةَ الدَّلالَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥] وهذا عامٌّ، ولكنَّ الهِدايَة أن يهدي من يشاء إلى صراطٍ مُسْتقيمٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هل هذا النَّهْيُ نَهْيٌ عما كان أو نَهْيٌ عما لم يَكُنْ؟ الظَّاهِرُ أنَّه نَهْيٌ عما كان، وأنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتحَسَّر على هؤلاء المُكَذِّبين الذين كانوا يُكَذِّبونَه ويَضيقُ صَدْرُه، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، فـ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: مُهْلِكٌ نَفْسَك، ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحَسَّر لهؤلاء لعَدَمِ إيمانِهِم، والنَّهْي عن الشَّيْء قد يكون نَهْيًا عما كان وقد يكون نَهْيًا عمَّا لم يكن؛ فَقَوْله للنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣-٢١٤] هذا نهيٌ عما لم يكن؛ لأنَّ الرَّسُول لم يَدْعُ.

قَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يعني: لا تذهب نَفْسُك من أجْلِهم، كما يقال: (بكيت عليكَ الدَّهْرَ) أي: من أجلِكَ، فالمَعْنى: لا تَذْهَبْ نَفْسُك من أجلهم حَسَراتٍ.

قَوْله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ قيل: إنَّها حالٌ على أنَّها مَصْدَرٌ أريد به اسْمُ الفاعِلِ؛ أي: حاسِرَةً، والحَسْرَة هي الهَمُّ الشَّديدُ والغَمُّ على ما فات، وكلُّ من فاته شَيْء يُحِبُّه

ويَطْلُبه فاهْتَمَّ لذلك واغْتَمَّ يقال: (تحَسَّر)، وقيل: إن ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مَصْدَرٌ وأنَّه مفعولٌ من أجله، والمَعْنى: فلا تذهب نَفْسُك؛ أي: تَهْلِكْ؛ من أجل الحَسَراتِ عليهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ على المُزَيَّنِ لهم ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ باغْتِمامِكَ ألَّا يُؤْمنوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيُجازيهِمْ عليه] في هذه الجُمْلَةِ تَهْديدٌ وتَسْلِيَة؛ تَهْديدٌ لهؤلاء المُخالِفينَ، وتَسْلِيَة للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يعني: لا يُهِمَّنَّكَ أَمْرُهم؛ فإنَّك سائِرٌ مع الله وسوف يُجازيهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ من النَّاس من يَعْمَى قَلْبُه حتى يرى السَّيِّئَ حَسَنًا، وفي مقابِلِ ذلك يرى الحَسَنَ سَيِّئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إبهامُ الفاعِلِ لِيَشْمَلَ كلَّ ما يُمْكِن أن يقع منه هذا الفِعْل؛ لِقَوْله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وقد سبق أنَّ المُزَيِّنُ هو الله عَزَّوَجَلَّ في الأَصْلِ، والشَّياطينُ في المُباشَرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: انْقِسامُ الأعمالِ إلى سَيِّئ وصَالِح؛ لِقَوْله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها الرَّدُّ على الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فأضافَ العَمَلَ إليه، وهم يقولون: إنَّ الأَعْمالَ لا تُضافُ إلى الإِنْسَان؛ لأنَّه مُجْبَرٌ عليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ مَن هذه حالُهُ لا يستوي مع من ليس كذلك، بحيث يرى السَّيِّئ سيِّئًا والحَسَنَ حَسَنًا، ونأخذها من أنَّ المَحْذُوف يكون مُقابِلًا للمَذْكور؛ لأنَّ الهَمْزَةَ هنا للتَّسْوِيَة؛ يعني: (أَيَسْتَوي هذا وهذا؟) والجواب: لا يستويانِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الهِدايَة والإِضْلالَ بِيَدِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وهي تَتَفَرَّع على هذه الفائِدَة، أنّنا إذا عَلِمْنا ذلك فإنَّنا نسأل الهِدايَةَ من الله، ونَسْتَعيذُ من الضَّلالِ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ مَشيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وقد تَقَدَّمَ أنَّ كلَّ فعلٍ علَّقَه الله بِمَشيئَته فإنَّه مَقْرُونٌ بالحِكْمَةِ، ودليلُ هذا قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فإنَّ القَدَرِيَّة يقولون: إنَّ أفعالَ العَبْدِ من ضَلَالةٍ أو هِدايَة لا تَتَعَلَّقُ بها مَشيئَةُ الله؛ لأنَّ مَذْهَبَ القَدَرِيَّة أنَّ الإِنْسانَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِه، ليس لله تعالى فيه تعلُّقٌ إطلاقًا حتى إنَّ غُلاتَهُم يزعمون أنَّ الله لا يَعْلَمُ عَمَلَ العَبْدِ حتى يقع، ويقولون: إنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ؛ أي: مُسْتَأْنَفٌ؛ أي: إنَّ عِلْمَ الله عَزَّوَجَلَّ يحدث بعد أنْ لم يَكُنْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ وعزَّ مَن أرسلَه كان يَحْزَنُ حزنًا عظيمًا تكادُ تَذْهَبُ نَفْسُه من شِدَّتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ وَجْهُ ذلك أنَّ الأصل في النَّهْي أن يكون عمَّا وقع، وقد يكون عمَّا لم يقع، وهو كثيرٌ أيضًا، ويدلُّ على أنَّ هذا أمرٌ واقِع قَوْلُه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: شَفَقَة النَّبيِّ ﷺ على أُمَّتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّسُول ﷺ لا يَحْزَنُ لِعَدَمِ إيمانهم أو طاعَتِهم لمصلحته هو ولَكِنْ لِمَصْلَحَتِهم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ يتأثَّر بما يتأثَّرُ به البشر من أَسْبَاب الفَرَحِ وأَسْبَاب الحُزْن، وهذا أمرٌ واقِعٌ، وقد قالت عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْدًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»(١).

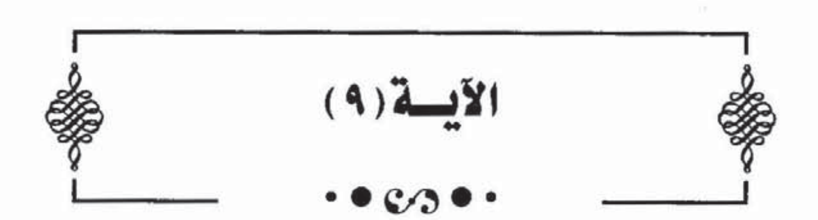
ففَرِحَ ﷺ حتى ظهر ذلك على وَجْهِهِ؛ فالأَعْراضُ البَشَرِيَّة من الفَرَح والحُزْن، والغَمِّ والاسْتِبْشارِ، والنِّسيان وعَدَمِ العِلْم، وغير ذلك تطرأ على النَّبِيِّ ﷺ كغيره من البَشَر؛ لأنَّه لا يتميَّز عن البَشَرِ إلا بشَيْء واحد وهو الوَحْيُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠] وكَلِمَة ﴿بَشَرٌ﴾ تُغْنِي عن ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لكن هذا من باب التَّأْكيدِ؛ لئلَّا يَذْهَبَ ذاهِبٌ إلى أنَّه بَشَرٌ قد خُصِّص بشَيْءٍ، فقال: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ثم ذكَرَ المَيْزَة فقال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وفي هذا ردٌّ واضِحٌ على أولئك القَوْمِ الذين يدَّعُون أنَّ للنبي ﷺ تأْثيرًا في الخَلْقِ كتأثير رُبوبيَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لو كان كذلك ما ذَهَبَتْ نَفْسُه عليهم حَسَراتٍ، ولهداهم وسَلِمَ من هذه الحَسَراتِ التي تكون على نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ لِكُلِّ ما نَعْمَلُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، رقم (١٤٥٩).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: عناية الله برسوله ﷺ في مِثْلِ هذه الجُمْلَة التي تفيد تَسْلِيَتَه وتَهْوِينَ الأَمْرِ عليه وأَنَّه ما من حسابِ هؤلاء عليه مِنْ شَيْء كما أَنَّه ليس من حِسابِهِ هو عليهم من شَيْءٍ.

• • ۞ • •



الآية (٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:٩].

•• ◦ ••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وفي قِراءَةٍ: (الريحَ)] الله -وَحْدَه- هو الذي يُرْسِلُ هذه الرِّياحَ دون غَيْره، فلن يَسْتَطيعَ أحدٌ أن يُرْسِلَ شَيْئًا من هذه الرِّياحِ، حتى الخَلْقُ كُلُّهم لو اجتمعوا على أن يُرسِلوا الرِّيحَ ما استطاعوا، لو اجْتَمَعوا على أن يُهَوِّنوا عَصْفَها ما استطاعوا، ولكن ذلك بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ وَحْدَه الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ.

وتأمَّلْ قَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾ حيث جعلها رسولًا كأنَّها تُبَلِّغ أو كأنَّها تَفْعَلُ ما أُمِرَتْ به كما أنَّ الرَّسُولَ يُبَلِّغُ ما أُرْسِلَ به فهي مُرْسَلَةٌ؛ ولهذا ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيُ عن سَبِّ الرِّيحِ[1]؛ لأنَّ سَبَّ الرِّيحِ يعود حَقيقَةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هو الذي أَرْسَلَها، فهي مُدَبَّرَة مُسَخَّرَةٌ.

وَقَوْله: [﴿الرِّيَاحَ﴾ وفي قِراءَةٍ: (الريح)] والقِراءَة هنا سَبْعِيَّة، والفَرْقُ بينهما أن (الرياح) جَمْع، و(الرِّيح) مُفْرَد، لكنَّ هذا المُفْرَد في مَعْنى الجمع؛ لأنَّه محلًّى بـ(أل)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٢٣)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٢)، من حديث أبي كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي لِلاسْتِغْراقِ، فيَشْمَلُ كُلَّ الرِّياحِ، سواء أَتَتْ من الشَّمال، أو الجَنوب، أو الشَّرْق، أو الغَرْب، فالله تعالى هو الذي أَرْسَلَها.

واعلم أنَّ الغالِبَ أن (الرياحَ) مجموعةً تكون في الخَيْر، و(الرِّيح) مفردة تكون في ضِدِّه، ولهذا يُروَى عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دُعَاء الريح: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا»(١).

ولكنْ مع ذلك تأتي هذه مَحَلَّ هذه، ويكون هناك قرينةٌ، ففي قَوْلِه تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، هـذه في الشَّـرِّ، وَقَوْله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] هـذه في الخَيْـرِ؛ لأنَّها وُصِفَـت، وَقَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧] هذه في الخَيْرِ، وهنا تكون في الخَيْر أيضًا.

قَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تُثيـرُ عَطْفُ المضارِعِ على الماضي، وكان مُقْتَضى النَّسَق أن يَعْطِفَ على الماضي ماضيًا مثله، فيقول: (والله الذي أرسل الرياح فأَثارَتْ)، لكن لماذا عَدَلَ عن الماضي إلى المضارع؟

بيَّنَه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ المضارعُ لحكايةِ الحالِ الماضِيَة]؛ يعني: عبَّرَ بالمضارِعِ عن الماضي حكايةً للحال حين إرسالِها؛ لأنَّه أبْلَغُ في التَّصوُّر، كأنَّها الآن أمامك وهي تُثيرُ هذا السَّحابَ، وهذا أَبْلَغُ في تصوُّر الإِنْسَان؛ لأنَّه يَسْتَحْضِر الحالَ الماضِيَة كأنَّها الآن؛ إذ إنَّ المضارعَ -كما هو معلوم- يَصْلُحُ للحال والاستقبال،

(١) أخرجه الشافعي في مسنده [ترتيب السندي] (١/ ١٧٥، رقم ٥٠٢)، وأبو يعلى في المسند رقم (٢٤٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢١٣، رقم ١١٥٣٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكنه قد يَقْتَرِنْ به ما يُعَيِّنُه للحال، ويقترن به ما يُعَيِّنه للاستقبال، ويقترن به ما يُعَيِّنُه للماضي، إنَّما الأصل فيه أنَّه للحاضِرِ والمُسْتَقْبَل، ولا يكون للماضي إلا بِقَرِينَةٍ، فعليه نقول: عُدِلَ عن التَّعْبيرِ بالماضي هنا لحكايَةِ الحالِ الماضِيَة حتى كأنَّك تُشَاهِدُها الآن وهي تُثيرُ هذا السَّحابَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعْنى ﴿فَتُثِيرُ﴾ قال: أي [تُزْعِجُه]، وهذا مَعْنى قد يُناقَشُ فيه؛ لأنَّ الإِزْعاجَ أَخَصُّ من الإثارة؛ لأنَّ الإثارَةَ بمَعْنى إنْهارِ الشَّيْءِ كما يقال: (أَثَرْتُ البَعيرَ)؛ أي: أَنْهَضْتُه حتى صار قائِمًا بعد أن كان بارِكًا.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ كأنَّ هذا السَّحابَ في الأصل في الأَرْضِ، ثم أثارَتْه هذه الرِّياحُ، ومعلومٌ أنَّ السَّحاب يكون من بُخارِ البَحْرِ، ويكون أحيانًا من الجَوِّ المُتَلَبِّد بالرطوبة حسبما تَقْتَضيه حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمرٌ يَرْجِعُ إلى مَعْرِفَة العلوم الطبيعيَّة.

قَوْله تعالى: ﴿سَحَابًا﴾ السَّحابُ هو هذا الغَيْم المعروفُ في الجَوِّ كما تشاهدونه؛ فلذلك سُمِّيَ سحابًا لانْسِحابِهِ في الجَوِّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسُقْنَهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن الغَيْبَة]؛ أي: إلى التَّكَلُّم، وفيه أيضًا التفاتٌ من المضارِعِ إلى الماضِي؛ ولذا قال: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ﴾ عدل عن المضارِعِ إلى الماضي لاختلاف الفاعِلِ في الفِعْلَينِ؛ لأنَّ (تثير) الفاعِلُ فيها (الرِّياحُ)، و(سُقْناه) الفاعِلُ فيها (الله).

إذن: يَحْسُنُ أن تكون بِلَفْظِ الماضي عَطْفًا على قَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾ لأنَّ المُرْسِلَ هو الله، فلما اتَّحَدَ الفاعِلُ في الفِعْلَيْن (أرسل، وسُقْنا) كان الأَفْصَحُ أن يكونا جميعًا

بلَفْظِ الماضي، لكنْ فيه عدولٌ عن الغَيْبَةِ في قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾ إلى التَّكَلُّم في قَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ لماذا؟

الجواب: سبق أنَّ الالتفاتَ له فائِدَةٌ دائِمَةٌ وهي التَّنْبيهُ؛ لأنَّ سياق الكَلَامِ على نَسَقٍ واحِدٍ يقتضي أنَّ الذِّهْنَ يَنْساقُ معه ولا يَتَوَقَّف، لكن إذا اختلف السِّيَاق يَقِفُ الذِّهْنُ، ويَنْظُر ما الذي حدث؟ وحينئذٍ يكون في تغييره تنبيهٌ للمُخاطَب؛ فهذا واحِدٌ.

لكن هنا أيضًا فيه فائِدَةٌ ثانِيَةٌ: وهي بيانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: نحن، فأضافَهُ إلى نَفْسِه؛ لأنَّه أدَلُّ على القُدْرَة، فإذا اجتمع ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾ ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ساق هذا السَّحابَ الذي أثارَتْه الرِّيحُ فهو أدَلُّ على القُدْرَة ممَّا لو جاء على نَسَقٍ واحِدٍ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتَّشْديدِ والتَّخْفيفِ: لا نبات بها].

كَلِمَةُ ﴿مَّيِّتٍ﴾ فيها قراءتان، ﴿مَّيِّتٍ﴾ و(مَيْتٍ) وقد قيل: إن (المَيْتَ) لِمَنْ مات بالفِعْل، والمَيِّت لمن سَيموتُ، وجعلوا على ذلك شاهدًا في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]؛ أي: ستموت، وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] فـ﴿مَيْتًا﴾ هنا لمن قد مات، هكذا فرَّقَ بعضهم.

والظَّاهِر أنَّ اللُّغَة العَرَبِيَّة تأتي بالوَجْهَيْنِ على المَعْنَيَيْنِ، ومنه هذه الآيَةُ، فـ﴿مَّيِّتٍ﴾ هنا هل معناها: سيموتُ، أو المَعْنى: قد مات بالفِعْل؟

الجواب: قد مات، ومع هذا جاءت بالتَّشْديدِ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا نبات بها] وهذا هو مَوْتُ البَلَدِ، والمُراد بالبَلَدِ هنا ليس المَسْكونَ من الأَرْضِ، بل ما هو أَعَمُّ، فيَشْمَلُ المَسْكونَ وغيْرَ المَسْكونِ، وتَخْصيصُ البَلَدِ بالمسكونِ تَخْصيصٌ عُرْفِيٌّ، وإلا فإنَّ كُلَّ الأَرْض بلد لانْبِلادها وتَسَطُّحها؛ ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أحيينا به، سُقْناه فأَحْيَيناه، هنا الأفعال والضَّمائِرُ على نسقٍ واحد.

قَوْله: [﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ من البلد]: [من البلد]؛ يعني: أَرْضَ البَلَد هذه التي كانت مَيِّتَةً أحياها الله عَزَّوَجَلَّ؛ أحياها بالنبات؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها؛ أي: أَنْبَتْنا به الزَّرْعَ والكَلَأ] وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ، تأتي الأَرْض يابِسَةً هامِدَةً عيدان تَتَكَسَّر فيُنْزِلُ الله المَطَر عليها، ثم تَهْتَزُّ خَضْراءَ فيها من كلِّ زوجٍ بَهيجٍ، فمن الذي أحياها؟

الله عَزَّوَجَلَّ، لا يَسْتَطِيعُ الخَلْقُ أن يُحْيُوها أبدًا مهما كان، حتى الكَلأ الذي يُنْبِتُ بالمَطَرِ لا يُنْبِتُه الماء الجاري كما هو مُشاهَدٌ؛ يعني: لو تَسْقي هذه الأَرْضَ مهما سَقَيْتَها بالماءِ الجاري فإنَّ الكَلأَ الذي يَنْبُت من المَطَر لا يُنْبَت بهذا الماء.

إذن: فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أحيا هذه الأَرْضَ بعد مَوْتِها؛ أي: بعد أن كانتْ يابِسَةً هامِدَةً ليس بها نباتٌ، أحياها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقُدْرَته.

قَوْله: [﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: البَعْثُ والإحياءُ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ هنا اسْم بمَعْنى: (مثل)، وهي خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ؛ أي: النُّشُورُ مثل ذلك، ويجوز أن تقول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكافُ حرفُ جَرٍّ، ليست اسمًا بمَعْنى: (مثل) وتجعلها جارًّا ومَجْرورًا خبرًا مقدَّمًا، و﴿ٱلنُّشُورُ﴾: مُبْتَدَأً

مُؤَخَّرًا، والتَّقْدير: (النُّشُورُ كائنٌ كذلك)، و ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ هو نَشْرُ الأَمْواتِ على وَجْهِ الأَرْضِ وإِحْياؤُهُم بعد أن كانوا أمواتًا.

والتَّشْبيهُ هنا هل هو تشبيهٌ للسَّبَبِ والنَّتيجَةِ أو للنَّتيجَةِ فقط؛ أي: هل المَعْنى أنَّ النُّشُور الذي يكون للأَمْواتِ يكون بِواسِطَةِ ماءٍ يُنْزِلُه الله عَزَّوَجَلَّ فَتَنْبُتُ هذه الأَجْسامُ ثم تَحْيا، أو أنَّ التَّشْبيهَ للنَّتِيجَةِ فقط؛ أي إِنَّ إحياءَ الموتى كإحياءِ الأَرْضِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عن السَّبَب؟

الجوابُ: الأَوَّلُ؛ لأَنَّه وَرَدَ عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الله تعالى يُرْسِلُ على الأَرْض مِن تَحْتِ العَرْشِ مطرًا غَليظًا حتى يَصِلَ إلى الأَجْسامِ فتَنْبُتُ في القُبُورِ كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في الأَرْضِ، وإذا تكامَلَتِ الأَجْسامُ نُفِخَ في الصُّورِ، فخَرَجَتِ الأَرْواحُ إلى أَجْسامِها[1]، وعلى هذا فيكون التَّشْبيهُ هنا عائدًا إلى السَّبَب والنَّتيجَة أيضًا، هذا هو المشهور عند أَهْلِ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ في إِرْسالِ هذه الرِّياحِ اللَّطيفَةِ التي تَحْمِل أو تُثيرُ هذا السَّحابَ الثَّقيلَ، قال الله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإثباتَ بالأَسْبابِ وأنَّ المسبَّباتِ مربوطةٌ بأَسْبابِها لِقَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾ فإنَّ الفاء هنا للسَّبَبِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يَنْبَغي في الأُمُور الهامَّة أن يُصاغَ الماضي بِصيغَةِ الحاضِرِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

استحضارًا له في الذِّهْنِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فإنَّ تَصْويرَ الماضي بِصيغة الحاضِرِ لا شَكَّ أنَّه يَحُثُّ الإنْسانَ إلى تَصوُّرِه أكثَرَ من الشَّيْء الماضي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هذا السَّحابَ يَجْري بأَمْرِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا السَّحابَ له شعورٌ؛ يعني: معناه يَعْدُو ويَجْري، وهذا يُمْكِنُ أن يُؤْخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: كما يُساقُ البَعيرُ، وعلى هذا جاء الحديثُ الصَّحيحُ في قِصَّةِ الرَّجُلِ الذي سَمِعَ صوتًا في سحابَةٍ: «اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ»[1]، فإنَّ تَوْجيهَ الأَمْرِ إليه يدُلُّ على أنَّه ذو شُعورٍ، ولا شَكَّ أنَّ جَميعَ الكائناتِ بالنِّسْبَةِ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّها ذاتُ شعور، قال الله تعالى في الأَرْض والسَّماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإحياءِ الأَرْض بعد مَوْتِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: صِحَّةُ وَصْفِ الأَرْض بالحياةِ والمَوْتِ مع أنَّها لَيْسَت من الحيواناتِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على أَهْل الكَلَام الذين يقولون: إنَّه لا يُوصَفُ بالحياةِ والمَوْت شَيْءٌ من الجماداتِ؛ لأنَّه هنا أَثْبَتَ الحياةَ والمَوْتَ للأَرْض وهي من الجماداتِ، وقال تعالى في الأَصْنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيَانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بإحياء الأَرْض بعد موتها؛ فإنَّ هذه الأَرْضَ التي كانت يابِسَةً هامِدَةً تعود فتَهْتَزُّ خُضْرَةً وازدهارًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾ فأضاف الإحياء إلى نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز إضافَةِ الشَّيْءِ إلى سَبَبِه المَعْلومِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

وإضافَةُ الشَّيْءِ إلى سَبَبِه المعلومِ أمرٌ واقِعٌ في القُرْآن وفي السُّنَّة؛ بمَعْنى: أَنَّه لا يُشْتَرَطُ أن تَقْرِنَ معه الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أَضَفْتَ الشَّيْءَ إلى سَبَبِه المعلوم -وإن لم تكن تَقْرِنُ الله به- فلا بأسَ، لكِنَّ المحرَّمَ أن يُضافَ إلى سببٍ غَيْرِ مَعْلومٍ لا شرعًا ولا حِسًّا، أو أن يضاف إلى سَبَبِه المعلومِ مَقْرونًا مع الله بِحَرْفٍ يقتضي التَّسْوِيَة.

فمثلًا: إضافَةُ الشِّفاءِ إلى التَّمائِمِ والحِلَقِ والخُيُوطِ، وما أشبهها، هذا لا يجوز؛ لأنَّ هذا السَّبَبَ غَيْرُ معلوم فلا يَصِحُّ، وإضافَةُ تَلْيينِ البَطْنِ إلى العَقَّارِ الذي تَناوَلْتَه حتى لَيَّنَ بَطْنَكَ صَحيحٌ؛ لأنَّه سببٌ معلومٌ بالحِسِّ، وإضافَةُ الشِّفاءِ إلى قِراءَة الفاتِحَةِ جائِزٌ؛ لأنَّه سَبَبٌ معلومٌ بالحِسِّ وبالشَّرْعِ؛ «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»[1].

فالمَحْظُور إذن أن يُضافَ الشَّيْءُ إلى غَيْرِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ أو حِسِّيٍّ، أو أن يضافَ إلى سبب شَرْعِيٍّ أو حِسِّيٍّ مقرونًا مع الله بِحرْفٍ يقتضي التَّسْوِيَة؛ مثل: (لولا الله وكذا) فإن هذا لا يجوز؛ لأنَّه من الشِّرْك؛ حيث قَرَنَ الله مع غَيْره بالواوِ التي تَقْتَضي

---

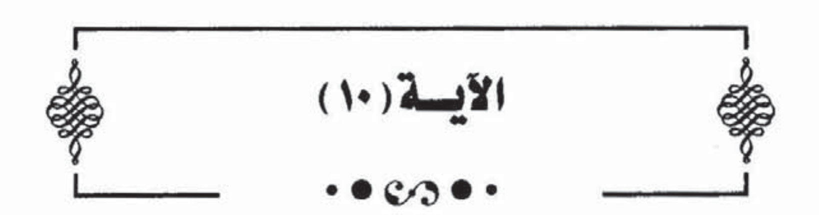
(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

التَّسْوِيَةَ، ولكن قل: (لولا اللهُ ثم كذا).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ صِحَّةِ القياسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ وإثباتُ القياسِ كثيرٌ في القُرْآن، فكُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَه الله فهو دليلٌ على القياسِ؛ فكُلُّ مَثَلٍ سواء للدنيا أو للإِنْسَان أو للأوثان أو لأي شَيْء، فإنَّه دليلٌ على ثبوتِ القياسِ وصِحَّتِه؛ لأنَّ المقصودَ بالمَثَلِ قياسُ المَضْروبِ بالمَضْروب فيه، وهذا هو القياسُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ إحياءَ المَوْتى كإحياءِ الأَرْضِ بعد مَوْتِها؛ أي: كما جاء في الآثارِ أنَّ المَطَر يَنْزِل على الأَرْضِ كمَنِيِّ الرِّجالِ، يبقى أربعينَ يومًا تَنْبُت منه الأجسامُ، ثم بعد ذلك يُنْفَخُ في الصُّور، فتعودُ الأَرْواحُ إلى أجسامِهَا.

• • ۞ • •



الآية (١٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠].

•••

﴿مَن﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ والشَّرْطُ فيها ظاهِرٌ؛ يعني: يقول: أيُّ إِنْسَانٍ يريدُ العِزَّة فلِلَّهِ العِزَّةُ جميعًا ﴿مَن كَانَ﴾ لكنَّها عامَّة؛ لأنَّ أَسْماءَ الاسْتِفْهامِ وأَسْماءَ الشَّرْطِ والأَسْماءَ الموصولَةَ كُلَّها تُفيدُ العُمُومَ؛ يعني: أيُّ أَحَدٍ يريد العِزَّةَ؛ أي: يَطْلُبُها ويَحْرِص عليها، والعِزَّةُ هي الغَلَبَة والمَنَعَة وقهر الأَعْداءِ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فَلْيَطْلُبْها منه، فما دامت العِزَّةُ له مِلْكًا وتَصَرُّفًا فإنَّها لا تُطْلَب إلا منه؛ كما لو قُلْتَ: (من كان يريدُ المالَ فالمالُ عند زَيْدٍ) المَعْنى: فَلْيَطْلُبِ المالَ من زيدٍ، والمَعْنى هنا: من كان يريد العِزَّةَ فلْيَطْلُبِ العِزَّةَ من الله لا من غَيْرِهِ، هذا يُرادُ به الرَّدُّ على أولئك الذين يَعْبُدون الأَصنامَ لأجل أن يتَّخِذوا منها العِزَّة، ففي هذه الآيَة إشارَةٌ إلى أنَّه لا عِزَّة لهذه الأَصْنام: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم:٨١].

الجواب: ﴿كَلَّا﴾ [مريم:٨٢] لن يكونوا لهم عِزًّا، بل بالعَكْس، سيُذِلُّونَهم في موقعٍ هم أَحْوَجُ ما يكونوا إلى العِزَّة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

[مريم:٨٢] فأين العِزَّةُ في هذه الأصْنامِ أو في هذه الآلِهَة التي اتَّخذوها من دون الله؟

وردت العِزَّةُ في آياتٍ كثيرةٍ من القُرْآن، ورَدَتْ في آيَةٍ أخرى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨] ولا منافاة بينها وبين هذه الآية، فإنَّ العِزَّة لله أَصْلًا، ولِرَسُولِهِ من الله، وللمُؤْمِنين من الله، وحينئذٍ فالعِزَّةُ كُلُّها لله كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦] فكُلُّ من عنده عِزَّة فإنَّها ليست عِزَّةً ذاتِيَّةً له من ذاتِ نَفْسِه، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ، وبماذا تكون العِزَّة التي يَكْتَسِبُها الإِنْسَان وهي من الله؟

تكون بما علَّق الله العِزَّة عليه وهي الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨] فمتى أراد الإِنْسَانُ العِزَّة فليكن مُؤْمِنًا، وكُلُّ ما كان أكْثَرَ إيمانًا بالله وأقوى إيمانًا بالله كان أكثر عِزَّةً وأقوى عِزَّةً.

ولهذا قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّا قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ فَلَنْ نَبْتَغِيَ العِزَّة بِغَيْرِهِ»(١) بسواه، أذَلَّنا الله، وصدق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ فالعَرَبُ لما كانوا عربًا ليس عندهم إِسْلامٌ كانوا أذِلَّةً فُقَراءَ يَذْهبونَ إلى اليَمَنِ في الشِّتاء ليأتوا بالسِّلَعِ منه، ويَذْهبونَ إلى الشَّامِ في الصَّيْف ليأتوا بالسِّلَع منه، فهم فُقَرَاءُ يَأْكُلون من غَيْرهم، لكِنْ لما آمَنُوا صاروا هم الأَغْنِياء، وصارت كُنُوزُ كِسْرى وقَيْصَرَ تأتي إلى المدينة لتُنْفَقَ عليهم من المدينة.

إذن: نحن مهما أردنا العِزَّة لن نَسْتَعِزَّ إلا بالإِسْلام، لن يكون أعداءُ الله سببًا لعِزِّنا أبدًا، بل إنَّ تَوَلِّينا إياهم وموالاتِنا هم سببٌ للذُّلِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢).

لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٨].

وإذا تَتَبَّعْتَ الواقِعَ وَجَدْتَه شاهدًا لِقَوْلِ الله تعالى هذا، وأنَّ أعداء المُسْلِمين لا يُمْكِن أبدًا أن يَسْعَوْا في إعزازِ المُسْلِمينَ، بل يَسْعَوْنَ بكلِّ جُهْدِهم إلى إذلالِ المُؤْمِنين وخِذْلانِهم، لكنهم يَمْكُرونَ، ويُخادِعونَ، ويَسْخرونَ، ويَسْتَهْزِئون؛ لينالوا مآرِبَهم، ويضربوا النَّاسَ بَعْضَهُم ببعض.

فالحاصِلُ: أنَّه إذا كانت العِزَّة لله فمن أين نَطْلُبُها؟

الجواب: من الله، لا من غَيْره.

قَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من العِزَّة التي هي المُبْتَدَأ المؤَخَّرُ، وفي قَوْله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ فيها حَصْرُ العِزَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْهُه: تقديمُ الخَبَر؛ لأن تقديم الخَبَرِ يُفيدُ الحَصْر.

إذن: تقديمُ الخَبَر يفيد الحَصْرَ؛ لأنَّ لدينا قاعِدَةً سبقت: وهي أن تقديم ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ يراد به عُمومُ الأَنْواعِ وعُمُومُ الأَزْمانِ وعُمُومُ الأَمْكِنَة. عموم الأَنْواعِ هي: عِزَّةُ القَدْر، والقَهْر، والامْتِناعِ.

والأَزْمان؛ أي: الدُّنْيا والآخِرَة.

والمكان: في مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبِها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: في الدُّنْيا والآخِرَة فلا تُنالُ منه -أي: فلا تُنالُ العِزَّةُ من الله- إلا بطاعَتِه، فَلْيُطِعْه] أي: فَلْيُطِعْه

من كان يريد العِزَّةَ، أو (فَلْنُطِعْهُ) بالنون.

أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ جوابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وهو قَوْله: [فَلْيُطِعْهُ]، ولكن الصَّوابَ أنَّ التَّقْدير: (فَلْيَطْلُبْها من الله)، (من كان يريدُ العِزَّة فلِلَّهِ العِزَّة جميعًا فَلْيَطْلُبْها منه) ويَشْمَلُ الطَّلَبَ بلِسانِ الحالِ وبِلِسانِ المَقالِ.

أما على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّ الطَّلَبَ يَخْتَصُّ بلسانِ الحال فقط، فالصَّوابُ إذن أنَّ جوابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، تَقْديره: (فَلْيَطْلُبْها منه) لِيَشْمَل ذلك طَلَبَ الحالِ وطَلَبَ المقالِ، فطَلَبُ المقالِ أن تقول: (اللَّهُمَّ أَعِزَّني)، (اللَّهُمَّ اجعل لي العِزَّةَ على عَدُوِّي) وهكذا، وطَلَبُ الحال: أن تقومَ بطاعَةِ الله بل بطاعَةِ الله مع تَحْقِيق الإيمان؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون:٨].

وقد ذُكِرَت العِزَّة في مواضِعَ كثيرةٍ من القُرْآن، ومنها قَوْله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المُنافِقون:٨]، وقَوْله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

قَوْله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: ﴿إِلَيْهِ﴾ جارٌّ ومَجْرورٌ مُقَدَّمٌ على عامِلِهِ وهو ﴿يَصْعَدُ﴾ والضَّميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لَمَّا ذكر أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يكون من أَسْبابِ العِزَّة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿يَصْعَدُ﴾ أي: يَرْتَفِعُ ويَعْرُج الكَلِمُ الطَّيِّب.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْلَمُه] ففَسَّرَ صُعُودَ الكَلِم الطَّيِّبِ بِعِلْم الله إياه، وهذا تحريفٌ للكَلِمِ عن مواضعه، بل المُرادُ بالآيَة ظاهِرُها، أنَّ الكَلِمَ الطَّيِّبَ يصعد إلى

الله؛ يعني: يَعْرُج إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لكن المُفَسِّر -غفر الله لنا وله- أراد أن يَبْعُدَ عن إثباتِ العُلُوِّ الذَّاتِيِّ، فقال: [يَعْلَمُه]، ولو كان المُرَاد العِلْمَ، لم يقل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ العِلْمَ لا يَلْزَمُ منه الصُّعُودُ، بل قد يكون العالِمُ بالشَّيْءِ أَنْزَلَ من الشَّيْءِ؛ كما لو كُنْتَ في أَسْفَلِ البِئْرِ وأنت تعلم ما فوق.

على كُلِّ حالٍ: هذه هَفْوَةٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، نسأل الله أن يَعْفُوَ عنه.

ونقول: إلى الله يَصْعَدُ؛ أي: يرتَفِعُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ في العُلُوِّ، وأدِلَّةُ العُلُوِّ قد بُيِّنَتْ في العقائِدِ، وأنَّها خَمْسَةُ أنْواعٍ: الكِتَاب، والسُّنَّة، والإجْماع، والعَقْل، والفِطْرَة؛ كُلُّها مُتَّفِقَة على عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاتِهِ، وفي كِتَاب (الإقناع)[1] أنَّ شَيْخَ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: من زَعَمَ أنَّ الله تعالى معنا بذاتِهِ في المكانِ فهو كافرٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ﴾ اسْم، جَمْع (كَلِمَة)، فهو دالٌّ على الجمع، وما المُرَاد بالكَلِمِ الطَّيِّبِ؟

الكَلِمُ الطَّيِّب هو كلُّ كَلِمٍ يُقَرِّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فـ(لا إله إلا الله) من الكَلِم الطَّيِّب، وسبحان الله، والحَمْد لله، والله أكبر، كُلُّها من الكَلِم الطَّيِّب، والقُرْآنُ من الكَلِم الطَّيِّب، والأَمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المُنْكَر من الكَلِم الطَّيِّب، وقِراءَةُ العِلْم من الكَلِم الطَّيِّب، وكُلُّ قَوْلٍ يُقَرِّب إلى الله فهو من الكَلِمِ الطَّيِّب.

والكَلِمُ الطَّيِّبُ يقابله نوعان من الكَلَام: كَلِمٌ رَدِيءٌ خَبيثٌ، وكَلِمٌ لا هذا ولا هذا، لا يُوصَفُ بأنَّه طَيِّب ولا يوصف بأنَّه خبيثٌ.

أمَّا الكَلِمُ الخَبيثُ فككَلِمَةُ الكُفْرِ والسَّبِّ والشَّتْمِ واللَّعْن لمن لا يَحِلُّ سَبُّه

(١) الإقناع (٤/ ٢٩٨).

ولا شَتْمُه ولا لَعْنُه.

وأمَّا الكَلِمُ الذي لا هذا ولا هذا، فهو أكْثَرُ كَلَامِ النَّاسِ.

والصِّنْفانِ جميعًا لا يُرْفعانِ إلى الله؛ أمَّا الأَوَّل فَلِأنَّه خَبيثٌ، و«اللهُ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا»[1]، وأمَّا الثاني فلِأَنَّه لم يُقْصَدْ به الله عَزَّوَجَلَّ حتى يُرْفَعَ إلى الله، وهذا الثاني -أعني: الذي ليس هذا ولا هذا- قد يكون طَيِّبًا لا لِذَاتِهِ ولكن لِغَيْـرِه؛ لِما يُوصِلُ إليه من المقاصِدِ الحَسَنَةِ، فإنَّ الإِنْسَانَ قد يَتَحَدَّثُ إلى شخص كَلَامًا ليس هو خَيْرًا في نفسه لكن يَقْصِد به التَّأْليفَ لهذا الرَّجُل وإدخالَ الأُنْسِ عليه والسُّرور، فيكون هذا الكَلَامُ الذي هو لَغْوٌ في نَفْسِه يكونُ مَحْمودًا لِمَا قُصِد به، كما أنَّ هذا الكَلَامَ الذي هو لَغْوٌ في نفسه إذا قُصِدَ به الإساءَةُ إلى من لا تَحِلُّ الإساءَةُ إليه صار كَلَامًا خَبيثًا لِغَيْرِه أي: لِما قُصِدَ به.

وعلى كلٍّ: فالكَلِمُ الطَّيِّبُ لِذاتِهِ أو لِغَيْرِه يَصْعَدُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قُلْتَ: كيف يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب والكَلِمُ ليس جِرْمًا؟ بل أصواتٌ تُسْمَعُ بِحَركاتٍ مُعَيَّنَةٍ في الفم واللِّسان والشَّفَة؟

فالجوابُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادِرٌ على أن يَجْعَلَ المَعْقولَ شَيْئًا مَحْسوسًا؛ كما ثبت في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ...»[١].

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إنَّما جَمعَهُ لِكَثْرَةِ أَنْواعِهِ، وكَثْرَةُ الأَنْواعِ تَدُلُّ على كَثْرَةِ الأَفْرادِ من بابِ أَوْلى، فالأَنْواعُ كثيرةٌ والأَفْرادُ في كلِّ نَوْعٍ كذلك كثيرَةٌ؛ فلهذا جَمعَهُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ يَقْبلُه] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [يَقْبَلُه] أنَّ الفاعِلَ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يعودُ إلى الله، وأنَّ الهاءَ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ تعود إلى العَمَل الصَّالِحِ؛ يعني: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَقْبلُه الله، فكَوْنُ ضَميرِ الفاعِلِ يعود على (الله) وضَميرِ المَفْعولِ يَعودُ على (العَمَل) هذا لا نُناقِشُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه؛ لأَنَّه مُحْتَمَلٌ، لكنَّنا نُناقِشُه في تَفْسيره الرَّفْعَ بالقَبُولِ، وكلُّ هذا فِرارًا من إثباتِ العُلُوِّ الذَّاتِيِّ، غفر الله له، بل نقول: مَعْنى ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يَرْفَعُ هذا العَمَل، من الرَّفْعِ الذي هو ضِدُّ النُّزُولِ، يَرْفَعُه إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّه فوق، وهذا التَّفْسيرُ في مَرْجِعِ الضَّمائِرِ الذي ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو أَحَدُ التَّفاسِيرِ المَذْكورَةِ في هذه الآيَة.

التَّفْسير الثاني: (والعَمَلُ الصَّالِحُ يرفَعُهُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) فجَعَلَ ضَميرَ الفاعِلِ يعودُ على ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وجعل الهاءَ تعود على ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ فيكون العَمَل الصَّالِحُ مَرْفُوعًا بالكَلِمِ الطَّيِّبِ، واحْتَجَّ هؤلاء بأنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ لا يُقْبَلُ إلا بالإِسْلام، وهو الكَلِمُ الطَّيِّبُ الذي هو (لا إله إلا الله)، فإنَّ الإِنْسَانَ لو عَمِلَ من العَمَلِ الصَّالِحِ الشَّيْءَ الكَثيرَ لكنه غَيْرُ مُسْلِمٍ لا يَرْتَفِعُ هذا العَمَل، فلا يَرْفَعُ العَمَلَ الصَّالِحَ إلا الكَلِمُ الطَّيِّبُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٥٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والقَوْل الثالثُ: بالعَكْس، يقول: (والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ) فيكونُ الفاعِلُ في ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ العَمَلُ الصَّالِحِ، والمفعولُ ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عكس الذي قبله، ما وَجْهُ ذلك؟

يقول: العَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ؛ لأنَّ الكَلِمَ الطَّيِّب بدون عمل لا ينفع صاحبه فلا بُدَّ في الكَلِم الطَّيِّبِ من عملٍ صَالِح يرفع ذلك القَوْلَ الطَّيِّبَ.

والأَقْرَبُ -والله أعلم- أنَّ ما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصَّوابُ؛ أي: إِنَّ الله يَرْفَعُ العَمَلَ الصَّالِحَ؛ كما أنَّ الكَلِمَ الطَّيِّب يَصْعَدُ إلى الله، فإذا صَعِدَ الكَلِمُ الطَّيِّب إلى الله امْتَنَّ الله على هذا المُتكَلِّم بأنْ رَفَعَ العَمَلَ الصَّالِحَ الذي يَعْمَلُه، إلا أَنَّنا لا نُوافِقُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيرِ الرَّفْعِ بالقَبولِ، نُوافِقُه على مَرْجِعِ الضَّمائِرِ، لكنْ لا نُوافِقُه على تَفْسيرِ الرَّفْعِ بالقَبُولِ.

وحينئذٍ نقول: والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه الله عَزَّ وَجَلَّ، فيكونُ الله عَزَّ وَجَلَّ -في هذه الآية- ذَكَرَ القَوْلَ والعَمَل، فذَكَرَ أنَّ القَوْل يَصْعَدُ وأنَّ العَمَل يُرْفَعُ؛ لأنَّ رَفْعَ العَمَلِ كالجَزاءِ على الكَلِمِ الطَّيِّبِ، فإذا تكَلَّمَ الإِنْسَانُ بالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ فصَعِدَت إلى الله عَزَّ وَجَلَّ قَبِلها، ثم رَفَعَ العَمَلَ الصَّالِحَ.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المَكَراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنَّبِيِّ في دار النَّدْوَةِ من تَقْييدِهِ أو قَتْلِهِ أو إِخْراجِهِ كما ذُكِرَ في الأنفال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يَهْلِك].

الواو للاسْتِئْنافِ، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدأٌ، وجُمْلَة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبر المُبْتَدأ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيه نوعٌ من الإِشْكالِ؛ لأنَّ السَّيِّئاتِ لا تُمْكَرُ، وإِنَّما يُمْكَرُ بها؛ يعني: يُمْكَرُ بِسَبَبِ السَّيِّئات، فلماذا تعدى الفِعْلُ إليها؟

أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ السَّيِّئاتِ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ محْذُوفٍ، والتَّقْديرُ: (المَكَرَات السَّيِّئاتِ) فيكونُ الوَصْفُ هنا للفِعْلِ لا لِما حَصَلَ به المَكْرُ؛ لأنَّ فِعْلَهم نَفْسَه مَكْرٌ سَيِّئٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وسَمَّى الله عَزَّوَجَلَّ السَّيِّئاتِ مَكْرًا؛ لأنَّ الإنْسانَ في الواقِعِ يَخْدَعُ نَفْسَه بها، ويَخْدَعُ غَيْرَه بها، فيُمَنِّي نَفْسَه التَّوْبَة وأنَّه سيتوب، أو يُمَنِّي نَفْسَه سَعَةَ حِلْمِ الله ومَغْفِرَتِه وأنَّ الله واسِعُ الحِلْم والمَغْفِرَة والرَّحْمَةِ، فلن يؤاخِذَه بهذه العُقُوبَةِ، فتَمَنِّي الإِنْسَانِ في هذا الباب من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّه يُمَنِّي نَفْسَه التَّوْبَة، وما يُدْريهِ فَلَعَلَّه لا يتمكَّنُ منها، لعل سَيِّئاتِه تُحيطُ به ثم لا يَتَمَكَّن من التَّوْبَة، أو لَعَلَّه يَفْجَؤُه الموتُ، ثم لا يتمكَّنُ من التَّوْبَة.

الوجه الثاني: أنَّه يتَمَنَّى على الله الأَمانِيَّ، فيقول: (إنَّ الله غفورٌ رحيم)، و(الله واسع الرَّحْمَة)، و(سوف يعفو عني) كما يُوجَدُ عند كثيرٍ من النَّاسِ عندما يَعْمَلُ مَعْصِيَةً؛ حيث يقول لك: اللهُ غفورٌ رحيم، بل بَعْضُهم يحتج بالآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] ويقول: أنا لم أُشْرِكْ، وما دون الشِّرْك فإنَّ الله تعالى يَغْفِرُه.

وجوابُنا على ذلك يَسيرٌ جِدًّا، وهو أن نقول له: أَثْبِتْ أنَّكَ مِمَّنْ شاء الله أن يَغْفِرَ له؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وسكت، بل قَيَّدَه بِقَوْله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فأنت أَثْبِتْ أنَّكَ مِمَّن شاء الله أن يَغْفِرَ له، وحينئذٍ يكون لكَ حُجَّةٌ، أمَّا أن تفعل المَعْصِيَةَ التي هي سبب العُقُوبَةِ ثم تتمَنَّى على الله أمرًا لم يَعِدْكَ الله به، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهذا لا شَكَّ أنَّه ضلالٌ منك.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ السَّيِّئاتُ هي ما يَسوءُ الإِنْسَانَ فِعْلُه مثل شُرْبِ الخَمْر، السَّرِقَة، الزِّنا، الرِّبا، وما أشبه ذلك.

فإن قُلْتَ: هذا لا يسوء الإِنْسَانَ فِعْلُه!

فجوابُنا على هذا أن نقول: إن أَرَدْتَ أَنَّه لا يَسُوءُ الإِنْسَانَ فِعْلُه أبدًا فهذا ليس بصحيحٍ؛ لأَنَّه يوم القِيامَة سوف يَنْدَمُ، وسوف يَسُوء الإِنْسَانَ فِعْلُه في ذلك اليوم.

أمَّا في الدُّنْيا فإنَّه يسوء الإِنْسَان فعله؛ لأنَّ للذُّنوبِ آثارًا على القُلُوب، فإنَّ المعاصِيَ تكون نُقْطَةً سَوْداءَ في القَلْبِ فإن تاب الإِنْسَانُ انْصَقَلَ قَلْبُه وعاد إلى بياضِهِ، وإلا تَوَسَّعَت هذه النُّقْطَةُ السَّوْداء، وأَصْبَحَ القَلْبُ مُظْلِمًا -والعياذ بالله- بل يُخْتَمُ عليه حتى لا يَصِلَ إليه الخير كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فللذُّنوبِ آثارٌ عظيمَةٌ على القَلْبِ تُوجِبُ أن يكون مُنْقَبِضًا، وإذا تلَذَّذَ بعض الشَّيْء في هذه المَعْصِيَةِ فإنَّه يَعْقُبُ ذلك حَسْرَةٌ عَظيمَةٌ في القَلْبِ وضِيقٌ، واقرأ إن شِئْتَ قَوْلَ الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، يتبيَّنْ لك أنَّ المَعْصِيَة تَسُوء فاعِلَها، وإن كان قد لا يَشْعُرُ بها؛ لأنَّه قد ران على قَلْبِه ما كان يَعْمَل.

إذن: السَّيِّئاتُ سَيِّئاتٌ لِكُلِّ حالٍ تَسُوء صاحِبَها في الدُّنْيا، ولكن قد لا يَظْهَر، وقد لا يَتَبيَّن له، وفي الآخِرَة يَظْهَرُ له ويَتَبيَّن ويتمَنَّى أن يعود إلى الدُّنْيا لِيَعْمَلَ صَالِحًا.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المَكَرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنَّبِيِّ في دار النَّدْوَةِ من تَقْييدِهِ، أو قَتْلِه، أو إخْراجِهِ، كما ذُكِرَ في الأنفال] هذا في الحقيقة إذا أراد

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه المُرادُ بالآيَة دونَ غَيْره فقُصُورٌ، وإن أراد بذلك التَّمْثيلَ فصحيحٌ؛ فإنَّه لا شَكَّ أنَّ هؤلاء مَكَروا بالنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

مَعْنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يُقَيِّدوكَ ويَحْبِسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ هذا واضح، و﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي: من مَكَّة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ فهُم -الحَمْد لله- ما أَثْبَتُوه، ولا قَتَلُوه، ولا أَخْرَجُوه، كل هذه انْتَفَتْ مع حِرْصِهم الشَّديدِ على تَنْفيذِها، لكنْ ما حصل منها شَيْءٌ.

وجُمْلَة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذه الجُمْلَةُ جُمْلَة خَبَرِيَّة، وهي في مَحَلِّ رفعٍ خَبَرُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾.

والعذابُ بمَعْنى العُقُوبَةِ، والشَّديدُ؛ أي: القَوِيُّ، فهو قويٌّ في إيلامِهِ، وإيجاعِهِ، وفي أَنْواعِهِ المُتَنَوِّعة، من حَرُورٍ، وبَرْد، وعَطَشٍ، وجُوعٍ، وغير ذلك من شِدَّتِه؛ لهم -والعياذ بالله- سَرابيلُ من قَطِرانٍ كُلَّما نَضِجَت جلودهم قال الله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]، وانظر إلى قَوْله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ﴾ [الإسراء:٩٧] يَتبيَّن لك أنَّ الزيادَةَ تأتي فَوْرًا.

والله عَزَّوَجَلَّ قادِرٌ على أن تبقى بزيادَتِها، لكنَّها تخبو ليكون في قُلوبِهِم شَيْءٌ من الطَّمَع في خِفَّةِ العذابِ أو الخُرُوج، ثم يعود: فيكونُ هذا أَشَدَّ؛ لأنَّ ضَرْبَ الإِنْسانِ بِعُقوبَةٍ بعد الطَّمَعِ في زوالِهَا يكونُ أشَدَّ عليه مِمَّا لو كان الأَمْرُ مُسْتَمِرًّا.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا مُفَصَّلٌ في الكِتَاب والسُّنَّة، فمن تَتَبَّعَه

-أي أَنْواع العَذابِ التي للكافرينَ في النَّار- من القُرْآن يكون جَيِّدًا.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: ﴿وَمَكْرُ﴾ مُبْتَدَأ خَبَرُه جُمْلَةُ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ و﴿هُوَ﴾ لا تَصِحُّ هنا أن تكون ضَميرَ فَصْلٍ؛ لأنَّ القاعِدَةَ أنَّ ضميرَ الفَصْلِ يكون بين اسْمَينِ لا بين اسْمٍ وفِعْلٍ، لكنها مُبْتَدَأٌ خَبَرُها جُمْلَةُ ﴿يَبُورُ﴾ والجُمْلَةُ من المُبْتَدَإِ والخَبَرِ خَبَرُ ﴿وَمَكْرُ﴾ وأتى بهذا التَّركيبِ من بابِ تَعْظيمِ هذا الشَّيْءِ وتَهْويلِهِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ﴾ ولم يَقُلْ: (مَكْرُ هؤلاء) إمَّا اسْتِبْعادًا لهم؛ لأنَّهم ليسوا أَهْلًا لأن يُقَرَّبوا؛ أو لأنَّهم هم جَعَلُوا أَنْفُسَهُم في محل العالينَ الذين يُشارُ إليهم مِن بُعْدٍ، فبيَّنَ أنَّ هؤلاء الذين تَعَالَوْا بِمَكْرِهم -وإن كانوا في القِمَّةِ على حَسَب زَعْمِهِم- فإنَّ هذا المَكْرَ يَبورُ؛ والبوار بمَعْنى الهلاك كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

فهؤلاء مَكْرُهُم يَبورُ؛ أي: يَتَلاشى ويَضْمَحِلُّ، ولا يفيدهم شيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذا الحَثُّ على طلب العِزَّةِ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه ليس المَعْنى أنَّ من أرادَ العِزَّة فَلْيَطْلُبْها من الله، فليس المُرادُ العَرْضَ فقط؛ إذ كُلُّ أحدٍ يريد العِزَّةَ، لكن إذا أَرَدْتَ العِزَّةَ فمِمَّنْ تَطْلُبُها؟ من الله، ففيه إثباتُ أنَّ العِزَّةَ تُطْلَب من الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا عِزَّةَ بدون الله، وذلك بالقيامِ بطاعَةِ الله، والاسْتِعانَة به، والاعتمادِ عليه، فإذا اعْتَزَّ الإِنْسَانُ بِكَثْرَتِه فإنَّه يُهْزَم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التَّوْبَة:٢٥]، ولو اعْتَزَّ الإِنْسَانُ بِقُوَّتِه المادِّيَّة كقُوَّةِ السِّلاحِ مثلًا فإنَّه يُهْزَم،

وإذا استعانَ بالله فإنَّه لا يُهْزَم، اللَّهُمَّ إلا لِحِكْمَةٍ تكون مُقْتَرِنَةً بتلك القَضِيَّةِ المُعَيَّنَة فقد يكون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ العِزَّةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العِزَّة لها كلٌّ وبَعْضٌ، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ هناك كُلًّا وبَعْضًا، وذلك أنَّ العُلَماءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قَسَّمُوا العِزَّة التي اتَّصَف الله بها إلى ثلاثة أقْسامٍ: عِزَّة الامْتِناعِ، وعِزَّة القَدْرِ، وعِزَّة القَهْر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ عُلُوِّ الله، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ لأنَّ الصُّعُودَ هو العُلُوُّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الكَلِمَ غَيْرُ الطَّيِّبِ لا يَصْعَدُ إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ويؤيِّدُ هذا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى انْقِسامِ الكَلَام؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ فإن هذا الوَصْفَ إخراجٌ لما سِواهُ، وقد تَقَدَّم: أنَّ الذي يقابِلُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ نوعان من الكَلَام: الخَبيثُ، وما ليس بطَيِّبٍ ولا خَبيثٍ.

أمَّا الخَبيثُ فمَرْدودٌ بكُلِّ حالٍ؛ لأنَّه خبيثٌ لِذَاتِه، وأمَّا ما ليس بطَيِّبٍ ولا خَبيثٍ، فقلنا: إن هذا القِسْمَ من الكَلَام قد يكون طيِّبًا لِغَيْره، وخبيثًا لغيره، وسالِمًا من الوَصْفين، فإذا كان طَيِّبًا لِغَيْره فإنَّه يَصْعَدُ إلى أعلى؛ لعموم قَوْله تعالى: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَرْفَعُ من الأعمـال إلا ما كان صَالِحًا؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ والعَمَل الصَّالِح ما اشْتَمَلَ على وصفين: الإِخْلاص لله، والمُتابَعَة لِشَرْعِه، فإن فُقِدَ الإِخْلاص فليس بعَمَلٍ صَالِحٍ؛ لأَنَّه شِرْك، وإن فُقِدَت المُتابَعَة فليس بعملٍ صَالِحٍ؛ لأَنَّه بِدْعَة.

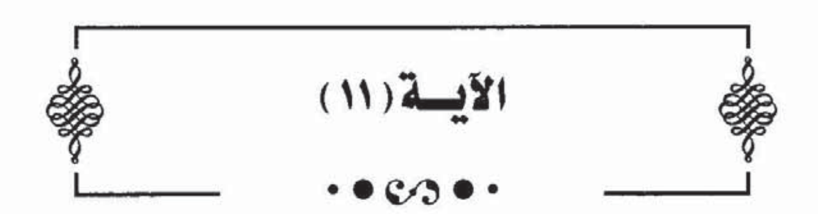
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الأَعْمـالَ السَّيِّئَةَ مَكْرٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا إذا أَخَذْناها على سبيل العُموم، أمَّا إذا قلنا: إنَّ السَّيِّئاتِ عامٌّ أُريدَ به الخاصُّ فالمَكْرُ الذي حصل من أَذِيَّة قُرَيْشٍ للرَّسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فإنَّه يكون خاصًّا، لكِنَّ الأَصْلَ في الكَلَام أن يكون مُرادًا به العُمُومُ وأن يكون باقيًا على عُمُومه حتى يَرِدَ دليلٌ على أَنَّه أريد به الخُصُوص أو على أَنَّه مُخَصَّص.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الوَعيدُ الشَّديدُ على هؤلاء الذين يَمْكُرون السَّيِّئاتِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَكْرَ هَؤلاءِ هالِكٌ زائِلٌ لا فائِدَة فيه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ حتى أَعْمالُهم لا تَنْفَعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

هذه هي الفوائِدُ الظَّاهِرَة من هذه الآيَةِ الكَريمَة، ورُبَّما عند التأَمُّلِ يَجِدُ الإِنْسان أَكْثَرَ؛ لأنَّ كَلَامَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُحاطُ به، ولكِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفونَ في الفَهْمِ.

•••



الآية (١١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١].

لَمَّا بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ما سبق من الآياتِ الدالَّة على قُدْرَتِهِ من إِرْسالِ الرِّياحِ، وإثارَةِ السَّحَابِ، وسَوْقِه إلى الأَرْض المَيِّتَة، وإحياءِ الأَرْضِ بعد مَوْتِها، وأنَّ الأعمالَ من أَقْوَالٍ وأفعالٍ تُرْفَعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال هنا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهذا باعتبارِ الأَصْلِ الذي هو آدَمُ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِخَلْقِ أبيكُم آدَمَ منه] أي: إِنَّ الله تعالى خَلَقَه من ترابٍ، وهذه الآيَةُ فيها أنَّ الله خَلَقَه من تراب، وفي آيَةٍ أخرى أَنَّه خَلَقَه من طينٍ، وفي آيَةٍ ثالثة أَنَّه خَلَقَه من صَلْصَالٍ من فَخَّارٍ، وفي آيَةٍ رابِعَة: من حَمَإٍ مَسْنونٍ، فما هو الجوابُ عن هذا التَّغَيُّر؟

الجواب: أنَّ هذا تَغَيُّر أوصافٍ، وليس تَغَيُّر ذواتٍ وحينئذٍ فلا تناقُضَ؛ إذ يَجوزُ أن تَتَعَدَّدَ الأَوْصافُ على مَوْصوفٍ واحِدٍ، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤] مع أَنَّه واحِدٌ.

الحاصِلُ: أن يقال في هذا التَّغَيُّر: إنَّ هذا تَغَيُّرُ أَوْصافٍ وليس تَغَيُّر ذواتٍ

وأعيانٍ، فالعَيْنُ واحِدَة، لكنَّ أَوَّلَها التراب، فإذا أُضيفَ إليها الماءُ صارت طينًا، فإذا أُطْرِي وأَخَذَ مُدَّةً صارت حَمَأً مَسْنُونًا مُتَغَيِّرًا؛ يعني الطِّينُ إذا أَكْثَرْتَ فيه الماءَ تَجِدُه يَسْوَدُّ وتكون له رائِحَة، والرَّابعُ من صلصالٍ كالفَخَّارِ هذا بعد أن كان حَمَأً مَسْنُونًا يَبِسَ وصار صَلْصالًا كالفخَّار، ثم نَفَخَ الله فيه الرُّوحَ، فيكون هنا التَّغَيُّر تَغَيُّرَ أوصافٍ، والأَصْلُ فيه التُّرابُ.

قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أتى بـ(ثم) الدالَّةِ على التَّراخي والتَّرْتيب؛ لأن (ثم) تدلُّ على التَّراخي والتَّرْتيب، و(الفاءُ) تَدُلُّ على التَّرْتيبِ بدون تراخٍ، هنا قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لأَنَّه لمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آدَمَ وخَلَقَ ذُرِّيَّته تناسَلَتْ هذه الذُّرِّيَّة بواسِطَةِ هذا الماء الذي هو النُّطْفة، والنُّطْفة هي الماء القَليلُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَنِيٍّ بِخَلْقِ ذُرِّيَّته منها]؛ أي: من هذه النُّطْفَة، والغَريبُ أنَّ هذه النُّطْفَة القَليلَةَ يَذْكُر عُلَماءُ الطِّبِّ أَنَّها تَشْتَمِل على ملايينَ من الحيواناتِ المَنوِيَّةِ، وهذه النُّطْفَة التي يَزْعُمونَ أَنَّها ملايينُ -وهم أعلم منا بذلك- لا يَصْلُح منها إلا واحِدٌ في الغالِبِ، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، هذا أنْهى ما سَمِعْت، أَنَّه يُولَدُ للمَرْأَةِ أَرْبَعَةُ أولادٍ في بطنٍ واحِدَة، واللهُ على كل شَيْءٍ قَديرٌ، قد يَزيدُ في الخَلْقِ ما يشاء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكورًا وإناثًا].

قَوْله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ فسَّر المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الأَزْواجَ بالذُّكورَةِ والأُنُوثَةِ بِقَرينَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ الأَزْواجُ هنا باعْتِبارِ الجِنْسَيْنِ: الذَّكَرِ والأنثى، ويؤَيِّدُ تَخْصيصَ الأَزْواجِ هنا بالذُّكُورَةِ والأُنُوثَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أمَّا إذا نَظَـرْنا إلى لَفْظِ أَزْواجٍ فإنَّ الأَزْواجَ بِمَعْناهـا

الأَصْناف، والأَصْناف أَعَمُّ من الذُّكورَةِ والأُنوثَةِ، فإنَّه يَشْمَلُ الشَّقِيَّ والسَّعيدَ، والأَسْوَدَ والأَبْيَض، والطَّويلَ والقَصيرَ، وغير ذلك، لكِنَّ الذي جعل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْمِلُ الكَلَامَ على الذُّكورَةِ والأُنوثَةِ فقط قَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

فالله عَزَّوَجَلَّ بقُدْرَتِه وحِكْمَتِه جَعَلَ هذه الذرِّيَّة التي خرجت من هذا الرَّجُل الواحِد جعلها ذكورًا وإناثًا لبقاءِ النَّسْل؛ لأنَّه لا يُمْكِن بقاءُ النَّسْل إلا بهذا، وإن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرًا على أن يُبْقِيَ النَّسْل بدون هذا، فإنَّه يقال: إنَّ البَشَرِيَّة منها ما خُلِقَ بلا أمٍّ وأبٍ، ومنها ما خلق من أبٍ بلا أمٍّ، ومنها ما خُلِقَ من أمٍّ بلا أبٍ، ومنها ما خُلِقَ من أبوين؛ فالذي خُلِقَ بلا أمٍّ ولا أبٍ آدمُ، ومن أبٍ بلا أمٍّ حواءُ، ومن أمٍّ بلا أبٍ عيسى، وسائِرُ النَّاس بين أبوينِ من ذكرٍ وأنثى.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حالٌ؛ أي: مَعْلومةً له].

(ما) هذه شَرْطِيَّة، هنا ﴿مِنْ﴾ حرف جَرٍّ زائِدٌ ﴿أُنثَىٰ﴾ فاعِلُ ﴿تَحْمِلُ﴾ مرفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخره منع من ظهورها التَّعَذُّر، لكنه في الواقِع من حيث اللَّفْظُ مَجْرورٌ لفظًا.

قَوْله: [﴿أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حال؛ أي: معلومةً له] أيْ أُنْثَى تَحْمِل من بني آدم، أو مِنْه ومن غَيْره؟

الجواب: منه ومن غَيْره، ما تَحْمِلُ ولا تضع إلا بعلمه، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ ما تحمل كل أنثى في ابتداء الحَمْل وتَطَوُّر الحَمْل، ومآلِ الحملِ، وكل ما يَتَعَلَّقُ به؛ ولا تَضَعُ إلا بعلمه،

فأَوَّلُ ما ينشأ الحَمْل في الرَّحِم معلومٌ عند الله، وإذا وَضَعَت فهو معلومٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حال] يعني أنَّ الجارَّ والمَجْرور في مَوْضِعِ نصبٍ على الحال، فمَعْنى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ قال: إلا مَعْلومَةً له، ويُمْكِن أن نقول: لا حاجة إلى هذا التأويلِ، بل نقول: إنَّ الباءَ هنا للمُصاحَبَة والمقارَنَة؛ أي: لا يَحْصُل الحَمْل ولا الوَضْع إلا مقرونًا بعِلْم الله عَزَّوَجَلَّ.

ونضيف إلى ذلك أيضًا أنَّه بعلمه وإرادته، لكنْ سَنَأْخُذ -إن شاء الله- من الفوائِدِ هنا أنَّ فيها دليلًا على أنَّ من أَثْبَتَ العِلْمَ لزم أن يُثْبِتَ الإرادَةَ؛ ولهذا قال أَهْل السُّنَّة -الشافعي وغيـره- بالنِّسْبَة للقَدَرِيَّة: «ناظِرُوهُم بالعِلْم، فإن أنكروه كَفَروا، وإن أَقَرُّوا به خُصِمُوا»[(١)] إن قالوا: (الله لا يَعْلَمُ عن عباده) كفروا، وإن قالوا: يعلم خُصِمُوا؛ لأنَّه إذا عَلِمَ ذلك، فإما أن يَقَعَ الشَّيْءُ على خلاف مَعْلُومِهِ أو على وِفاقِهِ، فإن كان على وِفاقِهِ فبإرادَتِه، وإن كان على خِلافِهِ فقد أنكروا العِلْمَ؛ أي: إنَّهم بهذا يُنْكِرون العِلْمَ.

قَوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يُزادُ في عُمُرِ طَويلِ العُمُرِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: ذلك المُعَمَّر أو مُعَمَّر آخر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللَّوْحُ المَحفوظُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ].

﴿وَمَا﴾ هذه نافِيَةٌ أيضًا بدليل قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ ودليلٌ آخر؛ قَطْعُ الفِعْل عنها، قَوْله تعالى: ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ مَعْنى التَّعْميرِ: الزِّيادَةُ في العُمُر؛ أي: لا يُزادُ في عُمُرِ أحدٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا في كِتَاب.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٧).

فَقَوْله تعالى: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾: ﴿مِن﴾ هذه زائِدَةٌ داخِلَةٌ على نائب الفاعِلِ، فنقول في ﴿مُّعَمَّرٍ﴾: نائبُ فاعلٍ مرفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخِرِه منع من ظهورها اشْتِغالُ المَحَلِّ بِحَرَكَةِ حرف الجَرِّ الزَّائِدِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هنا يقول: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ذلك المُعَمَّر أو مُعَمَّر آخر] أمَّا كَوْنُ الضَّميرِ في قَوْله تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ يعود على مُعَمَّرٍ آخَرَ فهذا لا إشكال فيه؛ لأنَّه يكون مُعَمَّرًا فيكون الثاني ناقِصًا، لكنَّ الإشكال إذا قلنا: إنَّ الضَّميرَ يعود على المُعَمَّر نَفْسِه فكيف يكون معمَّرًا وهو في الوقت نَفْسِه منقوصٌ من عمره؟

الجواب: هذا مَحَلُّ إشكالٍ فيما يظهر؛ قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لِنَفْرِضْ أنَّه زَيْدٌ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إذا قلنا: الضَّميرُ يعود على ذلك المُعَمَّر صار يعود على (زَيْد) فيكون زيدٌ مُعَمَّرًا مَنْقُوصًا من عُمُرِه، إذا قلنا: إنَّه عائِدٌ على مُعَمَّرٍ آخر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عُمُرِ مُعَمَّرٍ آخَرَ، لا يلزم الأوَّلُ؛ صار النَّقْصُ يعود على شَخْصٍ آخر، فعِنْدنا زيدٌ مُعَمَّرٌ، وعَمْرٌو مَنْقُوصٌ من عُمُره، فهذا لا إشكال فيه.

لكنَّ الإِشْكالَ الأوَّلَ: اختلف المُفَسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تَوْجِيهِه؛ فقال بعضهم: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إنَّ النَّقْص هنا في مُقابِلِ الزِّيادَة؛ لأنَّ الإِنْسَان كلَّما تقدَّم يومًا في الدُّنْيا نَقَصَ عُمُره باعتبارِ آخِرِ عُمُره؛ مثلًا الذي له عَشْرُ سَنواتٍ فإذا صار له إحْدَى عَشْرَةَ، وقُدِّرَ أنَّه سيموت في عِشرينَ سَنَة، فهذا نَقْصٌ، لأنَّه كُلَّما زاد من وَجْهٍ نَقَصَ من وجهٍ آخر.

فالمَعْنى: أنَّه يُكْتَبُ نَقْصُه كما تُكْتَبُ زيادَتُه؛ فيُكْتَب مثلًا: (فلانٌ بَلَغَ من العُمُر

عَشْرَ سنين، ونَقَصَ من عُمُره؛ يعني: من آخِرِ عُمُره عشر سنين؛ بلغ إحدى عَشْرَةَ، ونَقَصَ من عمره إحدى عَشْرَة، فبقِيَ تِسْعٌ وهكذا، وإلى هذا ذهب بعضُ التَّابعينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ولكِنَّ آخرينَ من أَهْلِ العِلْم من المُفَسِّرينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالوا: إن هذا حينَ أَخْبَرَ به النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١) وبيَّنَ أنَّ الإِنْسَان يُنْقَصُ عُمُرُه ويُزادُ بحَسَب صِلَة الرَّحِم؛ مثلما يُنْقَص من عُمُره إذا لم يَصِلْ رَحِمَه، ويُزادُ في عُمُره إذا وَصَله.

والمَعْنى على هذا التَّفْسيرِ: أنَّ زيادَةَ العُمُر أو نَقْصَه مكتوبٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، فمن قُدِّر له أن عُمُرَه يطولُ بِصِلَة الرَّحِم فسوف يُقَدَّر له أن يَصِلَ رَحِمَه، ومن قُدِّرَ له أن يُنْقَصَ عُمُره بقطيعة الرَّحِم فسوف يكون قاطعًا لِرَحِمِه؛ لأنَّ المُسَبَّباتِ مَرْبوطةٌ بأَسْبابِها، معلومةٌ عند الله.

وهذا يُزيلُ عنا الإشكالَ الذي أُشْكِل، أورده بعضُ العُلَمـاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا الحديث، وحاولوا أن يُفَسِّروا زيادَةَ العُمُرِ بالبَرَكَةِ في عُمُرِ الإِنْسَان؛ بأنَّ الله إذا أنزل بَرَكَةً في العُمُر وإن كان قَصيرًا صار خَيْرًا من عُمُرٍ طويلٍ بلا بَرَكَةٍ، ولكن تقدَّم لنا أنَّ هذا لا يُخْرِجُهم من الإشكال؛ لأنَّ البَرَكَة أيضًا مكتوبةٌ، وكذلك مَحْقُها مكتوبٌ، فلا يُخْرِجُهم ذلك من الإشكال، لا يَخْرُجون من الإشكالِ إلا أن نقول: إنَّ عُمُرَ الإِنْسَانِ المُطَوَّل بسبب صِلَةِ الرَّحِم قد كُتب، وقد كُتِب أن يَصِلَ رَحِمَه، إِذَن ما الفائِدَة من قَوْل الرَّسُولِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ...؟».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: الفائِدَة من ذلك: الحَثُّ على صِلَةِ الرَّحِم، كما أنَّنا نقول: (من أَحَبَّ أنْ يَدخُلَ الجَنَّة فَلْيَعْمَلْ عملًا صَالِحًا) فلا يقول قائل: إذا كانت الجَنَّة مَكْتوبةً فكيف يَدْخُلُها ولم يَعْمَل؟ كيف إذا عَمِلَ كُتِبَتْ له الجنَّة؟

ونقول: هي مَكْتوبَةٌ من قَبْلِ أن يَعْمَل، لكِنْ قد كُتِبَتْ له الجَنَّة وكُتِبَ أن يَعْمَلَ لها عَمَلَها، وعلى هذا كُلُّ ما حصل من تَقْديراتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ هذا لا يَخْتَصُّ بالعُمُر، الإشكالُ وارِدٌ على الجميع، ولكنَّ الجواب عنه بسيط: وهو أن يقال: إن هذا مكتوبٌ نَتيجةً لهذا السَّبَب، وهو معلومٌ عند الله، أمَّا عندنا فليس بِمَعلومٍ.

إِذَن: يكون أَحْسَنُ ما يشار إليه في الآيَة أنَّ المُرادَ ﴿مِن عُمُرِهِۦ﴾ أَيُّ مُعَمَّرٍ، وأنَّ الإِنْسَان قد يُزادُ في عمره لسببٍ من الأَسْبَاب، وقد يُنْقَص من عمره لسببٍ آخر.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ﴾: ﴿كِتَـٰبٍ﴾ فِعالٍ بمَعْنى مفعولٍ؛ فِفراشٍ بمَعْنى مفروشٍ، وغِراسٍ بمَعْنى مَغْروسٍ، وبناءٍ بِمَعْنى مَبْنِيٍّ، فكِتَاب بمَعْنى مكتوب، فما هو هذا الكِتَاب؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو اللَّوْح المَحْفوظ] وهذا في السَّماءِ، وهو محفوظٌ من عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

محفوظ أن ينالَهُ أَحَدٌ؛ لأنَّه خاصٌّ بتَقْديرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

محفوظٌ من أن يُغَيَّر؛ أي: يُبَدَّلَ؛ ولهذا ما كُتِبَ في اللَّوْح المَحْفوظِ فإنَّه سيكون؛ كما قال الله تعالى للقَلَمِ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وكذلك أيضًا مَحْفوظٌ عن الخَلَلِ بحيث لا يَحتاجُ إكمالًا ولا ترتيبًا ولا يتخلَّفُ ما كُتِبَ فيه؛ يعني: لا يَقَعُ فيه السَّهْو، فهو تامٌّ من كلِّ وَجْهٍ.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إليه: كلُّ ما سبق، الزِّيادَةُ في العُمُر، والنَّقْص، والكِتَابة، كُلُّه يسيرٌ على الله؛ أي: هَيِّنٌ عليه، وإن كان عند المَخْلوقينَ صَعْبًا وعسيرًا، لَكِنَّه عند الله سهلٌ ويسيرٌ؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ إذا أرادَ شيئًا قال له: كُنْ فيكونُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بابْتِداءِ خَلْقِ بني آدَمَ؛ أنَّه خَلَقَه من تُرابٍ ثمَّ من نُطْفَةٍ... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله بحِكْمَتِه ورَحْمَتِه جعل بني آدَمَ أزواجًا ذَكَرًا وأنثى، وذلك لبقاءِ النَّسْل، وحُصُول المُتْعَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إحاطَةُ عِلْمِ الله بكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ القُدْرَةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأنَّ الخَلْقَ لا يكون إلا بَعْدَ عِلْمٍ وقُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأَعْمـارَ الطَّويلَةَ منها والقَصيرَةَ؛ كُلُّها مكتوبةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ في كِتَابٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ مَرْتَبَتَيْنِ من مراتِبِ القدَر، وهما: العِلْم، والكِتَابة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: سُهُولَةُ هذا الشَّيْءِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو الخَلْقُ والكِتَابَةُ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

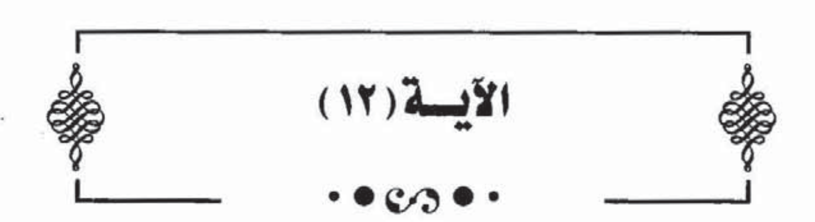
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: المَرْتَبَةُ الثَّالِثَة من مراتِبِ القَدَر وهي الخَلْق، إذن: هي ثلاثُ مراتِبَ: العِلْم، والكِتَابة، والخَلْق.

وأمَّا المَشيئَةُ فتُؤْخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا لا يكونُ إلا بِمَشيئَة اللهِ؛ فيكون في الآيَة إذن إثباتُ مراتِبِ القَدَرِ الأَرْبع: العِلْم، ثم الكِتَابة، ثم المَشيئَة، ثم الخَلْق، وقد جُمِعَت هذه المراتِبُ الأَرْبَعُ في بيتٍ وهو:

عِلْــمٌ كِتَابَــةُ مَوْلَانَــا مَشْــيئَتُهُ وَخَلْقُــهُ وَهْــوَ إِيجَــادٌ وَتَكْــوِينُ

فهذه مراتِبُ القَدَرِ الأَرْبَع.

• • ۞ • •



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر:١٢].

•●೧೧●•

﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿يَسْتَوِي﴾ بمَعْنى يتساوى ويتماثَلُ ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ وهذا مُجمَلٌ، والبَحْرُ هو الماء الكثير، فكلُّ ماءٍ كثيرٍ يُسَمَّى بَحْرًا، البحران هنا مُجْمَل، فَسَّره عَزَّوَجَلَّ بِقَوْله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ العَذْبُ هنا بمَعْنى الحُلْو المُسْتَساغُ شُرْبُه، وفُراتٌ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيره[شديدُ العُذوبَة].

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: شُرْبُه، سائغٌ؛ بمَعْنى: سَهْلٌ ومُيَسَّر؛ لأَنَّه حُلو عَذْب، وليس فيه ما يُكَدِّره من وساخَة أو حَرارةٍ زائِدَة أو بُرودةٍ زائِدَة، المُهِمُّ أَنَّه عَذْبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُهُ.

والثاني [﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديدُ المُلوحَةِ] مِلْحٌ شديدُ المُلوحَةِ، هل يستويان؟ لا، وهل هذا يُرادُ به الحَقيقَةُ أو هو مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى للمُؤْمِن والكافِرِ؟

قيل: إنَّه يُرادُ به الحَقيقَةُ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وقيل: إنَّ المُرادَ به مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى للمُؤْمِن والكافِرِ، فالمُؤْمِنُ بِمَنْزِلَة العَذْب الفُراتِ، والكافِرُ بِمَنْزِلَة المِلْحِ الأُجاج، ولكن لدينا قاعِدَةٌ في الكَلَام أَنَّه إذا دارَ

الأَمْرُ بين أن يكون حَقيقَةً أو غَيْرَ حَقيقَة وجب أن يُحْمَلَ على الحَقيقَة، فهو إذن حَقيقَةٌ، ويؤَيِّده أيضًا قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فإن مِثْل هذا الترشيح يدُلُّ على أنَّه حَقيقَة وليس بمجازٍ، على أنَّنا نقولُ: إنَّه لا مجازَ في القُرْآن ولا في غَيْرِهِ كما سبق، ولكنْ مع هذا لا بَأْسَ أن ينتقل مِن نَفْيِ التَّساوي بين هذين البَحْرينِ ونَفْيِ التَّساوي بين كُلِّ شَيْئَيْنِ مُتغايِرَيْنِ؛ يعني: لا مانِعَ من أن ينتقل لانتفاءِ التَّساوي بين هَذَيْنِ المَخْصوصَيْنِ إلى انتفاءِ التَّساوي بين الأُمُور المعْقُولَةِ المَعْنوِيَّة.

قَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْله تعالى: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ [﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السَّمَك] الطَّرِيُّ معناه الذي لم يَتَغَيَّر بِنَتَنٍ، وهذا من خصائِصِ السَّمَك؛ أنَّه وإن مات فإنَّه طَرِيٌّ كما قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦] قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «صَيْدُه ما أُخِذَ حيًّا وطعامُه ما أُخِذ ميِّتًا»[(١)].

ثانيًا: من فوائد هذينِ البَحْرينِ [﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من المِلْح، وقيل: منهما ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللُّؤْلؤُ والمَرْجان] كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]، وقد اختلف النَّاسُ: هل هذا لا يخرج إلا من المالِح أو يَخْرُج من المالِحِ والعَذْب؟

أكثر المُفَسِّرين على أنَّه لا يَخْرُج إلا من المالِح، وحملوا قَوْله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] على أنَّ المُرادَ من مَجْموعِهِما لا من جَميعِهِما.

فَهُما إذا قلنا: عندنا بَحْران؛ عَذْب ومالِح، يَخْرُج منهما اللُّؤْلُؤ والمرجان،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٤١٥)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٧٢٣، ٧٢٧)، والبيهقي (٩/ ٢٥٥).

[منهما] يعني من المَجْموعِ لا من الجَميعِ، ولكنَّ الصَّحِيح أنَّه يخرج من الجميعِ؛ لأنَّ هذا هو ظاهِرُ القُرْآن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم بما خَلَقَ، فإنَّه يَخْرُج منهما، وقد ثبت الآن أنَّ اللُّؤْلؤ والمَرْجان يخرج من هذا ومن هذا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقيل منهما].

وَقَوْله تعالى: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وذَكَرَ اللُّبْس؛ لأنَّه غايةُ ما يُنْتَفَعُ به من هذه الحِلْيَة، وإلا فَمِنَ المعلوم أنَّ من يَسْتَخْرِج هذه الحِلْيَة يتَّخِذها تجارَةً، وتجارةُ اللُّؤلؤ والمَرْجان فيما سبق وإلى الآن لا تزالُ تجارةً قَوِيَّة، لأنَّ الذي يشتريها من التجار يريد بها اللُّبْس، فإن أرادوا بها التَّكَسُّب يَلْبَسها كسْوَة للبَدَنِ في باطِنِه وكسوة للبدن في ظاهِرِه، كسوة البدن في باطنه أَكْلُ اللَّحم، فأكل اللَّحْم كسوة للبَدَنِ في باطِنِه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه:١١٨] ولم يَقُلْ: (ولا تبلى) بل قال: ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لأنَّ الجوع عُرْيُ الباطِنِ والعُرْيُ عُرْيُ الظَّاهِر؛ فمن ثم نقول: ذكَرَ اللهُ لِباسَيْنِ: اللِّباسَ الباطِنَ بأَكْلِ اللَّحْم، واللِّباسَ الظَّاهِرَ بهذه الحِلْيَة، فمن كُلٍّ تأكلون وتَسْتَخْرِجون.

قَوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَتَرَى﴾ تُبْصِرُ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفنَ ﴿فِيهِ﴾ في كُلٍّ منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾].

قَوْله: [﴿وَتَرَى﴾ أي: تُبْصِرُ] الخِطابُ لِكُلِّ من يَتَوَجَّه إليه الخِطابُ، والرُّؤْيَة هنا بَصَرِيَّة، فإنَّ من يُشاهِد البَواخِرَ في البحار يراها تَمْخُرُ الماء؛ أي: تَشُقُّه.

وَقَوْله: [﴿فِيهِ﴾ في كُلٍّ منهما] أجاب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن إشكالٍ واضح؛ لأنَّه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ ومُقْتَضَى السِّياقِ أن يكون التَّعْبيرُ هكذا (وترى الفُلْكَ فيهما) ولكنَّ الضَّميرَ هنا لا يعود على البَحْرَينِ، وإنَّما

يعود على (كُلٍّ) و(كُلٌّ) لَفظٌ مُفْرَدٌ، فعاد الضَّميرُ في هذه الآيَة على (كُلٍّ) باعتبار اللَّفْظ؛ لأَنَّه مُفْرَد، ومن هنا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في كلٍّ منهما] فزال الإِشْكالُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: [تَمْخُر الماء؛ أي: تَشُقه بَجَرْيِها فيه مُقْبِلَةً ومُدْبِرَة بريح واحِدَةٍ] وهذا من نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنْ سَخَّرَ الفُلْكَ لنا تجري على هذا الماء، وتَمْخُر عُبابَ الماءِ، حاملةً أَنْواعَ الأَرْزاقِ، وحامِلَةً البَشَر الكثيرَ؛ ولذلك الفُلْكُ الآن تُعْتَبَرُ بلدًا كامِلًا، وإذا دَخَلْتَها رأَيْتَها كالبَلَدِ، وهذا من نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فذَكَرَ هنا ثلاثَ فَوائِدَ:

الأولى: أَكْلُ اللَّحْم، والثانية: الحِلْيَة، والثالثة: البواخِر التي تَعْبُر أو تَشُقُّ الماء من ناحيةٍ إلى أخرى لتَنْقُلَ الأَرْزاقَ والآدَمِيِّينَ.

وتأَمَّلْ قَوْله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ و﴿تَأْكُلُونَ﴾ و﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ لأنَّ السَّمَكَ أَخْذُه هَيِّنٌ، لا يحتاج إلى كُلْفَة، فذكر الأَكْل مباشَرَةً، أمَّا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجان فيَحتاجُ إلى كُلْفَةٍ وإلى تَعَبٍ؛ لأَنَّه يَحتاجُ إلى غَوْصٍ وآلات وطُولِ نَفَس أو حَمْل أشياءَ تُعينُ على التَّنَفُّس؛ ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي تَطْلبون الحِلْيَة، وأَمَّا الفُلْكُ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ لأنَّ مُشاهَدَتَها بالعَيْنِ وهي تَشُقُّ الماء يرى الإِنْسَانُ فيها من أَعْظَمِ آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِتَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالى بالتِّجارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على ذلك].

يعني: سخَّر الفُلْك وجَعَلَها مواخِرَ في هذا البحر لأَمْرَيْنِ:

أولًا: لِتَبْتَغوا من فضله؛ أي: تَطْلُبوا الرِّزْقَ بما تَحْمِلُه هذه البواخِرُ؛ ولذلك الآن ما الذي يأتي إلينا مثلًا بالأَرْزاقِ من أمريكا ومِنَ اليابانِ ومن المناطِقِ الأخرى

البَعيدَةِ إلا بواسطَةِ هذه البواخِرِ التي تَحمِلُ الشَّيْء الكَثيرَ، هذا من فَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه قال: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

وثانيًا: قَوْله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فإنَّ (لَعَلَّ) هنا حتى نَسْتَعْرِضَ المعاني التي تأتي لها (لعل) فـ(لعل) تأتي للتَّرَجِّي، وتأتي للتَّوَقُّع، وتأتي للإشْفاقِ، وتأتي للتَّعْليلِ، فلأيِّ المعاني كانت في هذه الآيَةِ؟

الجواب: للتَّعْليلِ؛ لأنَّها لأَجْلِ أن تذكروا الله عَزَّوَجَلَّ، إذا رَأَيْتم هذه البواخِرَ تَمْخُر الماءَ وتأتي بالأَرْزاقِ من ناحيةٍ إلى ناحِيَةٍ، فإن هذا يَسْتَوْجِبُ أن تشكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه النِّعْمَةِ.

والشُّكْرُ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تَفْسيره: هو القِيامُ بطاعَةِ المُنْعِمِ؛ اعترافًا بالقَلْبِ، وتحدُّثًا باللِّسانِ، وطاعةً بالأَرْكانِ، فمَواضِعُه ثلاثة: القَلْب، واللِّسانُ، والجوارِحُ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

فهذا الشُّكْرُ يكون بهذه المواضِعِ الثَّلاثَةِ، والحَمْدُ يكون باللِّسانِ، فمُتَعَلَّقُ الشُّكْر أَعَمُّ وسَبَبُه أَخَصُّ، ومُتَعَلَّقُ الحَمْدِ أَخصُّ وسَبَبُه أَعَمُّ؛ لأنَّ الحَمْدَ يكون في مُقابَلَةِ النِّعْمَةِ، ويكون في مُقابَلَةِ كَمالِ المَحْمودِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الأَشْياءَ المُتَّفِقَة لا يُمْكِن أن تكون مُتَساوِيَةً؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

يَتفَرَّعُ من هذه الفائِدَة: أنَّه لا يُمْكِنُ التَّسْوِيَـة بين الرَّجُلِ والمَرْأَة في الحُقُوقِ ولا في غَيْرِهـا؛ لأنَّ تَكْوينَ خِلقَةِ المَرْأَة مُخْتَلِف عن تكوينِ خِلْقَة الرَّجُلِ؛ ولـهذا جعل الله للمَرْأَةِ أعمالًا تليقُ بها وللرَّجُلِ أَعمالًا تليقُ به.

فقد سألَتْ عائِشَةُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَلْ عَلَى النِّسَاءِ مِنْ جِهَادٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الحَجُّ وَالعُمْرَةُ»[1].

وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[2]، ونهى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن تَزْويجِ المَرْأَةِ نفسها[3]، وفي الميراثِ جَعَلَ للمَرْأَةِ نِصْفَ الرَّجُل إذا كان من جِنْسِها كالإِخْوَة والأَوْلادِ، وهل الأعمامُ كذلك؟

الجواب: لا؛ لأنَّ العَمَّةَ لا تَرِثُ، فلو هلك هالِكٌ عن عَمِّه وعَمَّتِهِ، فإنَّ العَمَّةَ لا تَرِثُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيْـثُ جعل من هـذا الماءِ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ المُتَباعِدَيْنِ هما بَحْرانِ من الماء؛ أَحَدُهُما: عذبٌ فراتٌ سائغٌ شَرابُه، والثاني: مِلْحٌ أُجاجٌ، فهما شَيْءٌ واحِدٌ، ومع ذلك يَخْتَلِفانِ هذا الاختلافَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الماءَ العَذْبَ يكون سائِغَ الشُّرْبِ، وعَكْسُه الماءُ المالِحُ.

ويتفَرَّعُ على ذلك: أنَّه لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَشْرَبَ ما لا يَسْتَسيغُه؛ لأنَّ ذلك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٦٥)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، رقم (٢٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، رقم (٤٤٢٥)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يؤثِّرُ عليه ويَضُرُّه، كما أنَّه لا مانِعَ من أن يتناولَ ما تَشْتَهِيه نَفْسُه وإن كان في بَعْضِ الحالات ضَرَرًا عليه.

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زادِ المعادِ)[1] أنَّ في طَلَبِ النَّفْسِ الشَّيْءَ أثرًا كبيرًا في انتفاءِ مَضَـرَّتِه، وضرب لذلك مَثَلًا كما أظُنُّ (المَيْتَة خَبيثَة مُضِرَّة) فإذا اضْطُرَّ الإِنْسَانُ إليها واشْتَدَّتْ حاجَتُه وضَـرُورَتُه صارَتِ النَّفْسُ تَقْبَلُها وتَسْتَسيغُها، ثم تَهْضِمُها فلا تَضُرُّها؛ لأن المَيْتَة لو كانت تَضُرُّ المُضْطَرَّ ضَرَرَ غيْرِ المُضْطَرِّ، لكان حِلُّها له يَتَضَمَّنُ قَتْلَ نَفْسِه؛ ولذلك لو اضْطُرَّ إلى أكلٍ وليس عِنْدَه إلا سُمٌّ لم يَحِلَّ له أن يأكُلَ السُّمَّ.

وضرب مثلًا لذلك أيضًا بقِصَّةِ صُهَيْبِ الرُّومِيِّ كان أَرْمَدَ؛ أي: تُؤْلِمُه عَيْنُه من رمدٍ كان بها، فَجِيءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ بتَمْرٍ، فأكَلَ منه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وذهب صُهَيْبٌ لِيأْكُلَ، فقال له النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّكَ أَرْمَدُ»، ومَعْروفٌ أنَّ الذي في عَيْنِهِ رَمَدٌ لا يأكُلُ التَّمْرَ، فقال: يا رَسولَ اللهِ أَمْضُغُهُ من الجانِبِ الآخَرِ، فمثلًا إذا كان في عَيْنِه اليُمْنَى فيها رَمَدٌ يَمْضُغُه من الجانِبِ الأَيْسَرِ، فضَحِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقال له: «كُلْ»[2] لأن نَفْسَه الآن كانت تَطْلُبه طلَبًا قويًّا، وهذا الطَّلَبُ يُزيلُ الضَّرَر.

فالمُهِمُّ أنَّ الشَّيْءَ الذي لا يُسْتَساغُ لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتَناوَلَه ويُكْرِه نَفْسَه عليه؛ ولهذا قيل: (كُلْ ما يَشْتَهي بَطْنُك، ولا تَأْكُلْ ما يَشْتَهي فمُك)، وهل هذا يَصِحُّ أو لا يَصِحُّ؟

الجواب: يَصِحُّ؛ لأن بعضَ النَّاسِ يَتَلَذَّذُ بنوعٍ من الطَّعامِ لكن باطِنُه لا يَقبَلُه،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٦١)، وابن ماجه: كتاب الطب، باب الحمية، رقم (٣٤٤٣).

تَجِدُه إذا أكَلَه يُقرقِر بَطْنُه، نقول: لا تَأْكُل هذا، ولو اشْتَهَيْتَ الأَكْلَ؛ لأنَّ هذا ضَرَرٌ عليك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِهِ بما يَسْتَفيدونَه من هذه البِحارِ من اللُّحومِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدون مَشَقَّة وبدون تَعَبٍ، ومع ذلك فإنَّ لُحُوم السَّمَك من أَحْسَنِ اللُّحومِ، وكذلك نِعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ لِما نَسْتَخْرِجه من هذه البِحارِ من الحِلْيَة التي نَلْبَسُها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ الفرق بين تَناوُلِ اللُّحومِ من هذه البحارِ وتناوُلِ الحُلِيِّ؛ لأنَّه قال في اللحوم: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ولم يَذْكُرِ العلاجَ الذي نتوصَّلُ به إلى هذا الأكل؛ لأنَّه سَهْلٌ هَيِّنٌ لا يُذْكَر، لكنْ في الحِلْيَة قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ لأنَّها تَحْتاجُ إلى مَشَقَّة ومُعاناة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بِحَمْل هذا الفُلْك الثَّقيلِ المَمْلوء بالبَضائِعِ على مَتْنِ الماء، ومع ذلك يَسْتَطيعُ أن يَدْفَعَ الماءَ ويَمْخُرُه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وإلا فإنَّ الماءَ ثَقيلٌ، وليس بالهَيِّنِ؛ ولهذا عندما يسبح الإِنْسَانُ في الماء يَحْتاجُ إلى قُوَّةٍ حتى يَدْفَعَ الماء، لكنَّ هذه السُّفُن تَمْخُر الماء، ويَظْهَرُ أَثَرُ هذه النِّعْمَةِ إذا تذكَّرَ الإِنْسَانُ السُّفُن القديمةَ التي تجري بالرِّياحِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ نِعْمَةِ الله علينا بِنَيْلِ ما نَطْلُبه من فَضْلِه بواسِطَةِ هذه البواخِرِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَفْعَلَ الأَسبابَ التي يَتَوَصَّلُ بها إلى المَقْصودِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمَّا أن يقول: (أَبْقى في بَيْتي ورِزْقي يَأْتيني)، ويقول: (إنَّه مُتَوَكِّلٌ على الله)، هل نوافِقُه على قَوْله؟

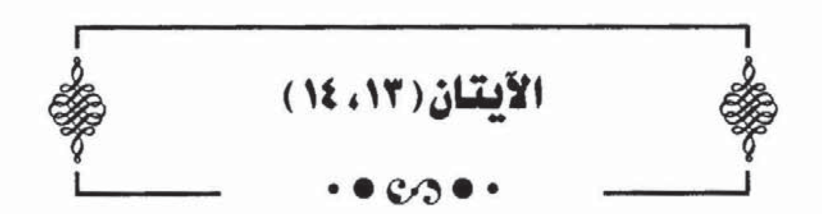
الجواب: لا، نقول له: لو كُنْتَ مُتَوَكِّلًا على الله لا تكونُ مُتَواكلًا، ففَرْقٌ بين التَّواكُل والتَّوكُّل، افْعَلِ الأَسبابَ، هذا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَيِّدُ المُتَوَكِّلينَ، ومع ذلك كان يَفْعَلُ الأَسْباب الجاذِبَة للخَيْرِ الدَّافِعَةَ للشَّرِّ.

إذن: ابتغوا فَضْلَ الله، وافْعَلوا السَّبَب؛ فإنَّ السَّماءَ لا تُمْطِرُ ذهبًا ولا فِضَّة، وإنَّما يأتي الرِّزْقُ بِطَلَبِ الإِنْسانِ، والأَمْرُ أَظْهَرُ من أن يَحْتاج إلى أمثلة، وإلا لَمَثَّلْنا بِمِثالٍ من أَقْرَبِ ما يكون.

فإن قال قائِلٌ: إذا كان اللهُ قد قَدَّرَ لي ولدًا فَسيأْتيني، ولم يَتَزَوَّجْ، نقول: هذا كَلَامُ رَجُلٍ مجنونٍ؛ إذ كيـف يُمْكِنُ أن يَأْتِيَك الوَلَدُ وأنت لم تَتَزَوَّجْ؟! ما علمنا أنَّ الأولادَ تَنْبُتُ من الصلائِبِ أبدًا، ولكن تأتي بفعل أَسْبَابِها كالزَّواجِ مثلًا، وهكذا أيضًا الرِّزْقُ يَحْتاجُ إلى طَلَبِه؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإنَّ الله جعل هذه النِّعَم وسَخَّرَها تَسْخيرًا لَنا لِنَقُومَ بِشُكْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تَقَدَّم أنَّ الشُّكْرَ مَوْضِعُه اللِّسانُ والقَلْبُ والجَوارِحُ.

••۞••



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

•●෴●•

ثم قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مُبيِّنًا تَمامَ قُدْرَته ونِعْمَته أيضًا، قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿يُولِجُ﴾ يُدْخِلُ الله ﴿ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيزيدُ ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُـدْخِلُه ﴿فِي ٱلَّيْلِ﴾ فيزيدُ] انتبه لكَلَام المُفسِّـر رَحِمَهُٱللَّهُ هل يوافق الظَّاهِرَ أو لا؟ قال: [﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيزيدُ] ما الذي يزيدُ؟

الجواب: لا شَكَّ أنَّ اللَّيلَ إذا دخل على النَّهارِ زاد اللَّيلُ، وإن كان يعود على أَقْرَبِ مذكور وهو ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ فيزيدُ، فهذا فيه نَظَـرٌ، لكن تَوْجيهُ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أنَّ شيئًا من اللَّيْل يكون جزءًا من النَّهار هذا تَوْجِيهُه، فإذا كان شَيْءٌ من

اللَّيْلِ جزءًا من النَّهَارِ معناه زادَ النَّهار؛ يعني: كأنَّه يقول مثلًا: (دَخَلَ اللَّيْلُ في النَّهار فصار نَهارًا) وحينئذٍ يزيدُ النَّهارُ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، لكن الظَّاهِر من الآيَة الكَريمَةِ أَنَّه يَدْخُل اللَّيْل في النَّهَار فيكون جزءٌ من النَّهَارِ ليلًا، الآن لو قُلْتَ: (أَدْخَلْتُ هذه السَّاقِيَة في هذه الأَرْضِ) الجُزْءُ الذي دخل من السَّاقِيَة جَعَلَ الأَرْضَ ساقِيةً.

إذن: (أدخلتُ اللَّيْلَ في النَّهارِ) جَعَلْتُ جزءًا من النَّهَارِ ليلًا، وحينئذٍ يكون اللَّيْلُ هو الذي يطول.

إيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهَارِ وإيلاجُ النَّهَارِ في اللَّيْلِ لا شَكَّ أَنَّه دالٌّ على كمال قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الخَلْقَ لو اجْتَمَعوا كُلُّهم على أن يُولِجوا جُزءًا يسيرًا من اللَّيْل في النَّهَارِ أو بالعَكْسِ ما اسْتَطاعوا أبدًا، ثم هذا الإيلاجُ أيضًا إيلاجٌ بِنِظامٍ؛ أي: إنَّه يأتي شَيْئًا فَشَيْئًا حتى تَتَكَيَّفَ طِباعُ البَشَرِ لهذا الإيلاجِ.

ما ظَنُّكُم لو أنَّ اللَّيْلَ جاء بِنِهايَتِهِ دَفْعَةً واحِدَةً؛ يعني مثلًا: اليوم صارَ اللَّيْلُ ثمانيَ ساعاتٍ وخَمْسًا وثلاثينَ دقيقةً، في اللَّيْلةِ القادِمَةِ صار اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ساعَةً وخَمْسَ دقائِقَ، ماذا تكون حالُ النَّاس؟

الجواب: تَضْطَرِبُ، لَكِنَّه عَزَّوَجَلَّ يُولِجُه شيئًا فشيئًا، هذا من جهة الاضْطِرابِ، ومن جهةٍ أخرى لو أَوْلَجَه هكذا دَفْعَةً، ومعلومٌ أنَّ سَبَبَ طُولِ النَّهارِ قُرْبُ الشَّمْسِ من مُسامَكة الرُّؤوسِ، وإذا قارَبَتِ الشَّمْسُ من مُسامَكة الرُّؤوسِ فلا بُدَّ أن تكون شديدةَ الحَرارَةِ؛ مَعْنى ذلك أن يكون هذا اليَوْمُ هذا في عِزِّ الشِّتاء، واليوم الذي يَلِيهِ في عِزِّ الصَّيْفِ، وهذا ضَرَرٌ عَظيمٌ، لَكِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُولِجُه شيئًا فشيئًا، وهذا من تَمامِ القُدْرَةِ والحِكْمَةِ والرَّحْمَة.

أيضًا إيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهَارِ وبالعَكْسِ له تأثيرٌ عظيمٌ على الجَوِّ؛ لأن الجَوَّ يَنْقَلِبُ

من باردٍ شديدٍ على طول الزَّمَنِ إلى حارٍّ شديدٍ على طول الزَّمَنِ أيضًا، مَعْلومٌ أنَّ هذه الحَرارَةَ الشَّديدةَ تَقْتُلُ من الجراثيمِ الضَّارَّة ما لا يَعْلَمُ به إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نَضْرِبُ مثلًا بسيطًا كُلُّنا نُشاهِدُه: البَعُوضُ إذا اشْتَدَّ الحَرُّ مات لم يَبْقَ له أَثَرٌ؛ ولهذا أَكْثَرُ ما يَكْثُر في الزَّمَن الذي بين الحَرِّ والبـرودة الشِّتاء، كذلك شِدَّة البُرودَةِ تَقْتُلُ الجراثيمَ التي تعيش على الحَرارَةِ، ولا يَعْلَمُ بها إلا الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثَمَّ قال العُلَمـاء رَحِمَهُمُاللَّهُ: إنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الأَرْضِ أَمْراضًا هم الذين على خَطِّ الاسْتِواء وما قارَبَه؛ إذ ليس عندهم شتاءٌ يَقْتُلُ أو صيفٌ حارٌّ يقتل أيضًا، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ أيضًا.

إذن: إِيلاجُ اللَّيْلِ في النَّهارِ فيه عِدَّةُ حِكَمٍ؛ ولهـذا بَيَّنَهُ عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ الشَّمْسُ مَعْروفَةٌ، والقَمَرُ مَعْروفٌ، سَخَرَهُما؛ أي: ذَلَّلَهُما لمصالِحِ العبادِ؛ فإنَّ في الشَّمْسِ والقَمَرِ من المصالِحِ العَظيمَةِ للعبادِ ما يَعْرِفُه أَهْلُ العِلْم رَحِمَهُمُاللَّهُ بهذا الشَّأْنِ، وهذه الشَّمْسُ والقَمَرُ ما بَيَّنَ الله لنا ثِقَلَهُما ولا حَجْمَهُما؛ لأنَّ ذلك ليس بالعِلْمِ النَّافِعِ الكثيرِ لنا، فالجَهْلُ به لا يَضُـرُّ، والعِلْمُ به من فُضُولِ العِلْمِ، إن لم يَشْغَلْكَ عمـا هو أَهَمُّ منه فاشْتَغِلْ به، إنَّمـا بين المَصالِحِ التي تَتَرَتَّب على تَسخيرِ الشَّمْسِ والقَمَرِ، فقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فبالشَّمْسِ يكونُ النَّهارُ واللَّيْلُ، ويكون أيضًا نُضْجُ الثِّمارِ، وتكون الأَنْوارُ العَظيمَةُ، ما رَأْيُكم مثلًا ماذا يتوفَّر للعالَمِ من الطَّاقَةِ بعد خُرُوجِ الشَّمْسِ؟

الجواب: كثيرٌ لا يُحْصى؛ لأنَّها تُوفِّرُ الكَهْرُباء، وتُوَفِّرُ أيضًا تَلْيِينَ الأَشْياء التي تحتاجُ إلى تَلْيِيـنٍ وحَرارَةٍ، ثم إنَّهم في الأَزْمِنَة الأَخيـرَة صاروا يُنْتِجُون مِن حرارَةِ الشَّمْسِ طاقَةً كَبيرَةً عَظيمَةً، أمَّا القَمَرُ فَسُخِّر لنا أيضًا بما يحصل من نُورِه في اللَّيْلِ،

وبها يَحْصُل منه من العِلْم بالحِساب وعَدَدِ السنينَ، وما إلى ذلك.

وإن شئتم مزيدًا من هذا فراجِعوا كِتَاب (مِفتاح دارِ السَّعادَةِ)[1] لابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث ذكر من فوائِدِ الشَّمْسِ والقَمَرِ أَشْياءَ عَظيمَةً كبيرةً، وذكر غَيْرُهُ أيضًا ذلك، لكنْ يَجِدُ الإِنْسانُ الفَرْقَ بين بَحْثِ ابْنِ القَيِّم مثلًا وبَحْثِ عُلَماءِ الطَّبيعَة؛ لأن عُلَماءَ الطَّبيعَةِ يَنْظُرونَ إلى هذه الأشياء من زاوِيَة مُظْلِمَة حالِكَة مادِّيَّةٍ مَحْضَةٍ لا يتربَّى فيها الإِنْسَان تربيةً دِينيَّة ولا يَعْرِفُ بها قُدْرَةَ الله ونِعْمَتَه، لكن إذا تكَلَّمَ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك يَعْقِل أنَّ هذا دائمًا برَحْمَةِ الله وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه، فيجد الإِنْسَانُ مع عِلْمِه بهذا الفَنِّ والعُلُوم، يَجِدُ مع ذلك خشيةً لله عَزَّوَجَلَّ، وتَعْظيمًا له، ومَحَبَّةً له.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في فَلَكِه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يومِ القيامَةِ] كلٌّ؛ أي: كُلٌّ من الشَّمْسِ والقَمَرِ يجري؛ يعني: يسير في فَلَكِه لأَجَلٍ مسمًّى، الفَلَكُ شَبَّهه ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بِفَلَكَةِ المِغْزَل[2]، وفَلَكَةُ المِغْزَل عِبارَة عن قُرصٍ في أعلاه، وفي أَسْفَلِه عودٌ يَنْطوي عليه الحَبْل الذي يَغْزَل، هذه تدورُ؛ لأنَّ المرأة التي تَغْزِل تَبْرمه هكذا حتى يدورَ ويَحْكُم الحبل، فالفَلَك هذا؛ للشَّمْس فلكٌ تدور به، وللقَمَرِ فَلَكٌ يدور به.

وفي إسناد الجَرَيانِ إلى كلٍّ منهما دليلٌ على أنَّهما يَسيرانِ بِذاتِهِما، ويدوران على الأَرْضِ، وهذا شَيْءٌ مُشاهَد أنَّ الشَّمْسَ تدور على الأَرْض وكذلك القَمَرُ، وما ادَّعاه عُلَماءُ الهَيْئَة من أنَّ الأَرْضَ هي التي تدور، والشَّمْسُ لا تدورُ نحو الأَرْض فإنَّنا نُكَذِّبه حتى يقومَ لنا دليلٌ حِسِّيٌّ يكون لنا حُجَّةً أمام الله عَزَّوَجَلَّ في الخُروجِ عن ظاهِرِ كَلَامه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٧-٢١١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٤٤٠-٤٤١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٥).

وإلَّا فالواجب علينا نحو هذه الأُمُور ألَّا نَخْرُجَ عن ظاهِرِ كَلَام الله؛ لأنَّ الله تعالى هو الخالِقُ، والخالِقُ أَعْلَمُ بما خلق من غَيْرِه، وهذا مسلَّم، ولأنَّ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ أَوْضَحُ الكَلَامِ وأَبْيَنُه، فلا يُمْكِن أن يكون فيه شَيْءٌ من التَّعْقيدِ لا اللَّفْظِيِّ ولا المَعْنَوِيِّ، فهو واضحٌ في معناه وظاهِرٌ؛ ولأنَّ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ أَصْدَقُ الكَلَام، فلا يُمْكِنُ أن يُخْبِرَنا الله عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ لم يَكُن، أو بأمرٍ يكونُ الواقِعُ على خلافه؛ ولأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَحَبُّ أَحَدٍ يكونُ البيانُ إليه؛ يعني أَنَّه يُحِبُّ البيانَ لعباده أكْثَرَ من أي أَحَد، واقرأ قَوْله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦]، وما أَشْبَهَها من الآيات الدالَّةِ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يريدُ أن يُبَيِّنَ لعِبادِهِ ما يَهْتَدون به، فإذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أَحَبُّ من تَكَلَّم بالبيان، أو هو أَحَبُّ مَن يكون البيانُ إليه أَحَبَّ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله تعالى لا يُمْكِن أن يقول في كَلَامِهِ ما ليس فيه بيانٌ لنا.

إذن: فنحن نُكَذِّبُهم ونقول: كَذَبْتُم أن يكون تعاقُبُ اللَّيْلِ والنَّهَار من أجل دَوَرانِ الأَرْضِ، بل تَعَاقُب اللَّيْل والنَّهَار من أجل دَوَرانِ الشَّمْسِ على الأَرْض، ولا غَرَابَةَ بذلك، هم يقولون: كيف أنَّ الكَبيرَ يَدورُ على الصَّغيرِ، نقول: ليس هناك مانِعٌ، نحن معكم أنَّ الشَّمْسَ أَكْبَرُ من الأَرْض، لكن ما المانِعُ من أن يكون الجِرْمُ الكَبيرُ هو الذي يدورُ على الصغير؟!

ونحن إذا نَظَرْنا إلى القُرْآنِ وَجَدْنا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُضيفُ هذه الحَرَكَة إلى الشَّمْسِ نَفْسِها، وكذلك إذا نَظَرْنا إلى السُّنَّة، ففي القُرْآن يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، وفي القُرْآن يقول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] أي: الشَّمْسُ، وفي القُرْآن يقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ مثل قَوْله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذه خمسة مواضِعَ كُلُّها تدُلُّ على أنَّ هذه الأفعال تَقَعُ من الشَّمْس.

لو كان هذا يأتي بِدَوَرانِ الأَرْضِ لقال: (وترى الشَّمْسَ إذا طَلَعوا عليها)؛ لأنَّه إذا دارَتِ الأَرْضُ، فنحن الذين نَطْلُع على الشَّمْس، وليست الشَّمْس هي التي تَطْلُع علينا.

وأمَّا قَوْلهم: إنَّ هذا خِطابٌ إلى النَّاس بما يُشاهِدونَه بِأَعْيُنِهم والأمر على خلافه، يعني: إذا طَلَعَتْ حَسَبَ رُؤْيَةِ العَيْنِ، وفي الواقِع أنَّنا نحن الذين نَطْلُع عليها فبماذا نُجيبُهُم؟

نقول: هذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفْظِ، ولا يُمْكِن أن نَحيدَ عن هذا الظَّاهِرِ إلا بِدَليلٍ مَحْسوسٍ يُمْكِننا أن نَحْتَجَّ به أمامَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله سَيُحاسِبُنا يقول: لماذا عَدَلْتُم عن كَلَامي إلى كَلَامِ غَيْري؟ والخطابُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧] تَزاوَرُ؛ أي: تَميلُ، ولو كان ذلك بدورانِ الأَرْضِ لكانت الأَرْضُ هي التي تميلُ ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ لو كان هذا بِدَوَرانِ الأَرْض لكانَتِ الأَرْض هي التي تَغْرُب عن الشَّمْس.

أمَّا في السُّنَّة فقد قال النَّبِيُّ ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غَرَبَتِ الشَّمْس: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»(١)، فأَسْنَدَ الذَّهابَ إليها عندما غَرَبَتْ، ولو كانت الأَرْضُ هي التي دارت حتى اخْتَفَتِ الشَّمْسُ لكان يقول: أتدري أين تَذْهَبُ الأَرْض مثلًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

والحاصِلُ: أنَّه يَجِبُ علينا وجوبًا أن نأخُذَ بظاهِر القُرْآن وأنَّ الشَّمْسَ هي التي تدورُ على الأَرْض وأنَّه بِدَوَرانِها يَحْصُل اختلافُ اللَّيْل والنَّهارِ، هذا الواجِبُ، ولا يجوز أن نَحيدَ عن هذا أبدًا إلا إذا قام الدَّليلُ الحِسِّيُّ على خلاف ذلك؛ فإنَّه حينئذٍ يتَعَيَّنُ التَّأويلُ وصَرْفُ الكَلَامِ عن ظاهِره؛ لأنَّنا نَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ القُرْآن لا يُخالِفُ الواقِع، أمَّا شَيْءٌ يقولونه بأوهامِهِم ويُقَدِّرونَه، فإننا لا نُوافِقُهم على ذلك، ولا يَسَعُ المُؤْمِنَ أن يَحيدَ عن ظاهِرِ كَلَام الله لمُجَرَّدِ قَوْلهم أَبَدًا.

أمَّا مَسْأَلَةُ الأَرْضِ هل تدور أو لا تدور؟

فنحن نقول: لا نُصَدِّقُ ولا نُكَذِّبُ؛ فيُمْكِن أن يكون لها دَوْرَة، ومع ذلك للشَّمْس دَوْرَة، هم يقولون: إذا أَقْرَرْتُم بِدَوَرانِ الأَرْضِ لَزِمَكُم أن تقولوا: إنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ، فنقول ليس ذلك بلازِمٍ، يُمْكِن أن يكونَ للشَّمْسِ دَوْرَةٌ، وللأَرْض دَوْرَةٌ أخرى، ولا مانِعَ من ذلك، ولكن مع هذا نقول: إنَّ الكَلَام في دَورانِ الأَرْضِ من فُضُولِ العِلْمِ الذي لا يَنْبَغي للإِنْسَان أن يُضَيِّعَ وَقْتَه به إلا رَجُلًا يَحتاجُ إلى معرفة ذلك؛ كما يُذْكَر أنَّهم يَحْتاجون إليه في الصَّواريخِ المُوَجَّهَة وما أشبه ذلك مِمَّا هو مَعْروفٌ عندَ أَهْلِه، فحينئذٍ إذا احتاج إليه فلا حَرَجَ أن يَبْحَث فيه.

أمَّا إذا لم يَحْتَجْ إليه فنقول: هذا من ضَياعِ الوَقْتِ، وما الفائِدَةُ أن تَعْلَم أنَّها تدور؟ أو لا تدورُ، الحَمْدِ الله أنْ جَعَلَها قَرارًا سواءٌ كانت تدورُ أو لا تدور.

قَوْله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُحتَمَل أن تكون لامَ العاقِبَة؛ أي: كلٌّ يَجْري حتى يَنْتَهِيَ إلى هذا الأَجَلِ، ويُحْتَمَل أن تكون اللَّام بمَعْنى (إلى) كما جاءت به في موضعٍ آخر: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وعلى كُلِّ حالٍ: فهي تدلُّ على أنَّ لهذا الجَرَيانِ غايَتَيْنِ، وهو كذلك، هذه الغايَةُ

فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [يَوْمِ القِيامَة]، وَقَوْله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: مُعَيَّنٍ عندَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مَعْلومٌ عنده وليس معلومًا عندنا.

إذَن: فهذه الشَّمْسُ وهذا القَمَر ليسا أَبَدِيَّيْنِ، لَكِنَّهما دائبانِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣] أي: مُسْتَمِرَّيْنِ، لكن لهما أَجَلٌ.

قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ هل الإشارَةُ تَعودُ إلى ما ذُكِرَ من التَّسْخير والجَرَيان، أو تعود إلى الفاعِلِ في قَوْله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ﴾؟

الجواب: الثاني، إذن ذلكم المُسَخِّرُ اللهُ، فالمُشارُ إليه الآن مُفْرَدٌ مذكَّر، والمخاطَبُ جماعَةُ ذُكورٍ، لكن: ماذا يُراعَى في اسْمِ الإشارَةِ وكاف الخطابِ؟ هل يُراعَى المخاطَبُ أو المُشارُ إليه؟

نقول: أمَّا اسْمُ الإشارَةِ فيُراعَى فيها المشارُ إليه، وأمَّا الكافُ فيراعى فيها المخاطَبُ، فإذا أَشَرْتَ إلى رَجُلَيْنِ مُخاطِبًا جماعَةَ إناثٍ فإنَّك تقول: (ذانكُنَّ)، فـ(ذان) تخاطِبُ ذَكَرينِ، و(كُنَّ) تُخاطِبُ جماعَةَ إناثٍ، وفي القُرْآن قالَتْ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] لكن هنا في الآيَة: المشارُ إليه مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ، وإذا خاطَبْتَ جماعَةَ ذُكورٍ مُشيرًا إلى جماعَةِ إناثٍ فإنَّك تقول: (تِلْكُم) أو (أولئكم).

وهلِ الأَفْصَحُ في المخاطَبِ أن يكون الضَّميرُ على حَسَبِ المخاطَبِ؛ يعني: جَماعَة ذُكورٍ إذا كان المُخاطَبُ جَماعَةَ ذُكُور، وجَماعَة إناثٍ إذا كان المخاطَبُ جماعَةَ إناثٍ، مُثَنًّى إذا كان المخاطَبُ مُثَنًّى، مُفْرَدٌ مفتوح إذا كان المخاطَبُ مُذَكَّرًا، مُفْرَدٌ مَكْسورٌ إذا كان المخاطَبُ مُؤَنثًا، أو الأَفْصَحُ أن يكون بِلَفْظِ الإفرادِ دائمًا؟

نقول: فيه ثلاثُ لُغاتٍ:

أولًا: أن يكون باعتبارِ المُخاطَبِ مُطْلَقًا.

ثانيًا: أن يكون بالفَتْحِ دائمًا.

ثالثًا: أن يكون بالفَتْحِ لمفردٍ في المذَكَّر وبالكَسْرِ لِمُفْرَدٍ في المؤَنَّثِ مُطْلَقًا.

فهذه ثلاثُ لغاتٍ:

اللُّغَة الأولى: وهي المَشْهورَة الفُصْحى؛ أن تكون الكاف بحَسَبِ المخاطَبِ مُطْلَقا، تُخاطِبُ مُفْردًا مُذَكَّرًا تقول: (ذلكَ)، مُفْرَدة مُؤَنَّثَة: (ذلكِ) مثنى (ذلكما) جماعة ذكور: (ذَلِكُم جَماعَة)، إناث: (ذلكُنَّ) هذا الأَفْصَحُ.

ثانيًا: أن تَجْعَلَه مُفْرَدًا مفتوحًا في المذَكَّر مُطْلَقًا فتقول: (ذلكَ) سواء كنْتَ تخاطِبُ مُفْردًا أو مثنًّى أو جمعًا لكنْ بِشَرْطِ أن يكون مُذَكَّرًا، وتقول في المؤنث: (ذلكِ) سواءٌ كُنْتَ تُخاطِبُ واحِدَةً أو مُثنًّى أو جماعَةً.

ثالثًا: أن تَجْعَلَه مفتوحًا بصيغةِ المُذَكَّر دائمًا أيًّا خاطَبْتَ، فتقول: (ذلكَ) سواءٌ كُنْتَ تُخاطِبُ رجلًا، أو امْرَأَةً، جماعَةً، أو مُثَنًّى، أو مُفْردًا.

هنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشارُ إليه مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ، والمخاطَبُ جماعَةٌ؛ لأنَّ الله يُخاطِبُ النَّاسَ جميعًا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الرَّبُّ يُطْلَقُ على معانٍ كثيرة في اللُّغَة العَرَبِيَّة:

منها: الخالق، المالِك، المُدبِّر.

فالرُّبوبِيَّة معناها أنَّ الله تعالى خالقٌ مالِكٌ مُدبِّر؛ ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾

فهذه جُمْلَةٌ خَبَرِيَّة قُدِّمَ فيها الخَبَر للدَّلالَة على الحَصْرِ؛ يعني: له وَحْدَه المُلْكُ دون غَيْره، المُلْك المُطْلَقُ الشَّامِلِ لله وَحْدَه، مِلْك الذَّواتِ والأَعْيان، ومِلْك التَّصَرُّفِ في هذه الأَعيانِ، فهو المالِكُ لِكُلِّ مَخلوقٍ، وهو المُتَصَرِّفُ في كلِّ مَخْلوقٍ.

فإذا قُلْتَ: كيف يَصِحُّ الحَصْرُ مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَثْبَتَ المُلْكَ لِغَيْره فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [المُؤمنون:٦] وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النُّور:٦١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النُّور:٣٣]، فأَثْبَتَ المُلْك لغيره وأنت تقول: إن هذه الجُمْلَة فيها حَصْرٌ؟

فالجواب من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّ مِلْكَنا ليس مِلْكًا مُطْلَقًا، بل هو مِلْكٌ مُقَيَّدٌ بحَسَب الشَّريعَة، فأنا مثلًا مالِكٌ لهذه الحَقيبَة، لكِنْ لا أَمْلِكُ أن أُتْلِفَها؛ لأَنَّه حرامٌ عليَّ أن أُتْلِفَها، مالِكٌ لهذا البَعيرِ مثلًا، لكِنْ هل أَمْلِكُ أن أُعَذِّبَه؟ هل أَمْلِكُ أن أَجْرَحَه؟

الجوابُ: لا، لا أَمْلِكُ هذا إلا بإذْنٍ مِنَ الشَّرْعِ؛ ولهذا لَمَّا أَذِنَ الشَّرْعُ بِوَسْمِ البَعيرِ مع أَنَّه مُؤْذٍ لها ومُؤْلِم جاز، ولَمَّا أَذِنَ بإِشْعارِ الإِبِلِ والبَقَرِ في الهَدْيِ جازَ.

والإِشْعارُ هو أن يُشَقَّ السَّنامُ بالسِّكينِ في الهَدْيِ حتَّى يَسيلَ الدَّمُ على الشَّعْر والجِلْد، والفائِدَةُ من هذا ليُعْرَفَ أنَّ هذه هَدْيٌ؛ ولهذا نَحْنُ نُشْعِرُ الإِبِلَ والبَقَرَ، ونُقَلِّدُ الإِبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ، فالغَنَمُ ليس فيها إشعارٌ، بل فيها تَقْليدٌ فقط، والتَّقْليدُ أَنَّنا نَضَعُ عليها قِلادَةً في العُنُق، نُعَلِّقُ فيها النِّعالَ القديمة المُتَقَطِّعَة، وآذانَ القِرَبِ (واحِدها قِرْبَة) يعني: قِطَع القِرَب لتُعَلَّقَ بها، نُعَلِّقُه على هذا البَعيرِ أو البَقَرَة أو الشَّاة ليُعْرَفَ أنَّها هَدْيٌ؛ لأنَّ النِّعالَ المُتَقَطِّعة وقِطَع القِرَبِ تَدُلُّ على الرَّثاثَةِ والفَقْر، إشارَةً إلى أنَّ هذه للفُقَراءِ، والقَصْدُ أنَّ مِلْكنا للشَّيْءِ مُقَيَّد.

ثانيًا: أَنَّه مِلكٌ قاصِرٌ؛ يعني: ليس شامِلًا، فأنا مثلًا أَمْلِك هذه الحَقيبَة، لكن أنت لا تَمْلِكُها، وأنت تَمْلِك هـذا الكِتَابَ، وأنا لا أَمْلِكُه، إذن فهو مِلْـكٌ قاصِـرٌ لا يتعدَّى، أمَّا مِلْك الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه مِلْكٌ مُطْلَقٌ يَتصَرَّف في مُلْكه كمـا يشاءُ، وهو ملكٌ عامٌ شامِلٌ، والله عَزَّوَجَلَّ يُنْزِل الأَمْراضَ ويُنْزِلُ الجُروحَ في مَخْلوقاتِهِ، وقد يبتلي اللهُ الإِنْسَانَ فتَظْهَرُ فيه جُرُوحٌ تُؤْلِمُه، وتُزْعِجُه وتُظْهِر الأَلَمَ في أَعْصابِهِ وفي عِظامِهِ، لو أنَّ أَحَدًا من المَخْلوقينَ أراد أن يَفْعَلَ ذلك لكان ممْنوعًا ولا يجوز، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له أن يَفْعَلَ ما شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

إذن: الله هو الـرَّبُّ، وهو الذي له المُلْك، وهذا المُلْك أيضًا شامِـلٌ للأَعْيانِ والذَّواتِ، وشامِلٌ للتَّصَـرُّف فيها، ومنه التَّصَـرُّفُ في الحُكْمِ، فالأَحْكامُ الشَّـرْعِيَّةُ لا تُتَلَقَّى إلا مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَجِبُ أن نُؤْمِنَ ونُطَبِّقَ جَميعَ أحكامِ الله سواءٌ كان ذلك في العباداتِ أو في المُعامَلاتِ أو الأَحْوالِ، يَجِبُ أن نُطَبِّقَ الجميعَ.

فإن قال أَحَدٌ من النَّاس: العبادَةُ حَقُّ الله، فهي بيني وبَيْنَه ولا أَتَجاوَزُ ما شَرَعَ، والمعامَلَةُ حَقُّ الإِنْسَانِ، له أن يتجاوَزَ الشَّرْعَ فيها، فأنا لي أن أَعْدِلَ عن شَريعَةِ الله إلى حُكْمِ الطَّوَاغيتِ؟ فمثلًا العبادَةُ حَقُّ الله الخاصُّ، لا يجوز لي أن أَتَصَرَّف فيها، أمَّا البَيْعُ والشِّراءُ فَلِمَصْلَحَتي أنا، فأَيُّ نَوْعٍ من البَيْعِ والشِّراء يَتَّفِق مع المَصْلَحَة والكَسْب فلي أن أَفْعَلَه، سواء كان ربًا أو غِشًّا أو مَكْرًا... إلخ، فهل يجوز ذلك أو لا يجوزُ؟! فهو يقول: المَسْجِدُ لله، والوَطَنُ للشَّعْب أو للجَميعِ.

فالجواب: أن نقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ليس لأَحَدٍ مُلْكٌ، المُلْكُ لله عَزَّوَجَلَّ يَتصَرَّف في هذا المُلْك كما يشاء حِلًّا وحُرْمَة وإيجابًا، ولا أَحَد يتدَخَّل في ذلك، والذي يقول هذا ويَعْمَل بالشَّرْعِ في العِباداتِ ويُنْكِرُ الشَّرْعَ في المعاملاتِ

نقول: إنَّه كافِرٌ مُرْتَدٌّ عن الإِسْلامِ.

ولا يجوز إقرارُهُ على هذا الشَّيْءِ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فالإيمانُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دون بعضٍ كالإيمانِ بِبَعْضِ الشَّريعَةِ دون بعْضٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ تَجْزِئَة في الرُّسُلِ، وهذا تَجْزِئَة في المُرْسَل به ولا فَرْقَ؛ فالذي يُؤْمِنُ بِبعْضِ الكِتَابِ ويَكْفُرُ بِبَعْضِه هو في الحَقيقة كافرٌ بالجميعِ؛ لأنَّنا نقول: لو سَلَّمْتَ أنَّه من الله وأنَّه شَرْعُه ما كَفَرْتَ به، فإذا كَفَرْتَ به فهو كفرٌ بالجميعِ، وشَرْعُ الله تعالى لا يَتبَعَّضُ.

ومِن هنا نأخذ خُطورةَ الأمرِ في كثيرٍ من بلدان المُسْلِمين الذين يُحَكِّمون فيما بينهم غيرَ شريعَةِ الله، ويَرونَ أنَّ هذه القوانينَ الوَضْعِيَّة الطَّاغوتِيَّةَ أَفْضَلُ من شَرْعِ الله، وأَقْوَمُ لعبادِ الله وأَقْوَمُ لمصَالِح عباد الله ممَّا شَرَعَه الله، نَسْأَلُ الله العافية.

وهذا بلا شَكٍّ نَقْصٌ في عُقُولِهم، وذَهَابٌ لأَدْيانِهم، كيف يكون هذا الوَضْعُ الطَّاغوتِيُّ المُحْدَثُ المَبْنِيُّ على العَقْل القاصِر أَفْضَلَ وأَنْفَعَ للعبادِ مِن شَرْعِ الله عَزَّوَجَلَّ الذي شَرَعَه لعبادِهِ وهو أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهم وأَحْكَمُ بما يُرْشِدُهُم؟!

أيُّ إِنْسَانٍ عنده عَقْلٌ -فَضْلًا أن يكون عنده إيمـانٌ- لا يُمْكِنُ أبدًا أن يدورَ في فِكْرِه أنَّ هذه الأَحْكَامَ الوَضْعِيَّة المُخالِفَة لشَـرْع الله خيرٌ لِعبادِ الله مِن شَرْع الله إلا مُخَبَّلًا ومجْنونًا، والعياذ بالله، وما ذلك بِغَريبٍ على بني آدَمَ؛ فالذين كانوا يَعْبُدون الأَحْجارَ في الجاهِلِيَّة مثل هؤلاء في السَّفَه، هؤلاء أيضًا عَبَدوا آراءَ غَيْرِهم وقَدَّمُوها على شَريعَةِ الله.

والقَوْلُ بأن (الدِّين لله والوَطَن للخَلْقِ) هذا خَطَأٌ فادِحٌ، بل يقال: (الدِّينُ لله والبلادُ لله)؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٨] وليست لك، الأَرْضُ لله، والشَّعْب لله، والدِّينُ لله، وكلُّ شَيْء فهو لله، وإذا كان لله فالواجِبُ علينا أن نَسيرَ على هَدْيِ الله.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الواو إمَّا اسْتِئْنافِيَّة وإمَّا عاطِفَة من بابِ عَطْفِ الجُمَل بَعْضِها على بَعْضٍ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدأٌ، وجُمْلَة ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خَبَرُها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي غَيْره وهم الأَصْنَامُ].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْبدون] لأنَّ الدُّعاءَ عبادَةٌ، والعابِدُ لله عَزَّوَجَلَّ قد تتضَمَّن عبادَتُه الدُّعاءَ كالصَّلاة مثلًا؛ فيها دُعَاءٌ وهو عبادَةٌ، وقد تكون دُعَاءً بلسانِ الحالِ؛ لأنَّ العابِدَ يريد الفَوْزَ بالجَنَّةِ والنَّجاةَ من النَّار، فهو وإن لم يَقُل: الفَوْز بالجَنَّة والنَّجاة من النَّار فهو لا يُريد إلا ذلك؛ إذن فهذا بلسانِ الحالِ.

ولهذا نقول: إنَّ الدُّعـاء عِبـادَةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠] بعد قَوْله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فدلَّ هذا على أنَّ الدُّعاء عِبَادَة، وهنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعْبدون] إمَّا عِبادَة بالفِعْل؛ كالرُّكوع للصَّنَم، والسُّجُود للصَّنْم، والذَّبح له، والنَّذر له، وما أشبه ذلك، أو يدعونه دُعَاءَ مَسْأَلَة لا دُعَاءَ عِبَادَة، فيأْتونَ إلى الصَّنَم وإلى القَبْر، ويسألونه حاجاتِهم، ويَسْتَغيثونَ به، فشَمِلَ

قَوْله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾ دُعَاءَ المَسْأَلَة، ودُعاءَ العِبَادَة، وقلْتُ: إنَّ دُعاءَ العِبَادَة دُعاءُ مَسْأَلَة لكن بِلِسانِ الحالِ.

كيف يَدْعون هؤلاء؟ أقول: يَدْعون هذه الأَصْنام على وَجْهَيْنِ:

إمَّا بدُعاءِ مَسْأَلَة، وإمَّا بدُعاءِ عِبَادَة، ودُعَاءُ العِبَادَة دُعَاءٌ بلسانِ الحالِ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غَيْره، وهم الأَصْنام] الأَصْنام تارةً يُعَبِّر الله عنها بِصيغَةِ المُؤَنَّث، وتارة يُعَبِّر عنها بِصيغَةِ المُذَكَّر، هنا عَبَّر عنها بصيغة المُذَكَّرِ العاقِلِ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ هذا للمُذَكَّرِ العاقِلِ، وإنَّما وَصَفَ هذه مع أنَّها جمادٌ مَيِّتَةٌ للتَّنَزُّل مع هـؤلاء العابدينَ لها وذِكْرها على أكْمَلِ حالٍ يَعْتَقدونَها فيها؛ يعني: هي مع كمالِها على زَعْمِكُم لِكَوْنِها من ذوات العَقْلِ لا تَمْلِك شيئًا.

قَوْله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: ﴿مِن﴾ زائِدَة؛ ولهذا نقول: ﴿قِطْمِيرٍ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ بِفَتْحَة مُقَدَّرَة على آخره منع من ظهورها اشتغالُ المَحَلِّ بِحَرَكَة حرف الجَرِّ الزَّائِد؛ أي: ما يَمْلِكونَ قِطْميرًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قِطْمِيرٍ﴾: لِفافَةَ النَّواة] إنَّ في النواة ثلاثَةَ أَشْياءَ يُضْرَبُ بها المَثَلُ في الحَقَارة: قِطْمير، ونَقِير، وفَتِيل.

ويَدُلُّ على هـذا أنَّهم لا يَمْلِكون شيـئًا قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾: ﴿إِن﴾ هذه شَرْطِيَّةٌ، وفعل الشَّرْطِ ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ وهو مَجْزومٌ بِحَذْف النون، وجوابُ الشَّرْط ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ وهو مجزوم أيضًا بحَذْفِ النون؛ يعني: هذه الأَصْنامُ إن تَدْعوهُم لا يَسْمَعوا دُعاءَكُم، لو تَدْعُونَ هذه الأَصْنَامَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ما سمعوا؛ لأنَّها جمادٌ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فـرْضًا

﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ ما أجابوكم] يعني: لو سَمِعَتْ هذه الأَصْنَامُ دُعَاءكم ما استجابَتْ لكم؛ أي: ما أجابَتْكم سواءٌ إن قلتم: يا لات يا عُزَّى، يا مَنَاة، يا يَعُوق، يا يَغُوث، يا نَسْر، لو سَمِعَتْ هذا الدُّعَاءَ هل تُجيبُكم وتقول: نعم، ماذا تريدون؟

الجواب: لا، ولا تُعْطيكم المَطْلوبَ أيضًا، حتى لو سَكَتَت ما أَوْصَلَت المطلوبَ إليكم؛ ولهذا قال: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لِيَشْمَلَ الاسْتِجابَةَ بالقَوْلِ بأن تقولَ هذه الأَصْنَامُ: ماذا تريدون؟ والاسْتِجابَة بالفِعْل وهي إيصالُ المَطْلوبِ إلى هؤلاء الطَّالبينَ، فهي لا تَسْتجيبُ لا لهذا ولا لهذا.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ أي: أجابوكم] مثلُ قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥]؛ أي: أجابَهُم وكقَوْله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة:١٨٦] أي: فَلْيُجيبُوني، وأمثال هذا كثيرٌ؛ فالاستجابة هنا بمَعْنى الإِجابَة؛ أي: إنَّ هذه الأَصْنَامَ لا تُجيبهم.

وزِدْ على ذلك أنَّهم -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشْراكِكُم إيَّاهم مع الله؛ أي: يَتبَرَّؤونَ مِنكم ومن عبادتكم إياهم] إذَن انتفى عنها إجابَةُ الدُّعَاءِ، ومع ذلك لَيْتَهُم سَلِمُوا من شَرِّهِم، يَوْمَ القِيامَة في هذا المَوْقف العظيم المَشْهور يَكفُرون بِشِرْكِكُم ويَتَبَرَّؤون منكم، وهذا غايَةُ ما يكون من الخِذْلان؛ لأنَّ النَّاسَ في يوم القِيامَة يكونون فيه أَحْوَجَ ما يكونون إلى النَّصْرِ والعِزَّةِ، وهؤلاء الأَصْنَامُ يَوْمَ القِيامَة تُذِلُّهم كما قال الله تعالى -وهذا يقَوْله إبراهيم-: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

في هذه الآيَة يُبيِّنُ الله أنَّ هذه الأَصْنامَ لا تَمْلِكُ نَفْعًا لعابديها، هذا واحد.

ثانيًا: وتزيد عابديها ذُلًّا وخِذْلانًا في المَوْضِع الذي يكونون فيه أَحْوَجَ ما يكونون إلى العِزِّ والنَّصر ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي: يُخْبِرُك. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بِأَحْوالِ الدَّارَيْنِ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ عالِمٌ، وهو الله تعالى]. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ هذه جُمْلَة خَبَرِيَّةٌ مَنْفِيَّة؛ يعني لا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ بأَخْبارِ هؤلاء سواءٌ في الدُّنْيا أو في الآخِرَة.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَحْوالِ الدَّارَيْنِ] هذا واضح، فهو فَسَّرَها على ما هي عليه؛ يعني: لا يُنَبِّئُكَ بأَحْوالِ الدُّنْيا والآخِرَةِ وما يكون لهؤلاء العابدينَ من هذه الأَصْنامِ لا يُنَبِّئُكَ أَحَدٌ مِثْل من هو خَبيرٌ بالأَحْوالِ، وسُئِلْنا من الخَبيرُ بالأَحْوالِ؟

الجواب: الخَبيرُ الله، وهذه الجُمْلَةُ سارَتْ مَسْرَى المَثَل عند العَرَبِ، إذا أرادوا أن يُؤَكِّدوا الشَّيْءَ قالوا: (لا يُنَبِّئُكَ مثل خبير)، أو أحيانًا يقولون: (على الخَبيرِ سَقَطْتَ) يعني: وَصَلْتَ إلى العِلْم اليَقينِيِّ الذي يَصْدُر عن خِبْرَة، إذا كانوا لا يُنَبِّئُونَ مِثْل خبير وهو الله وقد أنْبَأَنا بِحالِ هذه الأَصْنَامِ مع عابديها فهل يليقُ بنا عبادتها ونحن عقلاء؟!

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ في إيلاجِ اللَّيْلِ في النَّهار والعَكْس، وذلك لأَنَّ أَحَدًا من الخَلْق لا يَسْتَطِيعُ أن يَفْعَلَ ذلك مهما عَظُمَت قُوَّتُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ رَحْمَتِه بعِبادِهِ؛ لأنَّ في هذا الإيلاجِ مِنَ المصالِحِ والمَنافِعِ ما

لا يَحْصُل مع عَدَمِه، وقد ضَرَبْنا مثلًا -فيما سبق- بالذينَ على خَطِّ الاسْتِواء الذين لا يزيد عندهم النَّهار واللَّيْل، ماذا يكونُ عِنْدَهم من الأمراض والفُتُور في الأجسام وعَدِم النَّشَاطِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تَسْخيرِه الشَّمْسَ والقَمَر لمصَالِح العِبادِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ هاتينِ الآيتَيْنِ العَظيمَتَيْنِ وهما الشَّمْسُ والقَمَرُ، واللَّيْلُ والنَّهارُ أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وظُهُورُ الآياتِ فيهما واضِحٌ لِما فيه من تَمامِ الحِكْمَة والقُدْرَة والرَّحْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجْريان؛ أي: يسيران؛ ففيها ردٌّ على أربابِ الهَيْئَة الجديدَةِ الذين يدَّعون أنَّ الشَّمْسَ والقَمَر لا يَجْريانِ على الأَرْض ولا يَدورانِ عليها.

ونحن قلنا: إنَّه يَجِبُ علينا أن نتَمَسَّك بالظَّاهِرِ ما لم نَجِدْ دليلًا يَقِينِيًّا يدلُّ على أنَّ هذا الظَّاهِرَ غَيْرُ مُرادٍ، وحينئذٍ لنا مَساغٌ في مُخالَفَةِ هذا الظَّاهِرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَضْبوطٌ ومُحْكَمٌ ومُقَدَّر في أجَلٍ مَحْدودٍ لا يزيد عليه ولا يتأَخَّر؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذا الأَجَل الذي تَسيرُ عليه الشَّمْسُ والقَمَرُ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إنَّه يومُ القِيامَة] ويُمْكِنُ أن نقول: يَسيرانِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى حتى في الفَلَكِ، فمثلًا الشَّمْسُ تَنْزِلُ على مدارِ الجَدْيِ في أيَّامِ الشِّتاءِ، ثم تَتَنَقَّل شيئًا فشيئًا إلى أن تَصِلَ إلى مدار السَّرَطانِ، لا يُمْكِنُ أن تَتجاوَزَ هذا ولا هذا؛ لأنَّها تسيرُ إلى أجَلٍ مُعَيَّنٍ، فكُلُّ يَوْمٍ محدَّدٌ مكانُ الطُّلوعِ وزَمانُ الطُّلوعِ، وهذا لا شَكَّ أنَّه سَيرٌ إلى أجَلٍ مُسَمًّى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ فاعِلَ هذه الأشياء هو الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ولا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أن يَفْعَلَه إطلاقًا، ففيه إبطالٌ لِقَوْلِ أَهْلِ الطَّبيعَةِ الذين يقولون: إنَّ اخْتلافَ اللَّيْلِ والنَّهارِ والشَّمْسِ والقَمَرِ كان بمُقْتَضَى طبيعَةِ الأَفْلاكِ، فيُرَدُّ عليهم بِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: فاعِلُ هذا ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عموم مُلْكِ الله لِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و(أل) هنا للعُمُوم، وضابِطُ (أل) التي للعُمُومِ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ)، فإذا صَحَّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كُلٌّ) فهي للعموم، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] فإذا جُعِلَتْ بَدَلَ (أل) كُلٌّ تصيرُ (إنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَفِي خُسْـر)، وكقَوْله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] إذا جُعِلَتْ بَدَلَها (كُلٌّ) تصير (خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ ضعيفًا)، وهنا ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ هل يَصِحُّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها (كل)؟

الجواب: نعم، نقول: (له كُلُّ مُلْك).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: اختصاص الله تعالى بالمُلْكِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ حيثُ قَدَّم الخبَرَ، وحَقُّه التَّأْخيرُ، وقد تقدَّم في أثناء التَّفْسيرِ الجَمْعُ بين هذه الآية وبين إثباتِ المُلْك لغير الله وبَيَّنَّا أنَّه لا تعارُضَ بينهما؛ لأنَّ المُلك الذي لله له شأنٌ والمُلْك الذي للآدَمِيِّينَ له شأنٌ آخرُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ ما يُدْعَى من دون الله لا يَجْلِبُ خيرًا لداعيه بأيِّ وَجْهٍ من الوُجُوهِ؛ لأنَّ الله نفى عنه كلَّ طريقٍ يُمْكِنُ أن يَصِلَ به الخَيْر أو يَنْدَفِعَ به الضَّـرَر، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا في انتفاء الخَيْرِ وعَدَمِ إزالَةِ الضَّرَر والشَّرِّ، زِدْ على ذلك أنَّه يومَ القِيامَة يكفرونَ بِشِرْكِ هؤلاء، وهذا ضررٌ أَعْظَمُ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: النِّداء الواضِحُ على سَفَهِ هؤلاء المُشْرِكينَ، وَجْهُه: أنَّهم يَدْعُون ما لا يسمع دُعَاءَهُم، يدعون ما لو سَمِعَ دُعَاءهم -على فَرْضِ التَّقْديرِ- لم يَسْتَجِبْ لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، فقَوْله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني: لا أَحَدَ أَضَلُّ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وما هي مِلَّةُ إبراهيم؟ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣] هذه مِلَّة إبْراهيمَ؛ التَّوْحيدُ وعَدَمُ الشِّرْكِ، فهؤلاء السُّفهاءُ يَدْعُون ما لا يَسْتَجيبُ ولا يَنْفَعُ بل يَضُرُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من تَعَلَّقَ بِغَيْرِ الله خابَ أَمَلُه؛ لأنَّ هذه الأَصْنام لا تَنْفَعُهُم في الدُّنْيا ولا تَنْفَعُهُم يوم القِيامَة، إذن خاب أَمَلُهم، هم يقولون: (إنَّما نَعْبُدُهم ليقرِّبونا إلى الله زُلْفَى) ولكن ما قَرَّبوهُم، بل هذه ما زادَتْهُم إلا بُعْدًا، فأَمَلُهم قد خاب، والعياذ بالله، وخَسِروا الدُّنْيا والآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ نوعُ هذا الكُفْر هو التَّبَرُّؤُ، فيُسْتَفادُ منه: أنَّ هذه الأَصْنامَ المَعْبودَة تَتَبَرَّأ من عابديها يومَ القِيامَة، بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَجْمَعُ الأَصْنامَ وعابديها ويُلْقيهم في جَهَنَّم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩] ولَكِنَّها ليسَتْ آلهَةً، فلا تَنْفَعُ.

فإن قلْتَ: قد يُبْتَلى داعي هذه الأَصْنامِ فَتَسْتَجيبُ له ظَاهِرًا؛ بمَعْنى أن يَدْعُوَ الصَّنَمَ أن يَشْفِيَه من المَرَضِ الفُلانِيِّ فيُشْفَى، أو أن يَجْلِبَ له الخَيْر الفُلانِيَّ فَيَجْلِبُه، فما هو الجَوابُ؟

نقول: الدُّعاءُ ما أفاد، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعَلَ هذا الشَّيْء يقعُ عند دعائِهِ امتحانًا لهؤلاء العابدينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ البَعْثِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ رُبوبيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

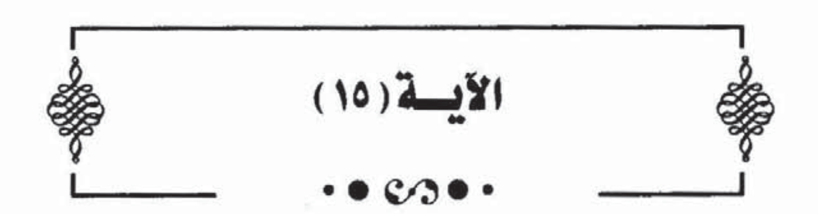
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ علم الله وإحاطَته بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وهل نَأْخُذ منها الرَّدَّ على الجَبْرِيَّة؟

الجواب: نَعَمْ، فهذا مَأخوذ من قَوْله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾.

وهل نأخذ منها أنَّ هذه الأَصْنَام من العُقَلاء؟

الجواب: لا، لَكِنَّها ذُكِرَت على سبيلِ التَّنَزُّل وعلى ذكرها بأَكْمَلِ أوصافِها عندهم وهو العَقْل.

• • ۞ • •



الآيـة (١٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

•• ◦ ••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بِكُلِّ حالٍ ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن خَلْقِه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المَحْمودُ في صُنْعِه بهم].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا النِّداءُ عامٌّ للمُؤْمِنِ والكافِرِ، والبَرِّ والفاجِرِ، والصَّغيرِ والكبيرِ، والذَّكَر والأُنْثى، فهو للنَّاسِ عمومًا، وصدَّر الله هذا الحُكْم بهذا الخطابِ الذي هو نِداءٌ؛ لِأَجْلِ التَّنْبيهِ وبَيانِ الاهْتِمامِ به، وفي الحَقيقَةِ أَنَّه قد يقال: كُلُّ أَحَدٍ يعلم أنَّه فقيرٌ إلى الله، لكنْ هل نحن عَمِلْنا بمُقْتَضى هذا العِلْمِ؟

الجواب: لا، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٥-٦] فقَرَّر الله تعالى هذه الحالَ الثَّابِتَة التي لا تَنْفَكُّ عن الإِنْسَان وهي الفَقْر إلى الله من أجل أن يَعْمَل بمُقْتَضى هذه الحال، فيلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَسْأَل إلا اللهَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ هذه الجُمْلَة جُمْلَة اسْمِيَّةٌ مُفيدَةٌ للحَصْرِ؛ لأنَّ طَرَفيها مَعْرِفتانِ ﴿أَنتُمُ﴾ هذا الضَّميرُ مَعْرِفَةٌ ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ مُحَلًّى بـ(أل) فهو معرفة، وهل غَيْرُ النَّاسِ أَغْنياءُ عن الله؟

الجواب: لا، لكِنْ لَمَّا كان الإِنْسَان هو الذي قد يرى نَفْسَه مُسْتَغْنِيًا عن الله

حَصَرَ الفَقْرَ فيه؛ كأَنَّه يقول: إن لم يكن أَحَدٌ فَقيرًا إلى الله فأنتم فُقَراءُ ولا بُدَّ، وإذا كان الإِنْسَانُ العاقل المدبِّرُ نَفْسُه فقيرًا إلى الله فما بالُكَ بالبهيمة، أليست أَشَدَّ فقرًا؟

الجواب: بلى، هي أَشَدُّ فقرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الإِنْسَان، لَكِنَّه خاطَبَ الإِنْسَان بذلك؛ لأَنَّه هو الذي يرى أَنَّه قد اسْتَغْنى عن الله وأَنَّه غَنِيٌّ عن الله، بل بَعْضُ بني آدم عَكَسَ القَضِيَّةَ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١] والعياذ بالله، فعَكَسَ القَضِيَّة، والواقِعُ الذي تشهد به الفِطْرَة.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿إِلَى﴾ هذه للغاية؛ أي إنَّ فَقْرَكُم مُنْتَهٍ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لا يَسُدُّ عوَزَكُم إلا اللهُ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ ضِدُّ الفَقير، والغَنِيُّ؛ أي: المُسْتَغْني عن غَيْره كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (التغابن): ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن:٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ ذو الغِنَى الواسِعِ، ومع ذلك فإن غناه مَقْرُونٌ بِحَمْده؛ ولهذا قالَ: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فهو غنيٌّ يُحْمَد على غناه؛ لأَنَّه يجود به على غَيْرِه، لكن بنو آدم قد يكون الإِنْسَان منهم غَنِيًّا ولكن ليس حَميدًا، فإذا كان غنيًّا وتَسَلَّط بغناه على غَيْرِهِ وفَخَرَ به على النَّاسِ ولم يَقُم بما يَجِبُ عليه صار غنيًّا غَيْرَ حَميدٍ، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ حميد.

وكَلِمَة (حميد) يصح أن تكون بمَعْنى اسْمِ الفاعِلِ، ويَصِحُّ أن تكون بمَعْنى اسْم المفعول؛ اسْم الفاعِلِ؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حامِدٌ يَحْمَدُ مِن عبادِهِ كُلَّ من يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ منه؛ ولهذا يُثْنِي على رُسُلِه وأَنْبيائِهِ وعِبادِهِ الصَّالِحِينَ، والثَّناءُ عليهم هو الحَمْدُ.

وهو أيضًا مَحْمودٌ على أَمْرَيْنِ: على ما له من كمال الصِّفاتِ، وعلى ما له من كمالِ الإِنْعامِ؛ فهو مَحْمودٌ لِكَمالِ صِفاتِهِ ومَحْمودٌ لِكَمالِ إِنْعامِهِ وهنا نقول: الحَميدُ مَحْمودٌ لِكَمالِ غِناهُ وكَمالِ جُودِهِ بهذا الغِنَى؛ لأَنَّه ليس كلُّ غَنِيٍّ يكون مَحْمودًا بِبَذْلِ ما عنده من الغِنَى، لكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ حَميدٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصل، وضَميرُ الفصل له ثلاثُ فوائِدَ:

١- الحَصْر، فالله هو الغَنِيُّ لا غَيْرُهُ، فكما تقول: (زَيْدٌ هو الفاضِلُ)؛ يعني: لا غَيْرُه.

٢- الفَصْلُ بين الخَبَرِ والصِّفَة؛ يعني: التَّمْييزُ بينهما.

٣- التَّوْكيد؛ فإذا قلت: (زيدٌ هو القائِمُ) فهذا أَوْكَدُ من قَوْلك: (زيدٌ قائِمٌ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ جميعَ الخَلْقِ مُفْتَقِرونَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فمهما بَلَغُوا من الغِنَى والقُوَّة فإنَّهم مُفْتَقِرونَ إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا لفظٌ عامٌّ لا يَخْرُج منه شَيْءٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ شِدَّةِ حاجَةِ النَّاس إلى الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ حيث قال: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ بالأَلِفِ واللام، ولو قال: (فقراء) لكان أَهْوَنَ، لكن ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ معناها أَنَّنا في جميعِ أَحْوالِنا كُلِّها مُفْتَقِرونَ إلى رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ غِنَى اللهِ عن كُلِّ أَحَدٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ لله الغِنى المُطْلَقَ من جميع الوُجُوه، يُسْتَفادُ هذا من قَوْله

تعالى: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بـ(أل) الدالَّةِ على العموم والاسْتِيعابِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الغِنَى الكامِلَ المُطْلَقَ خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدليلِ قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

فإن قُلْتَ: كيف تجمع بين هذا وبين ثُبوتِ الغِنَى لغَيْرِ الله في الكِتَابِ وفي السُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»[1] فثبَتَ بالكِتَاب والسُّنَّة أنَّ البَشَرَ فيهم أغنياءُ؟

فالجواب: أنَّ غنى البَشَرِ غِنًى مَحْدودٌ نِسْبِيٌّ قاصِرٌ قابِلٌ للزَّوالِ كما أنَّه كان حادِثًا، أمَّا غِنَى الله فهو غِنًى مُطْلَقٌ كامِلٌ أزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، ونظير هذا ما ثبت في المُلْك والخَلْق والتَّدبير وما أشبه ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الفرق بين قَوْله تعالى: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ و﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ ففيها نوعُ كمالِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتبيَّن به نَقْصُ البَشَرِ تِجاهَ كمالِ الله، ونظيرُهُ قَوْله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] ثم قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] فإنَّ وَصْفَ المَخْلوقِ بالنَّقْص ثم إثْباتُ الكمالِ لله هذا فيه دليلٌ على كمال الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ كمالَهُ واضحٌ جدًّا؛ لأنَّكَ إذا ذَكَرْت عَيْبَ الآخَرِ تبيَّنَ لك كَمالَ مُقابِلِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ غِنَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَقْرونٌ بالحَمْد؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بخلافِ غنى البَشَر فإنَّه قد لا يكون مَحْمودًا؛ إمَّا بالبُخْل، وإمَّا بِكَوْنِه يأتي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا.

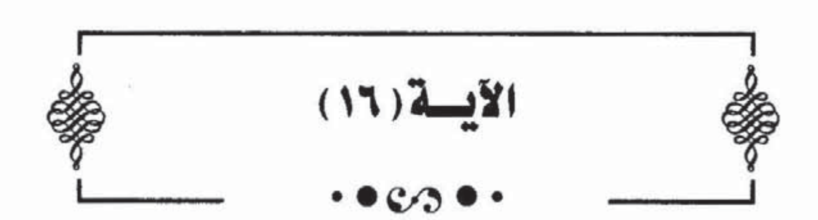
بدون اسْتِحقاقٍ؛ كالسُّرَّاق واللُّصوصِ فقد يكونون أغنياءَ لكن اكْتَسَبوهُ على غَيْرِ الوَجْهِ المُباحِ، أمَّا غِنَى الله فهو غِنًى كامِلٌ يُحْمَدُ عليه.

إذن: يُحْمَد من جِهَة الغِنَى، ومن جهة الكَرَمِ بما هو غَنِيٌّ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسْمَينِ من أَسْماء اللهِ، وهما (الغني) و(الحميد).

و(الغَنِيُّ) يدلُّ على صِفَةِ الغِنَى و(الحميدُ) يدلُّ على صِفَة الحَمْد، ومَجْموعُهُما يدلُّ على صِفَةٍ ثالِثَةٍ وهي كمالُ غِناه؛ لأَنَّه كما ذَكَرْنا في (القواعِدِ المُثْلى) أنَّه قد يَنْشَأُ من الجَمْع بين وَصْفَينِ صفةٌ ثالِثَة تَحْصُل باقترانِهِما، ومَثَّلْنا هناك بالعزيز والحَكيمِ؛ لأنَّها تَقْتَرِنُ دائمًا بها؛ لأنَّه يَحْصُل باجتماعِهِما وصفٌ أكْمَلُ.

••۞••



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦].

جُمْلَة: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه جُمْلَةٌ شَرْطِيَّة، هنا الشَّرْطُ ﴿يَشَأْ﴾ وجوابُ الشَّرْطِ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ و﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: بالإهْلاكِ.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿وَيَأْتِ﴾ جاءت مَكْسورَةً وهي فعل مضارعٌ لأنَّها مَجْزومة بِحَذْف حرف العِلَّة، وأصلها (يأتي) لكِنْ حُذِفَتِ الياءُ؛ لأنَّها معطوفة على مَجْزومٍ، وهو ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بَدَلَكُم] ﴿بِخَلْقٍ﴾ أي: بمَخْلوقٍ، بدليل قَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ﴾ أي: بِمَخْلوقٍ جديدٍ، فهذا مصدرٌ أريد به اسْمُ المفعولِ؛ أي بِمَخْلوق كقَوْله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، وفي قَوْله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١] فـ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مَخْلوقُه، وقد يُرادُ بالخَلْقِ المصدر كما في قَوْله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] لكن هنا المُرادُ به اسْمُ المفعولِ، قال تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بمَخْلوقٍ جديدٍ غيْرِكم، لكن كيف يُذْهِبُنا ويأتي بخَلْقٍ جديد؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الجواب: الله قادِرٌ على أن يأتِيَ بخلقٍ جديد مُسْتَقِلٍّ، وهذا واضِحٌ، ثم هو أيضًا يُمْكِن أن يُذْهِبَ الموجودينَ بعد أن يأتِيَ خَلَفُهُم منهم، فالنَّشْء الصِّغارُ يُعْتَبَرون خَلْقًا جديدًا بالنِّسْبَة للكِبارِ الذين هَلَكوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيلَ لَمَّا امتنعوا عن دخولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَة وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ، وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦] فضاعوا؛ ما بينَ مِصْرَ والشَّام مَسيرَةُ شَهْرٍ، جلسوا فيه تائهينَ أربعينَ سنَةً ما اهتدوا إلى الطَّريقِ.

قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ ولاسيما المعاصرون منهم: «لأَجْلِ أن يَفْنى ذلك الجيلُ المُتَغَطْرِسُ الذَّليلُ ويأتي جيلٌ ناشئٌ في الصَّحَراء قَوِيٌّ يريد أن يدخل البلادَ المقَدَّسَة»؛ لأنَّه ناشِئٌ في الصَّحراء يريد المُدُن، فعنده قُوَّةٌ وإرادَة تُؤَهِّلُه إلى دخول تلك الأَرْض؛ لأنَّ الجيلَ الأَوَّل المُتَغَطْرِس المعانِدُ فَنِيَ في هذه المُدَّة، هكذا قال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ ولاسيما المعاصرون منهم.

قالوا: الحِكْمَة من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَرَبَهم في هذا التِّيه لأَجْل أن يفنى الكبار ويَسْتَجِدَّ الصِّغارُ، والله أعلم.

إنَّما الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يَمْحُوَ النَّاس ويُذْهِبَهم ويأتيَ بِخَلْقٍ جديد، إمَّا خَلْقٌ مُسْتَقِلٌّ، أو من ذرِّيَّة هؤلاء، أو يُفْنِي من في هذه الأَرْض ويأتي آخرون يَحْتَلُّون الأَرْضَ.

فلها ثلاثَةُ وجوه: إمَّا خَلْقٌ جديدٌ مُسْتَقِلٌّ، وإمَّا ذرِّيَّةُ القوم الذين ذهبوا، وإمَّا قومٌ آخرون يأتون من بلادٍ أخرى ويَحُلُّون مَحَلَّ هؤلاء الذين ذهبوا كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [مُحَمَّد:٣٨].

• • ۞ • •



الآيـة (١٧)

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧].

قَوْله تعالى: ﴿وَمَا﴾ هنا حجازِيَّة لتمامِ شُرُوط عَمَلِها؛ لأنَّ اسمها (ذا)، وخَبَرها (عزيز)، لكن دَخَل على خَبَرِها الباءُ الزَّائِدَةُ في الإِعْراب وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إِذْهابُكم والإتيانُ بِخَلْقٍ جديدٍ.

قَوْله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(عزيز) مُقَدَّم عليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شديدٍ] والصَّوابُ عزيزٌ؛ بمَعْنى: مُمْتَنِعٌ؛ لأن (عَزَّ) تأتي بمَعْنى (امتنع) كما سبق، وتأتي بمَعْنى (غَلَبَ) وتأتي بمَعْنى (قَهَرَ)، وغلب وقهر معناهما واحِدٌ، تأتي بمَعْنى العِزَّةِ؛ أي: القَدْر، وهنا ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بِمُمْتَنِعٍ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [شديدٌ]؛ لأنَّ الشَّديدَ في حَدِّ ذاته مُمْتَنِع؛ لقُوَّته وصلابَتِه، إذا لم يكن عزيزًا على الله فهو سَهْل.

فنقول: إن هذه الصِّفَة من الصِّفاتِ السَّلْبِيَّة التي نَصِفُ اللهَ تعالى بها مع إثباتِ كمالِ ضِدِّها، فنقول: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ لكَمالِ سُهولَتِه عليه، فهو أمرٌ هَيِّنٌ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أن يُذْهِبَ هؤلاء ويأتِيَ بغيرهم، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّد:٣٨].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: كمالُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث بيَّنَ أنَّه قادِرٌ على أن يُذْهِبَنا، ثم يأتِيَ بِخَلْقٍ جديدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ المَشيئَةِ لله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحْذيرُ من مُخالَفَتِه تعالى؛ لأنَّ المقصودَ بهذا التَّهديدُ وتَحْذيرُنا من مُخالَفَته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخَلْق حادِثٌ، فليس أزليًّا؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذه فيها دلالة لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وفيها أيضًا دلالَة.

أمَّا الأُولى فوَجْهُ الدَّلالَة أنَّ ما كان قابِلًا للعَدَمِ فهو قابلٌ للحُدوثِ.

أمَّا الثَّانِيَة فلِقَوْله تعالى: ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هل نَسْتَفيد منها ثُبوتَ حُدُوثِ أَفْعالِ الله باعتبار المَفْعولاتِ؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ كُلَّ مَخلوقٍ كائنٌ للخَلْقِ، فإذا كان المَخْلوقُ جديدًا لَزِمَ أن يكون الخَلْقُ أيضًا جديدًا؛ فمثلًا: خَلْقُ الله للجَنينِ في بَطْنِ أمِّه حادِثٌ، فضرورةٌ أنَّه مَخْلوقٌ حادِثٌ، أمَّا جِنْسُ فِعْلِ الله فهو أَزَليٌّ؛ فإنَّ الله تعالى لم يَزَلْ فَعَّالًا، فهناك فَرْقٌ بين وصف الله تعالى بالفِعْلِ على الإطلاق وبينَ وَصْفِ الله تعالى بالفِعْلِ مقرونًا بالمَفْعولِ، فالفِعْلُ المَقرونُ بالمَفعولِ لا شَكَّ أنَّه حادِثٌ، والفِعْلُ المُطْلَقُ أنَّ الله لم يَزَلْ فعَّالًا لِما يريدُ هذا أزليٌّ.

وهل نستفيد من ذلك جوازُ تَهْديدِ الإِنْسَان بالأَشْياءِ المَحْسوسَة لِيَسْتَقيمَ على أَمْرِ الله؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ هذا تهديدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لنَسْتقيمَ على أَمْرِه.

إذن نقول: إنَّ العُقوباتِ الحِسِّيَّةَ إن حَمَلَتْ على الاستقامَةِ فإنَّها مَحْمودةٌ؛ لأنَّها من فِعْل الله؛ ولهذا أَوْجَبَ الله علينا أن نَحُدَّ الزَّانِيَ، ونَقْطَعَ السَّارِقَ حتى يرتَدِعَ، فلا يقول قائِلٌ: إنَّك إذا فَعَلْتَ ذلك فقد حَمَلْت النَّاس على أن يتركوا الأَمْرَ لا لله؛ لأن بعضَ النَّاس يقول: كيف هذا، كيف تقع هذه الحدود؟ معناه أنَّ الإِنْسان لا يترك الزِّنا أو السَّرِقة إلا خوفًا من العُقُوبَةِ، ومَعْنى ذلك أَنَّكَ تَحْمِل النَّاسَ على أن يَدَعُوا المحارِمَ لا خوفًا من الله ولكن خَوْفًا من العقوبة.

فنقول: إن هذا فيه إِصْلاحٌ، ووسيلَةُ الإصلاحِ لا يُشْتَرَطُ فيها من نِيَّة الذي يحاوَل إصلاحه.

وهل يُسْتَفادُ منها جوازُ إعطاءِ الجائِزَة تَشْجيعًا لمن عَمِلَ صَالِحًا، من باب قياسِ العَكْسِ؟

الجواب: المُكافَأَة على العَمَل ثابِتَةٌ في السُّنَّة، وفي غَيْرِ السُّنَّة أيضًا، فالرَّسُولُ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ»[1] أي: في الجهادِ في سبيل الله، و(سَلَبُهُ)؛ أي: ما عليه من الثِّيابِ ونَحْوِها، وهذه مُكافَأَة.

والعُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالوا: يجوز أن يَجْعَل لمن دلَّهم على حِصْنٍ وما أشبه ذلك، من الأُمُور التي فيها مَصْلَحة للمُجاهِدينَ، يجوز أن يَجْعَلَ له جُعْلًا، وكذلك للإمامِ أن يُنَفِّلَ السَّرِيَّة في الرَّجْعة وفي البِداءَة، كلُّ هذه من باب المُكافَأَةِ على فِعْلِ الخَيْرِ، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، رقم (٣١٤٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، رقم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثابِتٌ، لكن هل نأخُذُ جواز ذلك من الآيَة؟

نقول: يُمْكِن أن نَأْخُذَه من الآيَة على سبيل قياسِ العَكْسِ.

فإن قُلْتَ: أَثْبِتْ لنا قياسَ العَكْسِ؛ لأَنَّنا في شَكٍّ من إثبات القياسِ أَوَّلًا؟

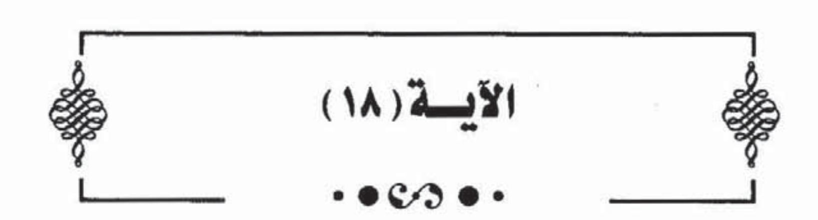
قلنا: عندنا دليلٌ على إثباتِ العَكْسِ، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[1]؛ يعني أنَّ الرَّجُلَ إذا أتى أَهْلَه فذلك صَدَقَةٌ، الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: يَا رَسُولَ الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فيها دليلٌ على كمال القُدْرَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: صِحَّة تَقْسيمِ أَهْلِ السُّنَّة لصِفاتِ الله إلى: ثُبُوتِيَّة، وسَلْبِيَّة، وقد شك بعض النَّاسِ في كَلِمَة (سَلْبِيَّة) وقال: يَنْبَغِي أن نقول: (مَنْفِيَّة).

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

•••

لما بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يؤُولُ إليه أَمْرُ هؤلاء الكُفَّارِ، وهدَّدَ من خرج عن طاعَتِه بأنَّه قادرٌ على أن يُذْهِبَهم ويأتِيَ بِخَلْقٍ جديد ذكر بَراءَةَ غَيْرِ الوازِرينَ من الوازِرِينَ؛ يعني أنَّ شِرْكَ هؤلاء المُشْرِكينَ لا يُؤَثِّر على أولئكَ المُؤْمِنينَ المُوَحِّدين، قال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثِمَةٌ]، أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتَقْديرِ (نَفْس) أن (وازِرَة) صِفَةٌ لمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْديرُهُ: (نفس)، وَقَوْله: (وازرة؛ أي: آثِمَة) وهل المُرَاد أنَّها آثِمَةٌ بالفِعْل أو أنَّها من ذواتِ الوِزْرِ والإِثْم وهو المُكَلَّف؛ أي: البالِغُ العاقِلُ؛ يعني أنَّ من يكونُ أَهْلًا لِأَنْ يَأْثَمُ إذا فعل لا يَتَحَمَّلُ إثْمَ غَيْـرِهِ، وتكونُ الفائِدَةُ مِن ذِكْرِ وازِرَة أنَّ الصَّغيرَ مثلًا لا يَتَحَمَّل إثمًا لا له ولا لغيره، بخلاف الكبيرِ الذي يتحَمَّلُ الإِثْمَ، فهل يتحَمَّل إثم غَيْرِه؟

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آثِمَةٌ؛ أي: لا تَحْمِلُ] على كَلِمَةِ ﴿تَزِرُ﴾ فسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [أي: لا تَحْمِل] وهذا تَفْسيرٌ بالمُرَادِ

لا بالمَعْنى المُطابِقِ للَّفظ؛ لأنَّ المَعْنى المطابِقَ للَّفْظِ في ﴿تَزِرُ﴾ أي: تَأْثَم؛ إذ إنَّ الوِزْر هو الإِثْم، ولكن تقدَّم كثيرًا أن تَفسيرَ القُرْآن قد يُرادُ به التَّفْسيرُ المُطابِقُ للَّفْظِ، وقد يُرادُ به التَّفْسيرُ بالمَعْنى المُرَادُ لا المُطابِق للَّفظ؛ أي: [لا تَحْمِلُ وِزْر نَفْسٍ أخرى].

أفادنا أيضًا بِقَوْله: [﴿وِزْرَ﴾ نَفسٍ] أنَّ ﴿وِزْرَ﴾ صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْديره: (نَفس)؛ أي إنَّ زيدًا لا يَحْمِلُ إثْمَ عَمْرو، وهندًا لا تَحْمِلُ وِزْر فاطمة مثلًا، فكلٌّ يَحْمِلُ وِزْرَه، قال الله تعالى مُبيِّنًا ذلك في جُمْلَة تُعْتَبرُ قاعِدَة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

وأمَّا من لم يَكْسِبْ شيئًا فليس عليه مِنْ إِثْمِ الآخَرِ شَيْءٌ، ولا يعارِضُ هذا قَوْلَ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]؛ لأنَّ سَنَّه إيَّاها يُعْتَبَر وِزْرًا؛ لأنَّه هو الذي شَقَّ الطَّريقَ لها، ومَهَّدَ السُّبُل؛ فلهذا كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَوْمِ القِيامَة، فالآيَةُ هنا لا تُنافي الحديث.

قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

[﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالوِزْرِ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ منه أَحَدًا لِيَحْمِل بَعْضه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾].

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ أي: تَطْلُب ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأَوْزارِ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ لِيُحْمَل عنها بَعْضُه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وجُمْلَةُ ﴿لَا يُحْمَلْ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، والشَّرْطُ قَوْله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ وهو مجْزومٌ بِحَذْفِ الواو، والضَّمَّةُ قَبْلَه دليلٌ عليه و﴿لَا يُحْمَلْ﴾ هذا هو

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جوابُ الشَّرْط، و﴿شَىۡءٌ﴾: نائِبُ الفاعلِ؛ يعني اعْلَموا كما أنَّ الغَيْرَ لا يَحْمِلُ عن الغَيْر وِزْرَه فإنَّه حتى وإن دُعِيَ واستنجد لِيَحْمِل أو يُخَفِّف عن الوازِرِ شيئًا لم يَكُنْ ذلك، في الدُّنْيا ربَّما يُؤْخَذُ الإِنْسَانُ بِجَريرَةِ غَيْرِه، في الدُّنْيا أيضًا إذا استغاثَ بك إِنْسَانٌ قد حَمَل شيئًا ثقيلًا خاصَّةً من كِبارِ السِّنِّ، إذا قابَلْتَ إِنْسَانًا حَمَلَ شيئًا ثقيلًا فإنَّك تُنْجِدُه، لكِنْ في الآخِرَة لو دَعَتْ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها أن يَحْمِلَ أَحَدٌ منه شيئًا فإنَّها لا تُجابُ إلى ذلك، ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَىۡءٌ﴾ وَقَوْله تعالى: ﴿شَىۡءٌ﴾ نكرة في سياق النَّفْيِ فتَعُمُّ القَليلَ والكَثيرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ هي أيضًا نكِرَةٌ في سياق النَّفْي فتَعُمُّ؛ أيُّ مُثْقَلةٍ، مهما كانت هذه المُثْقَلَة، فإنَّها إذا دَعَت أَحَدًا من النَّاس أن يَحْمِلَ عنها من أَثْقالِها لا يُحْمَل منه شَيْءٌ.

قَوْله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ المَدْعُوُّ ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ قَرَابَةٍ كالأَبِ والابْنِ].

قَوْله: [﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ المَدْعُوُّ] ألا يُمْكِن أن نقول: (ولو كان الدَّاعي)؟

الجواب: يُمْكِن؛ لأنَّهما مُتلازِمانِ؛ لأنَّ المَدْعُوَّ إذا كان قريبًا للدَّاعي كان الدَّاعي قَريبًا له، لكنْ أيُّهما أَنْسَبُ من حيث السِّيَاقُ: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَىۡءٌ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ نقول: (المَدْعُوُّ) أَقْرَبُ؛ لأنَّه لو كان المُرَادُ الداعي لكان -والله أعلم- الأَنْسَبُ أن يقول: (ولو كانت ذا قُربَى)؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ ومعلومٌ أنَّ ضَميرَ المُؤَنَّث ولو كان مجازًا يكون مُؤَنَّثًا؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنَّمَا تَلْـزَمُ فِعْـلَ مُضْـمَرِ ... مُتَّصِـلٍ أَوْ مُفْهِـمٍ ذَاتَ حِـرِ[1]

---

(١) الألفية (ص٢٥).

إذن: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كانت ذا قُربَى، هذا صحيح؛ أي: ولو كانت الدَّاعِيَة، لكن قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ بالمُذَكَّر، عُلم أنَّ الفاعل غَيْرُ الدَّاعِيَة كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْله: [﴿قُرْبَىٰٓ﴾ أي: قَرابَةٍ] ومنه قَوْله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال:٤١]؛ أي: القرابة، وَقَوْله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] فالقُرْبى هنا بمَعْنى القَرابَة، لو أنَّ الأَبَ اسْتَنْجَدَ بابنه يَوْمَ القِيامَة أن يَحْمِلَ عنه من أَوْزارِه لم يُجِبْه، بل ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] لماذا؟

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وعَدَمُ الحَمْل في الشِّقَّيـنِ حُكْمٌ من الله] أين الشِّقَّانِ؟ قَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تَحْمِلُ ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وإذا كان من الله، فإنَّه لا يُمْكِنُ لأَحَـدٍ أن يَحْمِلَ عن أَحَـدٍ شيئًا، فلو أنَّ أَحَدًا قال لشَخْصٍ: (آثامُكَ عَلَيَّ) فلا يَصِحُّ هذا؛ لأنَّ الذي لا يحمل هو الله، فالحُكْمُ من الله عَزَّوَجَلَّ، لو أنَّ أَحَدًا اسْتَنْجَد بأَحَدٍ أن يَحْمِل عنه، ووافق على نَجْدَتِه، فليس له ذلك؛ لأنَّ هذا حُكْمٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا الفائِدَة من قَوْلِه: [وَعَدَمُ الحَمْل في الشِّقَّينِ حكمٌ من الله] أي: فليس لأَحَدٍ أن يتجاوَزَ الحُكْمَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]؛ يعني: يقولون ذلك، لَكِنَّهم ليسوا بصادقين على هذا الحَمْل وإنَّهم لكاذبون؛ ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] لا بالتِزامِهم

ولكن لأنَّهم هم الأُسْوَةُ والقُدْوَة فكانوا يَحمِلون أَثْقالَهم وأثقالَ من أَضَلُّوه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه جُمْلَةٌ فيها حَصْرٌ طريقُه ﴿إِنَّمَا﴾ والحَصْرُ هو إثباتُ الحكم في المذكورِ فيه ونَفْيُه عمَّا سواه.

كأنَّك تقول: (ما تُنـذِرُ إلا الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم) و﴿تُنذِرُ﴾ من الإنذارِ، وهو الإِعْلامُ المَقْرونُ بالتَّخْويفِ، وإن شِئْتَ فقل: (الإِعْلام المُراد به التَّخويفُ)؛ لأنَّه قد لا يُقْرَن، لكن يُعْرَف من هَيْئَةِ الكَلَام والصِّياحِ مثلًا أنَّه للتَّخويفِ، فمُنْذِرُ الجيش يقول: (واصَبَاحاه)، فيَعْرِف النَّاس أنَّ هذا إنذارٌ للجَيْشِ.

إِذَن: الإنذارُ معناه: الإِعْلامُ المُرادُ به التَّخْويفُ، فالنَّبِيُّ ﷺ يقول الله له: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ الخَشْيَة هي الخَوْفُ النَّابعُ عن تَعْظيمِ المَخُوفِ والعِلْم به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وَقَوْلنا: إنَّه الخَوْفُ النَّابعُ عن تَعْظيم المَخُوفِ؛ لِيَشْمَل من كان خائِفًا ولو كان هو قويًّا؛ معناه القَوِيُّ قد يخاف من الأَقْوى منه فتكون هذه خَشْيَة، فإن خاف الضَّعيفُ مِنَ القَوِيِّ فهو خَوْفٌ؛ ولهذا نقول: إنَّ الخَشْيَة أَعْظَمُ من الخَوْفِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ أي: يَخافونَه خَوْفًا نابعًا من تَعْظيمهم له مع عِلْمِهم بأنَّه مستحِقٌّ للتَّعْظيمِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الغَيْبُ ضد الشَّاهِدِ والمَعْلومِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخافونه وما رَأَوْه] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قَوْله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من المفعول به؛ أي: يَخْشَوْن ربَّهم حال كَوْنِه غائبًا عنهم لم يَرَوْه، وهذا أَحَد الوَجْهَيْنِ في الآيَةِ.

الوجه الثاني: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ حالَ كَوْنِهم غائبيـنَ عن غَيْره فيكونُ الجارُّ والمَجْرورُ حالًا من الفاعِلِ؛ لأنَّ من النَّاسِ من يُظْهِرُ خَشْيَةَ الله أمام النَّاس، لَكِنَّه إذا غاب عن النَّاسِ لم يَخْشَ الله، هل يُمْدَح هذا على خَشْيَتِه؟

الجواب: لا؛ لأنَّه مُرَاءٍ، لكنْ من يَخْشَى ربَّه بالغَيْبِ هذا هو الذي يُمْدَح.

فإن قُلْتَ: هـل يُمْكِـن أن تُحْمَلَ الآيـةُ على المَعْنَيينِ، ويكـون هـؤلاء الـذين مَدَحَهُم الله يَخْشَوْن الله؛ مع أنَّهم لم يَرَوْه يَخْشَون الله في حالِ الغَيْبَة عن النَّاس؟

فالجواب: نعم، وهذا من بَلاغَةِ القُرْآن أن يُعَبِّرَ بتعبيرٍ صَالِحٍ لِمَعْنَيَيْنِ لا يتنافيانِ، فهؤلاء القوم يَخْشَوْنَ الله تعالى وهم لم يَرَوْه، ولَكِنَّهم يَخْشَوْنَه كأنَّهم يَرَوْنَه؛ لأنَّهم يَخْشَوْنه بالغيب والشَّهادَة، وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لا ينافي أنَّـه مُنْـذِرٌ لجميع النَّاسِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة:١١٩] وقال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٣] وما أشبه ذلك من الآياتِ الدَّالَّة على عموم ذلك؛ لأنَّ المُرادَ بالإِنْذارِ هنا الإنذارُ النَّافِع؛ أي: إنَّمـا يُؤَثِّرُ إنذارُك في الذين يَخْشَوْن ربَّهم بالغَيْبِ، أمَّا من لا يَخْشَى الله بالغَيْبِ فإنَّه وإن أُنْذِرَ فإنَّه لا يَنْتَفِعُ بالإنذار.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُشيرًا إلى ذلك بِقَوْله: [لأَنَّهُمُ المُنْتَفِعون بالإنذار] [لأنَّهم]؛ أي: الذين يَخْشَوْن رَبَّهم بالغَيبِ المُنْتَفِعون بالإِنْذار، فلهذا خَصَّ الإنذارَ بهم.

إذن: حَصْرُ الإنذارِ في الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغَيْبِ المُرادُ به حَصْرُ الانْتِفاعِ به، أو حَصْرُ نَفْعِه إنَّما يكون للذين يَخْشَوْن ربَّهم بالغيب، أمَّا من لا يخشى الله فإنَّ هذا لا يَنْفَعُه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

قَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فـ﴿وَأَقَامُوا۟﴾ معطوفةٌ على ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أي: على صِلَةِ الموصول، وهنا قال: (يَخْشَوْنَ وأقاموا الصَّلاةَ) فعَطَفَ الماضِيَ على المُضارِعِ؛ لأنَّ الخَشْيَةَ مُسْتَمِرَّةٌ في الأعمال كُلِّها؛ في إقامَةِ الصَّلاة وغَيْرِها.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أداموها] والحَقيقَةُ أنَّ إقامَةَ الصَّلاة أَعَمُّ مِمَّا قال، ففي تَفْسيره قُصُور؛ لأنَّ إقامَةَ الصَّلاةِ تَشْمَلُ إتْمامَها، وإكْمالَها، والمحُافَظَة عليها، والمُداوَمَة عليها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المُؤْمنون:١-٢] فالخشوع فيها من إقامَتِها، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤] هذا أيضًا من إقامَتِها أن يحافِظَ عليها ويَحْرِص عليها؛ على واجِباتِها، ومُكَمِّلاتِها، وأَوْقاتِها.

وقال في سورة (سأل): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣] وفي آخرها قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤]، فإقامَةُ الصَّلاةِ تَشْمَلُ كل ما فيه إِكْمالُها وإِتْمامُها وإدامَتُها؛ فهو أَعَمُّ مِمَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشْمَلُ الفَرْضَ والنَّفْل؛ لأن (أل) تفيدُ العُمُوم؛ أي:

أقاموا كُلَّ صلاةٍ، والصَّلاةُ مَعْروفَةٌ، وهي في اللُّغَة: الدُّعاءُ، وفي الشَّـرْع: التَّعَبُّد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأَقْوالٍ وأَفْعَالٍ مَعْلُومَةٍ، مُفْتَتَحَةٌ بالتَّكْبيرِ مُخْتَتَمَةٌ بالتَّسْليمِ.

قال: ﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ هذه الجُمْلَة شَـرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْط فيها ﴿تَـزَكَّىٰ﴾ وجوابُه: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ﴾ تطَهَّرَ من الشِّرْك وغيره] لأنَّ الزَّكاةَ تُفيدُ مَعْنى الطُّهـر، والمُرادُ بالتَّـزَكِّي هنا هو ما دَلَّ عليـه قَوْله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤] وَقَوْله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس:٩]؛ أي: من زَكَّى نَفْسَه؛ أي: طَهَّرَها من الشِّرْك.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وغيره] كإرادَةِ السُّوء مثلًا، والمعاصي، وإرادَة الإِسَاءَةِ إلى الخَلْق، وغير هذا مِمَّا يَجِبُ على الإِنْسَانِ أن يُطَهِّرَ نَفْسَه منه، فهي إِذَن عامَّةٌ، وهل يَدْخُل في ذلك أداءُ الزكاة؟

الجوابُ: نعم، يَدْخُل في ذلك؛ لأنَّ أداءَ الزَّكاةِ يُطَهِّرُ من البُخْلِ؛ ومِنَ الواجِبِ، فهي داخِلَةٌ في قَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ﴾.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ المُراد بهذا الحَثُّ على التَّزَكِّي؛ لأنَّك إذا تَزَكَّيْتَ فإنَّما تَنْفَعُ نَفْسَك، ومن لم يَتزَكَّ فَضَرَرُه على نفسه، فأنت إذا تَزَكَّيْت فالذي يَنْتَفِع بِتَزَكِّيكَ أنت نَفْسُك؛ والله عَزَّوَجَلَّ لا يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ، أمَّا غَيْـرُ الله فقد يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ لا لأنَّ حَسَناتِكَ له ولكن قد يَنْتَفِعُ بطاعَتِكَ: بالقُدْوَة بك، وبما يَحْصُل من عِلْم، أو غَيْرِ ذلك مِمَّا هو داخِلٌ في التَّزْكِيَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فَعَلَيْه أن يَحرِص على التَّزَكِّي.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المَصيرُ؛ بمَعْنى المَرْجِع كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجُمْلَةُ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ مُتعَلِّقٌ بالمَحْذُوف خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مُبْتَدَأٌ مؤَخَّر، وهذه الجُمْلَةُ تُفيدُ الحَصْر؛ لأَنَّه قدَّمَ فيها الخَبَر وحَقُّه التَّأْخير؛ يعني: إلى الله وَحْدَه المصيرُ؛ أي: المَرْجِعُ، وهل هذا في الدُّنْيا أو في الدُّنْيا والآخِرَة؟

الجوابُ: في الدُّنْيا والآخِرَة، فإلى الله المَصيرُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، فمَرْجِع الأُمُورِ كُلِّها إلى الله عَزَّوَجَلَّ سواءٌ كانت في الدُّنْيا أم في الآخِرَة.

فالأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مَرْجِعُها إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، والأَحْكَامُ الكَوْنِيَّة مَرْجِعها إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤]، والأَحْكَام الجزائِيَّة التي تكون يوم القِيامَة مَرْجِعُها إلى الله، فمصيرُ كُلِّ شَيْء إلى من أبدع وأَحْدث كلَّ شَيْء، والذي أَبْدَع الأُمُورَ وأَحْدَثها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: مَرْجِعُها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَفْريعًا على قَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فيجزي بالعَمَل في الآخِرَة] وهذا إشارَةٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أَنَّه قَصَرَ المَصيرَ هنا بالمَرْجع يوم القِيامَة، والصَّوَاب العُمومُ، وعلى هذا فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجازي، ويَحْكُم قَدَرًا، ويَحْكُم شَرْعًا بين عباده.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإِنْسَانَ لا يَحْمِل آثامَ غَيْـره؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وينبني على هذه الفائِدَة: ثُبوتُ كَمالِ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث لا يَحْمِل أَحَدٌ وِزْرَ أَحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا يَقْبَل التَّحْميلَ إلا من كان أَهْلًا له؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأنَّ غَيْر الوازِرَة لا تَحْمِل إِثْمَ نَفْسِها فضلًا عن إِثْم غَيْرِها، لكنَّ الوازِرَة تَحْمِل إِثْمَ نَفْسِها لا تَحْمِل إِثْمَ غَيْرِها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مَنْعُ الاتِّكاليَّة على الغَيْر؛ لأنَّ الإِنْسَان قد يَعْمَلُ، ويقول: (سَيُهَيِّئ الله لي أَحَدًا يدعو لي، أو يَسْتَغْفِر لي)، أو ما أشبه ذلك! نقول: هذا لا نَسْتَنِدُ عليه.

فإن قال قائلٌ: ما الجوابُ عن قَوْله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]؟

فالجوابُ: لأنَّ أَثْقالَ غَيْرِهم حَقيقَةٌ ناشِئَةٌ عن أثقالِهم، فصاروا كأنَّهم الذين عَمِلُوها، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: قياسُ العَكْس، فإذا كانت النَّفْسُ لا تَحْمِلُ إِثْم غَيْرِها، فهل تُلْزَم بالواجِبِ على غَيْرِها أو تقوم بأوامِرِ غَيْرِها؟

الجواب: لا، فكما أنَّ الإِنْسَانَ لا يَحْمِلُ إثم غَيْره بالمَعْصِيَة لا يَحْمِل إِثْم غَيْرِهِ في تَرْكِ الواجِبِ، فإذا ترك أبوك أو ابْنُك أو خالُك أو عَمُّك واجبًا فليس عليه إِثْمُه، الإِثْمُ على الرَّجُلِ نَفْسِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الغَيْرَ لا يَحْمِلُ وِزْرَ الغَيْرِ وإن دعاه إلى ذلك؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ بخلافه في الدُّنْيا، فإنَّه في الدُّنْيا إذا دعاك أَحَدٌ أن تُعينَه على ما حَمَلَ أو أن تَحْمِلَه عنه أَجَبْتَه، لكن في الآخِرَة لا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وحتى ولو كان أَقْرَبَ النَّاسِ إليك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ رسول الله ﷺ نذيرٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا يَنْتَفِع بإنذارِهِ إلا من يَخْشى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الخَشْيَة التي هي مَحَلُّ الثَّناءِ هي: ما كانت خشيةً في الغَيْبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لأنَّ الخَشْيَةَ في الظَّاهِر قد يكون الحامِلُ عليها مُراعاةُ عباد الله، لكن إذا كانَتْ بالغَيْبِ فإن هذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ صاحِبَها مُخْلِصٌ في خَشْيتِه لله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فَضيلَةُ الصَّلاةِ وأنَّها -أي: الصَّلاة- سَبَبٌ للانتفاعِ بإنذارِ النَّبِيِّ ﷺ كالخَشْيَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الإِنْسانَ إذا تزكَّى فإنَّ نَفْعَ تَزَكِّيهِ لِنَفْسِه ولا ينالُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك شَيْئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

ويتفرَّع عن هذه الفائِدَة: أنَّ أوامِرَ الله عَزَّوَجَلَّ ليست من أجل مَصْلَحةٍ ينالُها بامتثالنا، ولكن من أجْلِ رَحْمَتنا ومَصْلَحَتِنا نحن، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٧].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحثُّ على تَزْكِيَة النَّفْس؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وكُلُّ إِنْسَانٍ عاقِلٍ إذا علم أنَّ مَصْلَحَة العَمَلِ تعود إليه فإنَّه سوف يَهْتَمُّ به ويقوم به، فإذا عَلِمْتَ أن تَزَكِّيك لِنَفسك حَرَصْت عليه غايَةَ الحِرْص.

والتَّزَكِّي كما أشرنا إليه يَشْمَل:

تَزْكِيَة القَلْب بِتَطْهيرِهِ من جميع الشِّرْك، والشَّكِّ، والضَّغائِن، والأَحْقاد، والبَغْضاء، وما أشبه ذلك.

وتَزْكِيَة الأَفْوَاه من كلِّ قَوْلٍ مُنْكَرٍ بأَلَّا يَقُول الإِنْسَانُ إلا خيرًا؛ لِقَول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

وتَزْكِيَة الأَفعالِ أيضًا من فِعلِ الفَواحِشِ والأَخْلاقِ السَّيِّئَة، وما إلى ذلك مِمَّا يَجِبُ على الإِنْسَانِ أن يَتَطَهَّر منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كمال هذا الدِّينِ الإِسْلامِيِّ؛ حيث حثَّ على تَزْكِيَة النَّفْس ظاهِرًا وباطنًا؛ ظاهِرًا بالأَقْوالِ والأَفْعالِ، وباطنًا بالقُلوبِ.

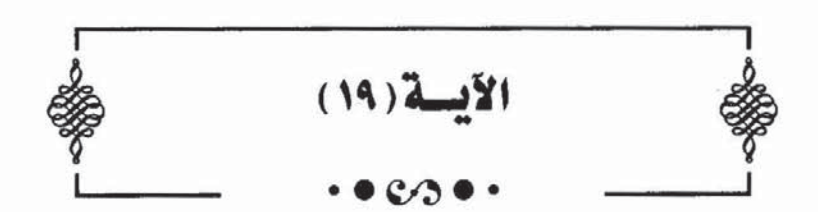
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَرْجِعَ الخلائِقِ إلى الله في أَحْكَامِهِم الكَوْنِيَّة والشَّرْعِيَّة والجزائِيَّة، أمَّا الأَحْكَامُ الكَوْنِيَّةُ فظاهِرٌ أنَّ المَرْجِعَ إلى الله؛ لأَنَّه لا أَحَد يَسْتَطِيع أن يَرُدَّ قضاء الله الكَوْنِيَّ، وأمَّا الشَّرْعِيَّة فكذلك؛ فإنَّ العِبادَ مَرْبوبونَ مُتعَبَّدونَ لله عَزَّوَجَلَّ، فكان مُقْتَضَى ذلك أن يَتَمَشَّوا على أَحْكَامه الشَّرْعِيَّةِ، وأمَّا الجَزَائِيَّة فالأَمْرُ ظاهِرٌ؛ فإنَّه لا يجازي العاملينَ على عَمَلِهِم إلا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: مَنْعُ الرُّجوعِ إلى غَيْرِ الله فيما هو مُخْتَصٌّ بالله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلا يجوز أن نَرْجِعَ إلى النُّظُم الوَضْعِيَّة التي من وَضْع البَشَرِ وعندنا كِتَابُ الله وسُنَّةُ رسوله ﷺ.

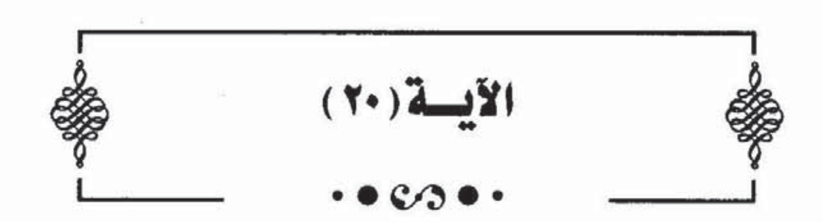
• ● ❁ ● •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر:١٩].

يعني: لا يَسْتَوِيانِ في إدراك المُبْصَراتِ، ليس المَعْنى نَفْيَ التَّساوي مُطْلَقًا؛ لأنَّ الأَعْمى قد يَفْضُلُ البَصيرَ في أُمورٍ أخرى، لكن لا يَسْتويانِ في إدراك المُبْصَرات وهذا ظاهِرٌ؛ فالأعمى إذا قام يَمْشِي وأمامَهُ حُفْرَةٌ أو حَجَر وقع في الحُفْرَة وعَثَرَ في الحَجَر، والبَصيرُ بالعَكْس، فلا يستوي هذا وهذا، والأَكْمَل هو: البصير؛ وهذا مَثَلٌ حِسِّيٌّ يَجِبُ أن نَنْتَقِلَ منه إلى المثل المَعْنَوِيِّ.

وأمَّا قَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الكافِر والمُؤْمِن] ففيه نَظَرٌ، يعني: كأَنَّه يريد أن يقول: إنَّ الأَعْمى هو الكافر والبَصيرَ هو المُؤْمِن، ولكِنَّنا نقول: لا، الآيَةُ يُرادُ بها نَفْيُ المُساواةِ في الأُمُور الحِسِّيَّة الظَّاهِرة التي لا يُنْكِرُها أَحَد، إذ إنَّ الكافِرَ والزِّنديقَ والمُعانِدَ والمُسْتكْبِرِ لا يُمْكِن أن يَدَّعُوا تساوي الأَعْمى والبصير، لكن قد يَدَّعُون تساوِيَ المُؤْمِن والكافر.



الآية (٢٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ٢٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الكُفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الإيمانُ] وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ، والظَّاهِر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد الظُّلُماتِ الحِسِّيَّةَ والنُّور الحِسِّيَّ؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواء بين هَذَينِ أمرٌ لا يُمْكِنُ إِنْكارُه؛ لأنَّه مُدْرَكٌ بالحِسِّ، فالظُّلُمات لا تستوي والنُّور، ولكِنْ لا شَكَّ أنَّ المُرادَ بذلك ظُلُماتُ الكُفْر ونور الإيمانِ؛ يعني أنَّها إشارَةٌ إلى هذا؛ ولذلك جمع الظُّلماتِ وأَفْرَد النُّور؛ لأنَّ سُبُلَ الكُفْرِ كَثيرَةٌ، وأمَّا الإيمان فَسبيلُهُ واحِدٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

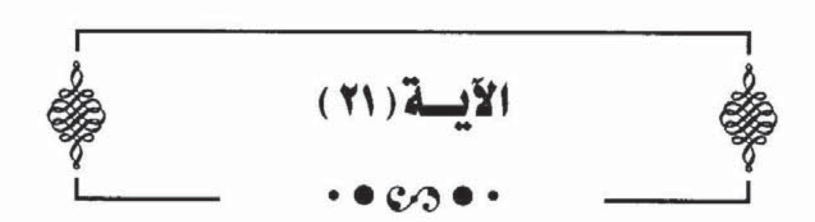
وإنَّما كان الكُفْرُ ظُلُماتٍ؛ لأنَّ فيه الجَهْلَ بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما يَجِبُ له، وفيه أيضًا أنَّ الإِنْسَانَ يسير على غَيْر هدًى، ويسيرُ في اتِّجاهاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُنْحَرِفَة، فقَلْبُه مُتَشَعِّبٌ في كلِّ وادٍ؛ ولهذا تجد الكافرينَ أَشَدَّ النَّاس قلقًا وأَبْعَدَهم عن الثَّباتِ على خطٍّ مُسْتَقيم.

بخلافِ المُؤْمِن؛ فالمُؤْمِنُ مُؤْمِنٌ، خَطُّه مُسْتَقيم، وعارِفٌ أنَّه يريد الوُصولَ إلى الله، فتَجِدُه يُحَوِّلُ جميعَ الأَفْعالِ إلى طريقٍ واحِدٍ وهو الوصول إلى الله؛ حتى إنَّه إذا لَبِسَ ثَوْبَه يَشْعُر بأنَّه ينالُ بذلك مَرْضاةَ الله، إذا أَكَل، أو شَرِبَ، أو نام، أو سافَر،

أو تكَلَّم، أو أَحْجَم، كلُّ ذلك يرى أَنَّه في الطَّريقِ إلى الله.

لكنَّ الكافِرَ مُتَشَعِّبٌ، ولذلك كان مَنْهَجُه ظُلُماتٍ؛ لأَنَّه مُتَشَعِّب، ليس هناك هدَفٌ واحِدٌ يسعى إليه، أهدافُهُ كَثيرَةٌ، مغرورٌ في الدُّنْيا، مغرورٌ في رؤسائه، مغرورٌ في النَّاس، لا يَهْتَمُّ إلا برضاهم، نسأل الله السَّلامَةَ والعافية، ولا يُهِمُّه أن يَرْضَى الله عَزَّوَجَلَّ، فلهذا كان مُسْتَحَقًّا أن تُجْعَلَ طَريقُ الكافِرِ على سبيلِ الجَمْعِ لِتَشَتُّتِها وتَفَرُّقِها.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٢١)

• • ℭ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر:٢١].

• • ℭ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة والنَّار] يعني: المُرَاد بالظِّلِّ -عند المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- الجَنَّة، والمُرَاد بالحَرورِ النَّار، ولكن كما قُلْتُ: الظَّاهِر أنَّ هذا مَثَلٌ لأمرٍ حِسِّيٍّ لا يُمْكِن إنكارُه، لكن يَنْتَقِل منه إلى أمرٍ مَعْنَوِيٍّ.

والظِّلُّ والحَرورُ لا يستويان، وأيُّهما أَحْسَنُ؟

الجواب: الظِّلُّ؛ فالظِّلُّ مَعْروفٌ، وهو الفَيْءُ الذي تَقَلَّصَت عنه الشَّمْس وإن شِئْتَ فقل: الظِّلُّ هو المكان الذي ليس فيه أَشِعَّةٌ للشَّمْس، وإنَّما نقول ذلك؛ لأنَّ الجَنَّةَ ليس فيها شَمْس، قال الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] مع أَنَّه ليس فيها شَمْس.

وأمَّا (الحرورُ) فهو على وزن (فَعُول) وهو الهواء الحارُّ، وبَعْضُهم يقول: إنَّه الهواءُ الحارُّ في النَّهارِ، والسَّمُوم: الهواءُ الحارُّ في اللَّيْلِ، وبعضهم يقول: كلاهُما بمَعْنًى واحدٍ، فالحَرورُ والسَّمومُ هما الهواء الحارُّ، وهذا مَعْروفٌ، يكون في أيَّامِ الصَّيْفِ، وإذا كان معه شَمْس ازداد شدَّةً في الحرارة.

الآن عندنا: الأَعْمى والبصيرُ، والظُّلُمات والنُّور، والظِّلُّ والحَرور، على كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقول: هذا النَّفْيُ في المواضِعِ الثلاثة: الأَوَّل يعود إلى ذاتِ المُؤْمِنِ

والكافِرِ، والثَّاني يعود إلى عَمَل المُؤْمِن والكافِرِ، والثَّالِـثُ يعود إلى مُسَتَقَرِّ المُؤْمِنِ والكافِرِ، فالأَوَّلُ نَفْيٌ للذَّواتِ، والثاني نَفْيٌ للأَفْعال والمَنْهَج، والثَّالِثُ نَفْيٌ للمُسْتَقَرِّ والمأوى.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ هـذا هو الرَّابع، قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُؤْمِنون ولا الكُفَّار] فعلى كَـلام المُفَسِّـر يكون في الآيَة تَكْرارٌ؛ لأنَّه فسَّـر الأَوَّل ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ بالكافِرِ والمُؤْمِـن، وهنا قال: ﴿ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [المُؤْمِنـون والكُفَّار] ولو أَرَدْتُ أن أَسْلُكَ مَسْلَكَه لقلت: ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ ذوو العِلْمِ و﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ ذوو الجَهْل؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ ولأنَّ الله تعالى جَعَلَ الوَحْيَ رُوحًا تَحْيا به القُلُوبُ والنُّفُوس، ولكنَّني لا أَسْلُك مَسْلَكَه، إنَّما لو أَرَدْتُ أن أَسْلُك مَسْلَكَه لقلت: (الأحياء والأَمواتُ: العُلَماء والجُهَّال)، لأنني إذا سَلَكْتُ هذا المَسْلَك فعندي على ذلك البُرْهان، وهو قَوْله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ إلخ [الأنعام:١٢٢] فإذا سَلَكْتُ هذا المسلك سَلِمَتِ الآيَةُ من التَّكرارِ.

ونحن نَعْلَم جميعًا أنَّ من القواعِدِ المَعْروفة في الكَلَام أنَّه إذا دار الأَمْرُ بين حَمل الكَلَام على التَّأْسيسِ أو على التَّوْكيدِ وَجَبَ حَمْلُه على التَّأْسيسِ؛ لأنَّه هو الأَصْل، فالأَصْلُ في الكَلَام أن يكون مُسْتَقِلًّا مُؤَسِّسًا لا مُؤَكِّدًا.

والتَّأْسيسُ معناه الأَصْل والأَساس؛ يعني: هذا مَعْنًى جديدٌ غَيْرُ المَعْنى الأوَّل، فإذا قال قائل مثلًا: هـذه الجُمْلَةُ مُؤَكِّدَة للأولى، وقال الثاني: هـذه الجُمْلَة مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسها، فإنَّه يُحْمَل على أنَّها مُسْتَقِلَّة بنفسها.

وأقول: الأحياءُ والأَمْواتُ يُراد به الحياةُ الحِسِّيَّةُ والمَوْت الحِسِّيُّ، فكلٌّ يَعْرِف الفَرْقَ بين الحَيِّ والمَيِّت، حتى الكُفَّارُ يَعْرِفونَ الفَرْق بين الحَيِّ والمَيِّت، والذي يماثل هذه الأشياء النَّفْسِيَّة من الأُمُور المَعْقولَةِ هو مَثَلها.

وَقَوْل المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وزيادَةُ (لا) في الثَّلاثَةِ تَأكيدٌ] هذه الجُمْلَة أفادت أنَّ لدينا زيادَةً، وأنَّ الفائِدَة من الزِّيادَة التَّوْكيدُ، فالزِّيادَة في هذه الثَّلاثِ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ وفي قَوْله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ وفي قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فـ(لا) خَمْسُ مرات، لكنْ جعَلَها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثة؛ لأنَّ المُتقابِلَ فيها ثلاثة، (الظُّلُمـات والنُّور) هذه يريد أن تكون واحِدَة، و(الظِّلّ والحرور) واحِدَةٌ، و(الأحياء والأموات) واحِدَةٌ، المُهِمُّ أنَّ الزِّيادَة التي جاءت في المواضِعِ كُلِّها سواء قلنا: ثلاثَة أو خَمْسة فهي للتوكيد؛ إذ لو قيل: (وما يستوي الأعمى والبصير، والظُّلمات والنُّور، والظِّلّ والحَرور، والأَحْياءُ والأموات) استقام الكَلامُ، لكِنْ يُؤتَى بـ(لا) الزَّائِدَة للتَّوْكيدِ.

وفيها أيضًا فائِدَة ثانِيَةٌ: وهي عَدَمُ السَّآمَة والمَلَل؛ لأنَّها لو حُذِفَـت لطالـت المعطوفاتُ بَعْضُها مع بعض، فكرَّر فيها عامِل النَّفْيِ ليكون أَبْعَدَ عن السَّآمَةِ.

فإن قُلْتَ: هل لذلك نظيرٌ في كِتَاب الله؟

فالجواب: نعم، لهذا نظيرٌ في مواضِعَ كثيرة، منها ما نقرؤه في كل صَلاةٍ: وهي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] إذ لو قال: (غَيْـرِ المَغْضـوبِ عليهم

والضَّالِّين) استقام، لكن زِيدَتْ (لا) للتَّوْكيدِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هِدايَته فَيُجيبُه] أي: المُسْمَعُ [بالإيمان]؛ يعني أنَّ الله تعالى يدعو إلى دار السَّلامِ؛ كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥] دُعَاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى دارِ السَّلام هل يَسْمَعُه كُلُّ أَحَدٍ؟

الجواب: أمَّا من حيث الإدراكِ الحِسِّيِّ فإنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَسْمَعُه، أمَّا من حيث الإجابَةُ فلا، فمن النَّاس من يُجيبُ، ومنهم من لا يُجيبُ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فالله تعالى يُسْمِعُ من يشاء؛ بمَعْنى: من يكون أَهْلًا لاتِّباع هؤلاء الرُّسُل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: (ما) هنا حِجازِيَّة، واسْمُها الضَّميرُ ﴿أَنتَ﴾ والباءُ في ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ زائِدَة للتَّوْكيدِ، و(مُسْمِع): خَبَرُها مَنْصوبٌ بِفَتْحَة مُقَدَّرَة على آخِره منع من ظُهُورها حَرَكَةُ حَرْفِ الجرِّ الزَّائِد.

﴿مَّن﴾: مفعول لـ(مُسْمِع)؛ لأن (مُسْمِع) اسْمُ فاعل.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكُفَّار، شَبَّهَهُم بالمَوتى؛ فيُجيبوا] قَوْله: [فيجيبوا]، في بعض النُّسَخ: (فيُجيبونَ) وهذا خطأ؛ لأنَّ النون يَجِبُ أن تُحْذَف؛ لأنَّه جوابُ النَّفْيِ في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وفي بعض النُّسَخ: (فلا يجيبون)، فهي مُنْفَصِلَة عما قبلها؛ أي: فهم في عَدَمِ إِسْماعِهِم لا يُجيبونَ.

على كُلِّ حالٍ: المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ بِقَوْله: [أي: الكُفَّار] والذي يظهر لي أنَّ المُرادَ به الموتى حَقيقَةً، والرَّسُولُ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُسْمِعُ الموتى حَقيقَةً كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل:٨٠]، فلو أنَّ الرَّسُولَ ﷺ ذهب إلى المَقْبَرة مَقْبَرَةِ الكُفَّارِ، وقال: «يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، واعْبُدوه»، وما أَشْبَه ذلك هل يَسْمَعونَ هذه المَوْعِظَة فينْتَفِعونَ بها؟

الجواب: لا، ما يسمعونها فيَنْتَفِعون بها، ولكنَّنا نقول: نَنْتَقِلُ من هذا إلى أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُسْمِعُ الكُفَّار؛ لأنَّ قُلوبَهم مَيِّتَة، ومَنْ قَلْبُه مَيِّتٌ -والعياذ بالله- فإنَّه لا يَنْتَفِعُ بما يَسْمَع من المواعظ، فكأنَّه لا يَسْمَع.

قَوْله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ إِنْ ﴾ بـ(ما) فقال: [﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ مُنْذِرٌ لهم] وهذا يدلُّ على أن ﴿ إِنْ ﴾ نافِيَة، وقد تقدَّم أنَّ من علامات ﴿ إِنْ ﴾ النَّافِيَة الاسْتِثْناءُ بأن تُتْبَع بـ﴿إِلَّا ﴾، والمَعْنى: ما أنت إلا نَذيرُهُم، والنَّذيرُ كما تَقدَّم هو المُعْلِم إِعْلامًا يَتَضَمَّنُ التَّخْويفَ، فالإِعْلامُ المُتَضَمِّنُ التَّخْويفَ يُسَمَّى إنذارًا.

قَوْله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ هل هذا الحَصْرُ حقيقيٌّ أو إضافِيٌّ؟

الجواب: إضافي؛ لأنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نذيرٌ وبَشيرٌ؛ لكن المَقامَ هنا يقتضي أن يُذْكَر الإنذارُ فقط؛ لأنَّه في مُقارَعَةِ الكُفَّار، ومُقارَعَة الكُفَّارِ تَحْتاجُ إلى الإِنْذارِ أَكْثَرَ مِمَّا تحتاج إلى التَّبْشيرِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ تكونُ مُقابلة بين هذه الجُمْلَةِ والجُمْلَةِ التي قبلها؛ كأنَّه يقول: أنت لا تستطيعُ أن تُوصِلَ الهِدايَة إلى قلوبِ الكافرينَ، ولكِنْ تَسْتَطيع أن تُنْذِرَهُم؛ لأنَّ هذا هو مَقامُك، مَقامُكَ إنذارٌ، أمَّا أن تُوصِلَ الهِدايَة إلى قُلوبِ هؤلاء الكُفَّار الذين يُشْبِهونَ الموتى فهذا ليس إليكَ.

وصدق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما استطاعَ أن يَهْدِيَ أَقْرَبَ النَّاس إليه وأَشْفَقَ النَّاسِ إليه وهو عَمُّه أبو طالب، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يَهْدِيَ أقوامًا من فارس والرُّوم من أَبْعَدِ النَّاس عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَسَبًا ومَكانًا؛ لأنَّ الأَمْرَ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢].

من فوائد الآيات الكريمة (١٩-٢٢):

الْفَائِدَة الأُولَى: بَلاغَة القُرْآن؛ حيث يَنْتَقِلُ بِسامِعِه وقارِئِه من الأَمْثالِ الحِسِّيَّة إلى الأمثال المَعْنَوِيَّة؛ ذلك لأنَّ الأمثال الحِسِّيَّة لا يَمْتَري فيها أَحَدٌ، وليس لأَحَدٍ أن يُجادِلَ فيها؛ لأَنَّك إذا قُلْتَ مثلًا: (هذه لَمبة، وهذا نُورُها) لا أَحَد ينازِعُك فيها؛ لأَنَّه انْتَقَل من المَحْسوسِ إلى المَعْقول المَعْنَوِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ البَصَرِ؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواء بين الأعمى والبصير معناه تَفْضيلُ البَصيرِ؛ ولهذا أَكْثِرْ من دُعَاءِ الله عَزَّوَجَلَّ: «اللَّهُمَّ مَتِّعْنا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنا»[1].

وكذلك أيضًا نقول في: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فإنَّ فيها من بَلاغَة القُرْآنِ ما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وفيها: الانتقالُ من المَثَل الحِسِّيِّ إلى المَثَل المَعْنَوِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تفضيلُ النُّورِ على الظُّلمة؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِواءِ فيهما معناه تَفْضيلُ النُّور على الظُّلمةِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إذا انتقَلْنا من المَثَلِ الحِسِّيِّ إلى المَعْنَوِيِّ فإنَّ طريق الهُدى واحِدٌ وطُرُق الضَّلال مُتَفَرِّقَة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ وذكرنا شاهدًا من القُرْآن على هذا وهو قَوْله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فهناك طاغوتٌ يَجُرُّهم إلى نَوْعٍ من الكفر والفِسْقِ؛ نسأل اللهَ العافِيَةَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا يستوي الظِّلُّ ولا الحرور، وهذا مَثَل حِسِّيٌّ، انتقل منه إلى المثل المَعْنَوِيِّ، وهو ظِلِّ الجَنَّة وحرُّ النَّار وأيُّهما أفضل؟

الجواب: ظِلِّ الجَنَّة؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنْهُمْ وإيَّاكم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْذيرُ من عَمَلِ أَهْلِ النَّار؛ لأنَّ نَفْي الاستواء بين الظِّلِّ والحرور أمرٌ معلوم، وتَأَذِّي الإِنْسَانِ بالحَرورِ أيضًا أمرٌ معلومٌ؛ ففيه: التَّحْذيرُ من عَمَلِ أَهْلِ النَّار.

وهل يُؤْخَذُ من الآيَةِ الكريمَةِ أنَّه: لا حَرَجَ على الإِنْسَان أن يَطْلُبَ الظِّلَّ، وأن يَطْلُبَ النُّورَ؟ الجواب: نعم؛ لأنَّنا ما دمنا ذَكَرْنا أنَّ هذا النَّفْيَ معناه تَفْضيلُ النُّورِ على الظُّلُمات وتفضيل الظِّلِّ على الحرور فلا حرج على الإِنْسَانِ أن يَطْلُب الأَفْضَل، بل قد يَجِبُ أحيانًا؛ ولهذا لَمَّا رأى النَّبِيَّ ﷺ زحامًا ورَجُلًا يُظَلَّلُ عليه والزِّحامُ عليه، لم يَقُلْ: (لا تُظَلِّلوا عليه)، ولكن قال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظُلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم (١٩٤٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيها أيضًا سَببٌ في نظائِرِها، وفيها فَضيلَةُ العِلْم، وهو كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، والعِلْمُ جهادٌ في سبيل الله، وإن شِئْتَ فقل على الأَصَحِّ: العِلْم سلاحٌ للجِهادِ في سبيل الله؛ لأَنَّه قد يَحْمِلُ العِلْمَ من لا يَنْتَفِعُ به ولا يَنْفَعُ غَيْره، فهو سلاحٌ، لكن إذا نَفَعْتَ نَفْسَك وغيرك صِرْتَ مجاهدًا به، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، فالعِلْم سلاحٌ يَتَوَصَّلُ به الإِنْسَانُ إلى الجهاد في سبيل الله.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: قَوْله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيه الحَثُّ على طلب العِلْم، وأَنَّه حياةُ الأُمَّة كما أَنَّه حياةُ الفَرْدِ، فلا يُمْكِن أن تحيا الأُمَّة حياةً -لا أقول حياةً بَهِيمِيَّة، يُمْكِن أن تحيا حياة بَهِيمِيَّة بدون علم- لكن لا يُمْكِن أن تحيا حياةً طَيِّبَة إلا بالعِلْمِ، وكُلُّ النَّاس يَنْشُدونَ الحياةَ الطَّيِّبة لكن ما طَيِّبُها؟

الجواب: العِلْمُ، إذا أَثْمَرَ ثَمَرَتَه وهو الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِح، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فيه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي بِيَدِه مقاليدُ الأُمُورِ؛ حتى أنت يا مُحَمَّدُ، لا تستطيع أن تُسْمِعَ أَحَدًا، بل المُسْمِعُ هو الله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: في قَوْلِه تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ المَشيئَة لله.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنْكِرون أن يكون لأَفْعالِ العبادِ مَشيئَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ ولكنَّ هذه المَشيئَة المُطْلَقَة هنا وفي كل مَوْضِعٍ جاءت مُطْلَقَةً مُقَيَّدَةً بالحِكْمَة؛ لِقَوْلِه

تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَان، بل يَجِبُ على الإِنْسَان أن يَلجَأَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه، في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارِّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ فإذا كان يُسْمِعُنا الله، فلا تُسْأَلْ مِن غَيْرِه، لا تُسْأَلْ إلا مِنَ الله.

ولهذا يَنْبَغي لنا دائمًا أن نكون داعينَ لله عَزَّوَجَلَّ ونَحْنُ نَشْعُر بأنَّنا مُفْتَقِرون إلى الله، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادِرٌ على أن يحقِّق لنا ما نرجوه وما ندعوه به، لا تَعْتَمِدْ على نَفْسِك وتنسى الله، افْزَعْ إلى الله دائمًا في الدُّعَاءِ، في السُّجُود، وبين الأذانِ والإقامة، وفي كلِّ مواطِنِ الإجابة الزَّمَنِيَّة والمكانِيَّة والحالِيَّة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ثم اعلم أيضًا أنَّ الدُّعَاء مع كَوْنِك تَطْلُب حاجَتَكَ من الله هو نَفْسُه أيضًا عِبادَةٌ تَتَقَرَّب بها إلى الله، فتكْسِبُ بهذا الدُّعَاء ثَمَرَتَيْنِ: الثَّمَرَة الأولى: الثَّوابُ على هذه العِبَادَة، والثَّمَرَة الثَّانِيَة: حُصولُ المَطْلوبِ أو دَفْعُ المَكْروهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَسْتَطيعُ أن يُسْمِعَ من في القبور؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فلو أنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى أَهْلِ المَقْبَرَة ودعاهم وقال: (يا أَهْلَ القُبُورِ؛ آمِنُوا بالله ورَسُولِه، يا أَهْلَ القُبُورِ، اعْمَلُوا صَالِحًا) لا يَسْمَعونَ.

فإن قُلْتَ: ما الجوابُ عما ثَبَتَ في الحديث الصَّحيح منَّ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف على قتلى المُشْركينَ في قَليبِ بَدْرٍ، وجَعَلَ يدعوهم بأَسْمائِهِم وأَسْماءِ آبائِهِم، فقال: «يا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام، يا شَيْبَةُ بْنَ رَبيعةَ، يا عُتْبَةُ بْنَ رَبيعَةَ، يا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَني رَبِّي حَقًّا؟» قَالُوا: كَيْفَ تُكَلِّمُ

قَوْمًا قَدْ جَيَّفُوا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا؟ قَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[1]؛ يعني: أنَّهم يَسْمَعون، فما الجواب؟ قال قتادة: «أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا»[2] ومَعْنى كَلَامه أنَّه خاصٌّ بهؤلاء.

فإن قُلْتَ: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصَّحيح أيضًا من أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمِ»[3]؟

فالجواب: أنَّ هذا عند الدَّفْنِ، وأيضًا لا يَلْزَمُ من سَماعِ قَرْعِ النِّعالِ أن يسمع الكَلَام والدَّعْوة.

وإن قلتَ: ما الجواب عما رواه أبو داودَ وغَيْرُه وصَحَّحه ابنُ عَبْدِ البَرِّ[4] ولم يخالِفْه ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ[5] من أنَّه: «ما من مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ على قَبْرِ كان يَعْرِفُه في الدُّنْيا إلا رَدَّ الله عليه رُوحَه فَرَدَّ عليه السلام».

فالجوابُ: أن يقال: هذا في حالٍ مَخْصوصَةٍ دلَّ عليها الحديثُ، ولا يَلْزَم من هذا، إذا سَمِعَ (السَّلام عليك) وهو دُعَاءٌ له أن يَرُدَّ السَّلامَ على من سَلَّم، أن يَسْمَعَ كُلَّ من تكلَّم عنده.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٩٧٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، رقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار (١/ ١٨٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) الروح (ص٥).

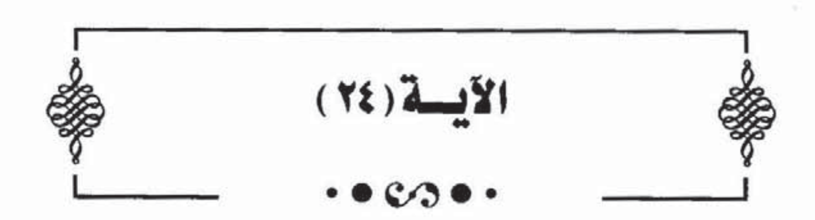
فإن قلت: ما الجوابُ عما قاله الفُقَهاء من أنَّ المَيِّتَ يتأذَّى بِقَوْلِ المُنْكَر عند قَبْرِه أو فِعْلِ المُنْكَر عند قَبْرِه؟

فالجوابُ: أنَّ قَوْلَ الواحِدِ من النَّاس غَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ ليس بحُجَّة، وإنَّما يُحْتَجُّ له لا به، ثُمَّ على رَأْيِهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَحْمِلون مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: بِمُسْمِعٍ من تدعوهم إلى الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِح، فإنَّك لا تُسْمِعُهم سَماعًا يَسْتَجيبونَ له، وهذا هو الجوابُ الأخيرُ عن قَوْل من يقول: إنَّ الموتى يَسْمَعونَ ما يقال عندهم ويُخاطَبون به، فَقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: سَماعًا يَنْتَفِعون به ويَسْتجيبونَ له. والله أعلم.

والواجِبُ على المُؤْمِن نحو هذه الأُمُور الغَيْبيَّة أن يُؤْمِنَ بما جاء به النَّصُّ فقط، بل يَجِبُ عليه أن يقول: العِلْمُ عند الله، فلا يَجْزِم بالنَّفْيِ، ولا يجزم بالإثباتِ، نعم، له أن يَجْزِمَ بالنَّفْي ويَجْعَل ما ثبت به الحديثُ من السَّماعِ مُخَصِّصًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ وفي الآيَة الأخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مُحَمَّدًا رسولَ الله ﷺ ليس إلا مُبَلِّغًا ومُنْذِرًا، وليس في يَدِهِ جَلْبُ الهِدايَة لأَحَدٍ، ولا دَفْعُ الضَّرَر عنه؛ لأنَّه قال: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني: ما أنت هادٍ للنَّاسِ هِدايَةَ تَوْفيقٍ وإرْشادٍ، ولكنك مُنْذِرٌ فأنت هادٍ هِدايَةَ بيانٍ فقط.

••۞••



الآيــة (٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

•••

قوله: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإرسال بمَعْنى الأَمْـرِ بالتَّبْليغِ أو بِقَضاءِ الحاجَـةِ؛ فمثلًا تقول: (أَرْسَلْتُ غلامي يُخْبِرُ فلانًا بكذا وكذا؛ يعني أَمَرْتُه بالتَّبليغِ) أَرْسَلْتُ غلامي يشتري كذا وكذا؛ أي: أَمَرْتُه أن يَشْتَرِيَ الحاجَةَ.

قَوْله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يُحْتَمَل أن تكون الباءُ للتَّعْـدِيَة؛ أي أَنَّنا أعطينـاكَ حَقًّا وأرسلناك به، ويُحْتَمَل أن تكون وَصْفًا للرِّسالَة؛ يعني: أرسلناك رِسالَةَ حَقٍّ، والمَعْنى يَخْتَلِفُ.

فعلى المَعْنى الثاني يكون مَعْنى الآيَة أنَّ رِسالَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَـقٌّ، وعلى المَعْنى الأَوَّل يكون معناها: أنَّ الرَّسُول ﷺ جاء بالحَقِّ، وإن كان المعنيان متلازِمَينِ، لَكِنَّهما مُخْتَلِفانِ من حيث المَوْرِدُ؛ فعلى الأَوَّل يكون مَوْرِدُ الوَصْفِ الرِّسالَةَ نَفْسَها، وعلى الثاني يكون مَوْرِدُ الوَصْفِ المُرْسَلَ به.

قَوْله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أعطينـاك حَقًّا تُبَلِّغُه للنَّاسِ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إنَّ رسالتنا إليك حَقٌّ، فيكون وَصْفًا للرِّسالة نَفْسِها؛ يعني: لسْتَ بكاذِبٍ بل أنت صادِقٌ، هذا على جَعْلِنا الوَصْفَ عائِدًا للرِّسالَة أَمَّا إذا جعلناه عائدًا على

المَوْصوفِ به، فالمَعْنى أنَّ ما جِئْتَ به ليس بباطِلٍ، بل هو صِدْقٌ في الأَخْبار وعَدْلٌ في الأَحْكَامِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾: من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ إليه] فـ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني أنَّك تُبَشِّر وتُنْذِر، لكن تُبَشِّر بالخَيْر من أجاب، وتُنْذِر بالعقوبة من لم يُجِبْ وعصى؛ وذلك لأنَّ الشَّرْعَ يَتَضَمَّن أوامِرَ ونواهِيَ، فمن ارْتَكَبَ النَّواهِيَ أو تَرَكَ الأَوامِرَ واجهناه بالإنذارِ، ومن فعل الأوامِرَ واجْتَنَبَ النَّواهِيَ قابلناه بالبِشارَةِ.

قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِن﴾ نافية، و﴿مِّنْ﴾ حرف جَرٍّ زائدٌ زائد -ويجوز أن نقول: (زائدٌ زائِدًا) على أنَّ (زائدًا) حالٌ من الضَّمير المُسْتَتِرِ في (زائِد) الأُولى- المُهِمُّ أنَّه زائِدٌ لفظًا زائدٌ مَعْنًى، و﴿أُمَّةٍ﴾ مُبْتَدَأٌ، وجُمْلَة ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ خَبَرُها.

والأُمَّةُ هي الطَّائِفَة من النَّاس التي على مَنْهَجٍ واحِدٍ؛ كدين واحد، أو قَوْمِيَّة واحِدَة، أو ما أشبه ذلك، فهذه الأُمَّة، وليس كُلُّ طائِفَة نُسَمِّيها أُمَّة؛ فمثلًا: أنتم الآن لا نُسَمِّيكم أُمَّة إلَّا لأنَّكُم على طريقٍ واحِدٍ، لكن لو اجْتَمَعَتْ جماعَةٌ في مكان مُتَشَتِّينَ، كلٌّ واحِدٍ له مَنْهَجٌ لا نقول: هؤلاء أُمَّةٌ، إلا إذا كانوا من قبيلَةٍ واحِدَة، أو ما أشبه ذلك.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نبِيٌّ يُنْذِرُها].

يعني: كُلُّ الأُمَم أَرْسَل الله إليهم نذيرًا؛ لتقوم عليهِمُ الحُجَّة؛ لأنَّه إذا لم يَكُنْ للنَّاسِ نذيرٌ فإنَّ لهم حُجَّة على رَبِّهم، يقولون: يا رَبَّنا ما أَرْسَلْتَ إلينا رُسُلًا.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه:١٣٤].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- الكَلَامُ على ما في قَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من الإِشْكالِ، والجوابِ عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ الخطابُ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ للنَّبِيِّ ﷺ، والإِرْسالُ هو تَحْميلُ المُرْسَلِ شيئًا يُبَلِّغُه إلى المُرْسَلِ إليه؛ والجُمْلَةُ مُؤَكَّدَة بـ(إنَّ)، وتوكيدُ الجُمْلَة يدلُّ على الاهتمامِ بها؛ من أَجْلِ أن يُؤْمِنَ الإِنْسَانُ بها إيمانًا كاملًا.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباءُ هنا إمَّا أن تكون للتَّعْدِيَة، تقول: (أرسلته بكذا) لبيانِ المُرْسَلِ به، وإمَّا أن تكون للمُصاحَبَة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالهدى] وكأنَّه أخذ هذا التَّفْسيرَ من قَوْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التَّوْبَة:٣٣]، ولكنَّ الصَّحيحَ في الآيَة أنَّ المُرادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، فيشمل الصِّدْق في الخَبَر والعَدْل في الأَحْكَام؛ أي: بالصِّدْقِ في الأَخْبار والعَدْل في الأَحْكَام، وليس الهُدَى فقط، بل الهُدى والصَّلاح، والإِصْلاح، وغير ذلك.

وأمَّا في قَوْلِه تعالى: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التَّوْبَة:٣٣]، فنعَم، مُمكِنٌ أن نقول: المُراد بالهدى هناك العِلْمُ النَّافِع؛ لأنَّه ذَكَر الهدى وذكر الدِّين، فذَكَرَ العِلْم والعَمَل، أمَّا هنا فلا يَنْبَغي أن نَقْتَصِر على قَوْلنا: (الحَقِّ)؛ أي: الهُدَى، بل نَجْعله أَعَمَّ من ذلك؛ لِيَشْمَل الهدى الذي هو العِلْم، ويشمل دِينَ الحَقِّ الذي هو الرُّشْد والصَّلاح

والإِصْلاح، فالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد تَضَمَّنَت رسالَتُه العُلوم النَّافِعَة كُلَّها والصَّلاح للخَلْق في معاشِهِم ومعادِهِم، وما جاء به فقد تَضَمَّن الصِّدْقَ في الأَخْبار والعَدْلَ في الأَحْكَام.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ حالٌ من الكافِ في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بمَعْنى: (مُبَشِّر).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ مَن أجابَ إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَن لم يُجِبْ إليه] والبِشارَةُ هي الإخبار بما يَسُرُّ، وقد تُسْتَعْمَل في الإخبار بما يَسوءُ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، وأَمَّا الإنذارُ فهو التَّخْويف؛ أي: الإِعْلَامُ بما يُخَوِّفُ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت رِسالَتُه بشارَةً وإنذارًا؛ لأَنَّها إمَّا أمرٌ يُبَشَّرُ فاعِلُه بما يَقْتَضيه ذلك الأَمْرُ، وإمَّا نَهْيٌ يُخَوَّفُ صاحِبُه من ارْتِكابه، فالشَّريعَة كُلُّها بِشارَةٌ ونِذارَةٌ.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا﴾ من لم يُجِبْ] قد يقال: إنَّ الأَوْلى إبقاءُ الآيَة على عُمُومها؛ أي: بشيرًا لِمَن أجاب إليه ونذيرًا له في الوَقْتِ نَفْسِه؛ لأَنَّ من أجاب أيضًا يَحْتاجُ إلى إنذارٍ، فتكون البِشارَةُ والإنذارُ شامِلَةً لمن أجاب ومن لم يُجِبْ، حتى من لم يَجِبُ يُبَشَّرُ إن أجاب.

قَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: ﴿وَإِن﴾ بمَعْنى (ما) فهي نافِيَة، وقد ذكرنا لـ(إن) النَّافِيَة ضابطًا، لَكِنَّه لا يُحيطُ بِجميعِ موارِدِها، وهو أَنَّه: إذا أَتَتْ بعدها (إلا) فهي نافِيَة؛ مثل قَوْله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٧]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧] ومنها أيضًا هذه الآيَة: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ

إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

﴿مِنْ﴾ زائِدَةٌ زائِدَةٌ؛ زائِدَةٌ إِعْرابًا، زائِدَةٌ مَعْنًى.

فإن قُلْتَ: كيف تكون زائِدَةً زائِدَةً؟

قلنا: لأنَّ زاد يُسْتَعْمَلُ لازمًا ومُتَعَدِّيًا، فيقال: (زاد الطِّينُ بِلَّةً) هذا مُتَعَدٍّ، ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التَّوبَة:١٢٤] هذا مُتَعَدٍّ أيضًا، وتقول: (زاد المالُ) فهذا لازم، فـ(زائِدَة) الأُولى من النَّاقِص الذي لا يتعدَّى، و(زائِدَة) الثانية من المُتَعَدِّي.

قَوْله تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾: وأُمَّة مُبْتَدأ مَرْفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَة على آخرها منع من ظهورها اشْتِغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

قَوْله تعالى: ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَلَا﴾ بمَعْنى سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نبيٌّ يُنْـذِرُها] والأُمَّةُ هنا بمَعْنى الطَّائِفَة، وتأتي في القُرْآن على أربعة أوجه:

فتكون بمَعْنَى (الطَّائِفَة) كما هنا.

وتكون بمَعْنى (الزَّمَن) مثالها: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

وتكون بمَعْنى (الدِّين والمِلَّة) كما في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

وتكون بمَعْنى (الإمام) مثل قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل:١٢٠].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ أي: سَلَـفَ ومضى ﴿نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُها؛ وذلك لتقومَ الحُجَّة على العباد؛ لأنَّ العُقُولَ مهما بَلَغَتْ لا يُمْكِن أن تعرف ما يَجِبُ

لله عَزَّوَجَلَّ من الحُقوق، كما لا يُمْكِن أن تَعْرِف ما يَجِبُ له من الأَسْماءِ والصِّفات على سبيل التَّفْصيل، وإن كان العَقْل يُدْرِك أنَّ الإِنْسَان لا بُدَّ أنْ يَعْبُدَ خالِقَه، ويُدْرِك أنَّ الخالِقَ لا بُدَّ أن يكون مُتَّصِفًا بِصِفاتِ الكَمالِ، لكنْ على سبيل الإِجْمالِ لا على سبيل التَّفْصيلِ، فمن أجل ذلك أَرْسَل الله الرُّسُل؛ لتقوم الحُجَّةُ على العباد.

فما من أُمَّةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ، قد يكون الأنبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في أمكنةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وقد يكون الأَنْبياءُ في وقتٍ واحِدٍ في مكانٍ واحِدٍ، أَمَّا أن يوجد مكانٌ واحِدٌ لم يكن فيه نبِيٌّ فهذا لا يُمْكِن، لا بُدَّ أن تكون جميعُ الأُمَم قد بعث إليها الرُّسُلَ، ونظير هذا قَوْله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبوتُ رِسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ على وجْهٍ مُؤَكَّدٍ لا مِرْيَةَ فيه، لِقَوْله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة النَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِه رسولَ رَبِّ العالَمِينَ، فإنَّ الرِّسالَة مقامٌ عظيمٌ لا ينالُها إلا من هو أَهْلٌ لها؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣] وهم؛ أي: الرُّسُلُ مُفَضَّلون على من سواهم من الخَلْق، ففي الآيَة فَضيلَةٌ ومَنْقَبةٌ لرسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ ما يَشْتَمِل عليه دينُ الرَّسُول ﷺ من الحَقِّ الذي ضِدُّه الباطِل، والباطِلُ إن كان في الأَخْبارِ فهو الكَذِب، وإن كان في الأَحْكَام فهو الجَوْرِ والظُّلمِ.

وعليه فرِسالَة النَّبيِّ ﷺ مُتَضَمِّنةٌ للحَقِّ في الأَخْبار والأَحْكَام؛ ففيه بيان فَضيلَةِ هذه الشَّريعَةِ الإِسْلامِيَّة التي جاء بها النَّبيُّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كل ما كان حَقًّا فإنَّ الشَّريعَة جاءت به سواء نَصَّت عليه بمعناه الخَاصِّ أو بالمَعْنى العامِّ، ومن ثَمَّ أَثْبَتَ بعض الفقهاء أو بَعْض الأُصُولِيِّين ما يُسَمَّى بالمصَالِح المُرْسَلَة، وجعلوها دليلًا مُسْتَقِلًّا، والصَّوابُ أنَّها ليست دليلًا مُسْتَقِلًّا؛ لأنَّ هذه المصَالِحَ إن شهد الشَّـرْعُ لها فهي من الشَّـرْعِ ولا حاجة إلى أن نَجْعَلَها دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإن لم يَشْهَد لها فَلَيْست بمَصْلَحَة، وصاحِبُها الذي زَعَمَها مَصْلَحَةً يُعْتَبَرُ واهمًا؛ فكوننا نُثْبِتُ دليلًا خامسًا نُسَمِّيه المصَالِحَ المُرْسَلَة هذا خطأٌ؛ لأنَّ هذه المَصْلَحَةَ إن شهد لها الشَّرْعُ فهي من الشَّرْعِ دلَّ عليها الكِتَاب والسُّنَّة، وإن لم يَشْهَد لها فلَيْسَتْ بمَصْلَحَة، فلا تُعْتَبَر.

ومن ذلك أيضًا زعْمُ بَعْضِهم استحـداثَ دليلٍ سادسٍ: وهو اسْتِصحابُ الحال؛ بمَعْنى أنَّ الأَمْرَ يبقى على ما كان عليه حتى يَتبَيَّنَ ارتفاعُه وانتفاؤُهُ، هذا أيضًا ليس بصوابٍ؛ يعني: لا يَصِحُّ أن نَجْعَلَه دليلًا مُسْتَقِلًّا؛ لأنَّه قد دلَّت عليه السُّنَّة.

فقد شُكِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»[1].

إذن: نَبْني على بقاءِ الأَصْلِ واسْتِصْحابِ الحالِ، وحينئذٍ لا نحتاج أن نجعل هذا دليلًا مُسْتَقِلًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث..، رقم (٣٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنَّما جَعَلَ بعضُ العُلَماء هذينِ الدَّليلَيْنِ مُسْتَقِلَّين؛ لأنَّ الإِنْسَانَ يَنْقَدِح في ذِهْنه أنَّ هذا شَيْءٌ مُنْفَصِل عن دَلالَة الكِتَابِ والسُّنَّة، فيَذْهَب ويَجْعَلُه دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإلا فلو تأمَّلَ لوجد أنَّ ذلك موجودٌ في الكِتَاب والسُّنَّة، وأنَّه لا حاجَةَ إلى أن نُثْبِتَه دليلًا مُسْتَقِلًّا.

ولقد تَجَرَّأ بعض المُتَأَخِّرين على الدَّليلِ الأَوَّلِ وهو المَصَالِحُ المُرْسَلَة حتى أدخل فيه ما شَهِد الشَّرْعُ بِبُطْلانِه، ومن ذلك قَوْلُهُم بِإِجازَةِ الرِّبا البَنْكِيِّ، وأنَّه يجوز بناءً على ما تَوَهَّموه من المَصَالِح المُرْسَلَة، وقالوا: إن اقْتِصادِيَّاتِ العالَمِ في العَصْرِ الحاضِرِ لا تَتِمُّ إلا باستعمال هذه الطَّرِيقَة، فالأَلْفاظُ والأَساليبُ إذا جاءت على غَيْرِ ما جاء في الكِتَابِ والسُّنَّة يحصل بها مَفْسَدَةٌ.

فهنا أدخلوا شيئًا شَهِدَ الشَّرْعُ بِبُطلانِه، وإذا شَهِدَ الشَّرْعُ بِبُطْلانِه فإننا نَشْهَد أنَّه ليس فيه مَصْلَحَةٌ، وأنَّ المَصْلَحَةَ المَوْهومَة منه يَخْلُفُها مفاسِدُ كثيرةٌ؛ فلهذا نحن نرى ألَّا تُجْعَلَ دليلًا مُسْتَقِلًّا، وإلا فليسَ من الشَّرْعِ وليس فيه مَصْلَحَةٌ، والمَصالِحُ المَوْهومَة فيه إذا كانت مُخالِفَة للشَّرْعِ فلا بُدَّ أن يَخْلُفَها مَفاسِدُ كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ رِسالَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتَضَمَّنُ من حيث الجزاءُ أَمْرَيْنِ؛ هما: البِشارَة والإِنْذار؛ فالبِشارَة لمن أطاع، والإِنْذار لمن خالَفَ سواءٌ كانت تلك الطَّاعَةُ عامَّة أو في بَعْضِ الأشياء، وكذلك نقول في المُخالَفَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإِنْسَان يَجْتَمِعُ فيه خَصْلتانِ مُتَضادَّتانِ في المَعْنى وإن كانتا مُتَّفِقَتَيْنِ في المُراد: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ لأنَّ المُبَشِّر هو الذي يَعِدُ النَّاس بالخَيْر ويفْتَحُ لهم باب الرَّجاء، والمُنْذِر هو الذي يُخَوِّفُهم من الضَّارِّ، فبينهما من حيث المَعْنى تَقابُلٌ، وهما يَجْتمعانِ في عَيْنٍ واحِدَة.

وهل نَنْتَقِل من هذه الفائِدَة إلى: أنَّ الإِنْسَانَ قد يَجْتَمِع فيه خِصالُ الإيمـانِ وخِصالُ الكُفْر؟

الجواب: إذا رَأَيْتَ جَيْشًا مُقْبلًا على البلد فأنا أُنْذِرُهم لا أُبَشِّرُهم، لكن إذا رأيت الجيشَ قد انْصَرَفَ فأنا أُبَشِّرُهُم.

وعلى كُلِّ حالٍ: المعلومُ من مذهب السُّنَّة والجماعَةِ -وهو الحَقُّ- أنَّ الإِنْسَان قد تَجْتَمِعُ فيه خِصالُ الإيمان وخِصالُ الكفر، فيكون مُؤْمِنًا من وَجْهٍ وكافِرًا من وَجْهٍ.

كقَوْله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»(١)، وقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(٢) مع أنَّ قتاله لا يُخْرِجُه من الإيمان؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مآلَ النَّاسِ إمَّا إلى جَنَّة وإمَّا إلى نارٍ، وليس ثَمَّةَ دارٌ ثالِثَة؛ لأنَّ البِشارَة بالجَنَّة والإنذارَ بالنَّار، وليس هناك دارٌ ثالثة يصل النَّاسُ إليها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب، رقم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّرْغيبُ في طاعة الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ والتَّخْويفُ من مُخالَفَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: لُطْفُ الله تعالى بعباده بإرسالِ الرُّسُلِ إلى جميع الخَلْق، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقد بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ يعني: إلا لِنَرْحَمَ بك العالَمِينَ، وليس الرَّسُولُ نَفْسُه هو الرَّحْمَةَ، ولَكِنَّه أُرْسِلَ ليَرْحَمَ اللهُ الخَلْقَ بِرِسالَتِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بُطْلانُ الاحْتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعْصِيَةِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ولو كان الاحْتِجاجُ بالقَدَرِ على المعاصي والمُخالَفاتِ لو كان ثابتًا لم يَرْتَفِعْ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ القَدَرَ لا يَرْتَفِع بإرسالِ الرُّسُلِ، فالرُّسُلُ أَرْسَلَهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إقامةً للحُجَّة على الخَلْق ورَحْمَةً بهم أيضًا، لهذا ولهذا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيَانُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ليس ببِدْعٍ من الرُّسُلِ حتى تُنْكَرَ رِسالَتُه، ويقال: كيف جاء هذا الرَّجُلُ بِرِسالَةٍ من عند الله؟

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ويَشْهَدُ لهذا قَوْلُه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قُصورُ العُقُولِ عن مَعْرِفَة ما يَجِبُ لله تعالى؛ لأنَّها لو اسْتَقَلَّت بذلك ما احتاجت إلى إرسالِ الرُّسُل.

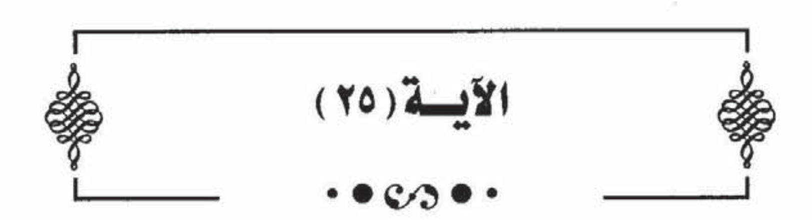
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بُطْلانُ ما ذهب إليه المُتكَلِّمونَ مِن أَهْلِ البِدَع الذين بَنَوْا عَقيدَتَهم على ما يَقْتَضيهِ العَقْل، وقالوا: ما اقتضى العَقْلُ إثباتَه لله أَثْبَتْناه سواء كان مَذْكورًا في الكِتَاب والسُّنَّة أم لم يُذْكَر، وما نفاه العَقْلُ وَجَبَ علينا نَفْيُه وإن ذُكِرَ في

الكِتَاب والسُّنَّة، وما لم يدلَّ العَقْلُ على نَفْيِه وإثباتِهِ فإننا نَتوَقَّفُ فيه، وأَكْثَرُهُم قالوا: نَنْفيهِ؛ لأَنَّه لا بُدَّ من دَلالَةِ العَقْلِ على إثباته، فإذا لم يَدُلَّ على إِثْباتِهِ وَجَبَ نَفْيُه لِعَدَمِ وُجودِ الدَّليلِ.

وهذا يؤخذ من قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَوَجْهُ ذلك أَنَّه لو كانت العُقُولُ هي المَرْجِعَ ما احْتِيجَ إلى إِرْسالِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الأمر كُلَّه لله، ليس لأَحَدٍ مُشارَكَتُه فيه حتى أعظم النَّاس مَنْزِلَةً لا يشارِكُ الله تعالى فيما يَخْتَصُّ به؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ ومَعْلومٌ أنَّ مقامَ المُرْسِل أعلى من مقامِ المُرْسَل.

• ● ۞ ● •



الآيـة (٢٥)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [فاطر:٢٥].

• • ● • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي: أَهْلُ مَكَّة] هذا تَفْسيرٌ لـ(الواو) في قَوْله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: فليس بِبِدْع أن يُكَذِّبَك قَوْمُك؛ لأنَّ الذين من قبلهم كَذَّبوا الرُّسُل، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤]؛ يعني: ليس الأَمْرُ مُقْتَصِرًا على التَّكْذيب فقط، بل تَكذيبُ وأَذِيَّة بالقَوْل وأَذِيَّة بالفِعْل، بل أَعْظَمُ من ذلك القَتْل؛ فإنَّ كثيرًا مِمَّن أَرْسَل الله إليهم الرُّسُلَ قَتَلوهم.

وخصَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأَهْلِ مَكَّة، والصَّحِيحُ أنَّه ليس خاصًّا بأَهْل مَكَّة، بل أَهْلُ مَكَّة وغَيْرهم، فالرَّسُول كَذَّبَه أَهْل مَكَّة وكَذَّبَه أَهْل الطَّائِف[1] وغيرهم من المُشْرِكين، فالصَّوابُ العُمُومُ.

قَوْله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والمفعولُ مَحْذُوفٌ؛ أي: فقد كَذَّبَ الذين من قبلهم رُسُلَهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩-٤٢٠).

قَوْله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ومع ذلك كفروا ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هذه الباء للمُصاحَبَة؛ يعني: جاؤوا مُصْطَحبينَ هذه الأَشْياءَ، ويُحْتَمَل أنَّها للتَّعْدِيَة، كما تقول: (أَتَيْتُ بِدِرْهَم، أتيت بِطَعامٍ، أَتَيْتُ بِشَرابٍ)، وما أشبه ذلك؛ يعني: أَتَوْا بالبَيِّنَة التي تُبَيِّنُ صِدْقَهُم، وتَفْسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للبَيِّناتِ بالمُعْجِزاتِ، هذا هو تعبيرُ كثيرٍ من المُتَأَخِّرين، ولكنَّ الصَّوابَ أن يقال: (بالآيات)، وأنَّ البَيِّناتِ هذه هي صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذُوفٍ، تَقْديره: (بالآياتِ البَيِّناتِ)؛ أي: الظَّاهِرَة.

والآياتُ التي جاءت بها الرُّسُلُ حِسِّيَّة ومَعْنَوِيَّة، فمن الآياتِ الحِسِّيَّة: ما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من العصا، واليد، وغير ذلك، ومن الآيات المَعْنَوِيَّة: ما جاء به من التَّوْراةِ، وكذلك عيسى وغيرهما من الرُّسُلِ، كلُّ رسول لم يأتِ إلا ببَيِّنَة.

وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ**»[1]، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه ليس من الحِكْمَة ولا من الحُجَّة ولا من الرَّحْمَة أن يُرسَل رسولٌ إلى الخَلْق يَسْتَبيحُ دماءَ المُخالِفينَ له وأَمْوالَهم ونِساءَهُم بدون بَيِّنَةٍ حتى لو فُرِضَ أنَّ أَحَدًا كَذَّبه وهو لم يأتِ ببَيِّنَة لكانَ المكذِّبُ مَعْذورًا؛ لأنَّ البَيِّنَة على المُدَّعِي، فكان من حِكْمَةِ الله ورَحْمَتِه وإقامَةِ حُجَّته أن يجعل مع الرُّسُل آياتٍ تَشْهَدُ بِصِدْق ما جاؤوا به.

وقد ذكر أَهْلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّ الآياتِ التي جاء بها الرُّسُل -ولا سيَّما الآياتُ الحِسِّيَّةُ- تكون مناسِبةً لِأَبْرَزِ الأُمُور في عَصْرِهم، وضربوا لذلك مثلًا بأنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

موسى ﷺ جاء بالعصا واليد؛ لأنَّه اشْتُهِرَ في عصره وبرز في عَصْرِه صِناعَةُ السِّحْرِ؛ فجاء بأمرٍ فوق ما تَجِيءُ به السَّحَرَة؛ السَّحَرَةُ إنَّما يُمَوِّهونَ ويُخَيِّلونَ، وهو جاء بالحَقيقَة.

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦] يُخَيَّل إليه، ولَكِنَّه ليس بحَقيقَةٍ، هو ألقى عصاه فصار حَقيقَةً فِعْلِيَّة تَلْقَفُ ما يَأْفِكون.

قالوا: وعيسى ﷺ أتى في وقتٍ تَرَقَّتْ فيه صناعة الطِّبِّ، فجاء بأمرٍ يَعْجِزُ عنه الأَطِبَّاء ولا يَسْتَطِيعونَه؛ جاء بإِبْراء الأَكْمَهِ، والأَبْرَصِ، وإحياءِ الموتى، وخَلْقِ صُورَةٍ من الطِّينِ يَنْفُخُ فيها فتطيرُ؛ أي: تكون طيرًا حَقِيقِيًّا.

وهذا يَعْجِزُ عنه الطِّبُّ، فلا يُمْكِن لأيِّ طَبيبٍ يكون أمامَه رَجُلٌ مَيِّتٌ، فيقول: (قم) فيقوم، أبدًا، لا يُمْكِنُ لأيِّ طبيب يأتي إلى المقابِرِ ويَقِفُ على القَبْرِ ويقول: (اخْرُج) فيَخْرُج، وعيسى يفعل ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠] فهو يُخْرِجُهم من مَدافِنِهم، ولا يُمْكِن لأيِّ إِنْسَانٍ من الأَطِبَّاء أو غَيْرِهم أن يَخْلُقَ من الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخ فيه فيطير، أبدًا.

فالأَكْمَهُ والأَبْرَصُ لا يُمْكِن لأَحَدٍ أن يُبْرِئَه من المَرَضِ الذي أصابه بِمِثْل ما يُبْرِئُه عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يُؤتَى إليه بِذَوِي العاهات ويَمْسَحُ بِيَدِه عليه ويَبْرَأ، يزول؛ يعني: هذا البَرَص الذي ملأ الجِلْدَ أو أَكْثَره يُمِرُّ يَدَه عليه فلا تتعدى يَدُه مكانًا إلا عاد على طَبيعَتِه، هذا لا يَسْتَطِيع أَحَدٌ من الأَطِبَّاءِ مهما بلغ في الطِّبِّ أن يصل إلى هذه الحالِ.

قالوا: ومُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتى إلى قومٍ قد بَلَغوا في البَلاغَة ذِرْوَتَها، فجاء بكَلَامٍ لا يَسْتَطِيعونَ مُباراته أبدًا، وهو كَلَامُ الله، وتَحدَّاهم الله تعالى في عِدَّة آياتٍ أن يأتوا بسورة من مِثْلِه، أو بِعَشْر سورٍ مِثْلِه، أو بِحَديثٍ منه، فلم يَسْتَطِيعوا.

المُهِمُّ: أنَّ جميعَ ما جاءت به الرُّسُل آياتٌ بَيِّناتٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: كصُحُفِ إبراهيمَ] الزُّبُر جَمْعُ زبورٍ، وهو ما يُزْبَرُ ويُؤَثَّر؛ يعني: الكِتَاب، ولو أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (كَزَبورِ داودَ) لكان أَنْسَبَ للآيَةِ؛ لأنَّ صُحُفَ إبراهيم ما ذكر الله عنها أنَّها زُبُرٌ، ولكن ذكر: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ هو التَّوْراةُ والإِنْجيلُ] الصَّواب أنَّ الكِتَاب المُنيرَ ليس التَّوْراة والإِنْجيل، بل كُلُّ كِتَابٍ بَعَثَ الله به الرَّسُولَ يُنيرُ الطَّرِيقَ لِأُمَّتِه، فيشمل التَّوْراة، والإنجيل، والزَّبُور، وصُحُف إبراهيم، وغير ذلك، ما من رسولٍ أَرْسَلَه الله إلا معه كِتَاب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة:٢١٣].

فلا يُمْكِن أن نقول: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلَ بدون كِتَابٍ أبدًا، لا بُدَّ أنَّه أُرْسِلَ بكِتَاب، لكن لا يَلْزَمُ من كونه أُرْسِلَ به أن يُذْكَر لنا هذا الكِتَاب.

قَوْله: [فاصبر كما صبروا] وهل صَبَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: نعم، صبر صبرًا لا يَصْبِره إلا أولو العَزْم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ تَكْذيبَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس بِبِدْعٍ من البَشَرِ؛ فقد كَذَّبَتِ الأُمَمُ قبله ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِنايَةُ الله تعالى بالرَّسُولِ ﷺ بِذِكْرِ ما يُسَلِّيه ويُهَوِّن عليه الأَمْرَ.

وذِكْرُ المُصيبَةِ المُماثِلَة تَقْتَضي تَسْلِيَةَ الإِنْسَانِ وتَهْوينَ الأَمْرِ عليه؛ ولهذا لو جئتَ إلى مريض وقُلْتَ: (والله أنت اليومَ طَيِّبٌ، ومَرَضُك أَهْوَنُ من مرض فلان، فلانٌ أُصيبَ بِمَرَض كذا وكذا) فإنَّه يَتَسَلَّى بلا شَكٍّ وكذلك لو أصيب بحادِثٍ، وقلت: إنَّ فلانًا أصيب بحادِثٍ أَعْظَمَ فإنَّه يتسَلَّى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إنذارُ المُكَذِّبين لرسولِ الله ﷺ؛ لأنَّ الله ذكر كَيْفَ كَانَ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:١٠٩] وكانت عاقِبَتُهم الدَّمارَ والهَلاكَ، وقد أشار الله إلى هذا في قَوْله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠] يعني: لا تَظُنُّوا أنَّ الدَّمارَ الذي لَحِقَ المُكَذِّبينَ السَّابقينَ؛ لا تَظُنُّوا أنَّه خاصٌّ بهم، بل إذا كَذَّبْتم أصابكم ما أصابَهُم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يَتْرُكِ الرُّسُلَ هَمَلًا، بل آتاهُم من البيِّنات ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البَشَر؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَمامُ حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ ورَحْمَته وإقامة حُجَّته، وهذا مَأْخوذٌ من قَوْله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لأنَّه إنَّما أعطى هؤلاء الرُّسُلَ البيِّناتِ لِتَمامِ إقامَةِ الحُجَّة والرَّحْمَةِ والحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مِن أَعْظَمِ البيِّناتِ ما جاءت به الرُّسُلُ من الشَّرائِعِ التي

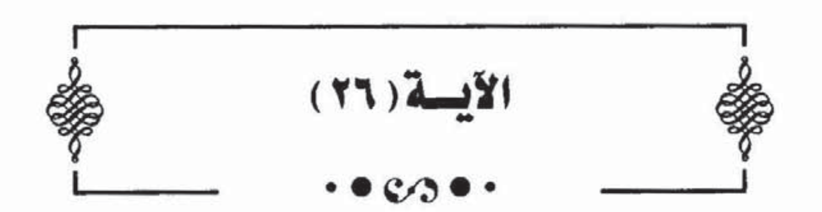
تَضَمَّنَتْها الكُتُبُ؛ وجه ذلك: التَّنْصيصُ عليها مع أنَّها من البيِّناتِ، وأيضًا هو تنصيصٌ أُعيدَ معه العامِلُ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ﴾ فكأنَّها مُسْتَقِلَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُتُبَ السَّماوِيَّة مُتَضَمِّنةٌ للنُّور، وأنَّ كُلَّ من أخذ بها فقد أخَذَ بنورٍ يَمْشي به في الظُّلُمات؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ المُفْرَد إذا أريد به الجِنْسُ صار عامًّا؛ لأنَّ قَوْله تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا مُفْرَد، ولكن هل الكُتُب التي جاءت بها الرُّسُلُ كِتَابٌ واحد؟

الجواب: لا، بل هي كتبٌ كثيرة بحَسَب الرُّسُلِ.

• • ۞ • •



الآيــة (٢٦)

• • ◌ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر:٢٦].

• • ◌ • •

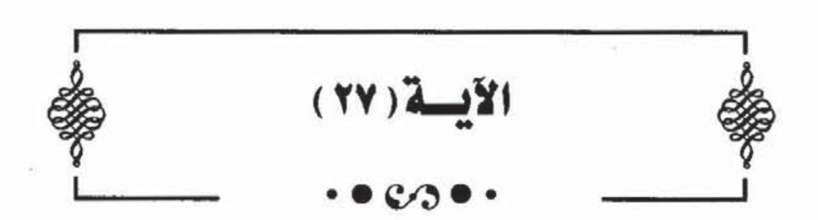
قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِتكْذيبِهِم] الباءُ للسَّبَبِيَّة في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن بماذا أَخَذَهُم؟

بالعقاب، فقوم نوحٍ أَغْرَقَهم، وقَوْمُ هُودٍ أَتْلَفَهُم بالرِّيح، وقوم صَالِحٍ بالرَّجْفَة والصَّيْحة، وقومُ لُوطٍ جَعَلَ عاليَ قُراهُم سافِلَها، فكُلُّ المُكَذِّبين أخذهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنْكاري عليهم بالعُقوبَةِ والإِهْلاك؛ أي: هو واقِعٌ مَوْقِعَه] يعني: أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للتَّقْرير؛ يعني: فكان نكيري؛ أي: إنكاري عليهم بالعُقوبَة كان واقِعًا مَوْقِعَه؛ ولهذا لو سُئِلْتَ: كيف كان إنكارُ الله لهم؟

الجوابُ: أن نقول: كان شديدًا، وكان واقِعًا مَوْقِعَه، فهو مُطابِـقٌ للحِكْمَة تمامًا، وهو عِقابٌ شديدٌ لم يُبْقِ منهم أَحَدًا.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

الاسْتِفْهامُ هنا للتَّقْريرِ، وهذا هو الغالِب فيما إذا أتى حرفُ النَّفْي، أو إذا أتت أداة النَّفْيِ بعد هَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ؛ أن يكون للتَّقْرير كقَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وَقَوْله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، وَقَوْله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداةُ النَّفْيِ بعد هَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ فالغالِبُ أن يكون الاسْتِفْهامُ للتَّقْريرِ.

قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حُذِفَتِ الألِفُ للجازِمِ؛ لأن (لم) تَجْزِم، والفِعْل المعْتَلُّ يُجْزَم بحذف حَرْف العِلَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ مُبْتَدأٌ وخَبَرٌ، والخبر فيها مُقَدَّم وهو قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾: صِفَةٌ لـ﴿جُدَدٌۢ﴾، وَقَوْله تعالى: ﴿سُودٌ﴾ قيل: إنَّه على التَّقديم والتَّأخيرِ؛ أي: وَسُودٌ غرابيبُ، وقيل: إنَّه على الأَصْل، وأنَّ ﴿سُودٌ﴾ تَقَعُ مَوْقِعَ التَّوْكيدِ لما قَبْلها؛ لأنَّ الغِرْبيبَ هو: الشَّديدُ السَّوادِ.

قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْلَمْ] فالرُّؤْيَة هنا عِلمِيَّة، وعُلِّقَت

عن العَمَل بـ(أنَّ) وما دَخلَت عليه، فإن (أنَّ) وما دَخلَتْ عليه تُعَلِّق أفعالَ القلوب عن العَمَل، ويُحْتَمَل أن تكون الرُّؤْيَة هنا بَصَرِيَّة؛ يعني: (ألم تَنْظُرْ وتُبْصِر)؛ لأنَّ ما ذُكِرَ يُرى بالعيْنِ، وما كان يُرى بالعَيْنِ فإنَّه يجوز أن يُرادَ به الرُّؤْيَة بالعَيْنِ، لكن إذا جعلناها علمِيَّةً كان ذلك أَعَمَّ؛ لأنَّ هذا الأَمْر قد لا تراه بِعَيْنِك ولكن تَسْمَعُه في بلادٍ أخرى غَيْر بلادك.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المُرادُ بالسَّماء هنا العُلُوُّ، والمُرادُ بالماءِ المَطَرُ، وليس المُرادُ بالسَّماءِ الأَجْرامَ السَّماوِيَّة المَعْروفَة؛ لأنَّ الماء إنَّما يَنْزِل من السَّحاب، والسَّحابُ عالٍ، ولَكِنَّه بين السَّماءِ والأَرْض.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيه التفاتٌ عن الغَيْبِة] لو كان الكَلَام على نَسَقٍ واحد لِقال: (فَأَخْرَج به) بضَميرِ الغَيْبَة، لَكِنَّه صار فيه التفات عن الغَيْبَة إلى التَّكَلُّم.

والالتفاتُ فيه فوائِدُ:

الأولى: فائِدَةٌ مُشْتَرِكَة في جميع موارِدِه ومواضِعِه، وهي: تَنْبيهُ المخاطَب؛ لأنَّ الكَلَام إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ اسْتَمَرَّ الإِنْسَانُ معه ولم يكن هناك شَيْءٌ يُوجِبُ أن يَنْتَبِه ويَتَفَطَّن، فإذا اختلف السِّيَاقُ من غَيْبَة إلى تكَلُّم، أو إلى خطاب، أو ما أشبه ذلك، فإنَّ الإِنْسَانَ يَنْتَبِه؛ يعني: كأنَّه يكون علَمًا على تغيُّر الأُسْلوبِ لِيَنْتَبِه المخاطَب.

الفائِدَة الثانيةُ هنا: قَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ فإنَّ (نا) هذه تفيدُ التَّعْظيم؛ لأنَّ الإِخْراجَ أَعْظَمُ من الإنزال بالنِّسْبَة للنِّعْمَة علينا، فإنَّه لو نزل المطر ولم يَخْرُجِ النبات لم نَسْتَفِدْ من المطر كما جاء في الحديثِ الصَّحِيح الذي رواه مُسْلِم: «لَيْسَتِ

السَّنَةُ بِأَلَّا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا»[1]، فلما كان إنعامُ الله تعالى بإخراجِ النَّباتِ أَعْظَمَ صار الالتفاتُ إلى التَّكَلُّم أولى لعِظَمِ المِنَّة فيه.

قَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فهنا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ ولم يقل: (أَخْرَجْنا به نباتًا)، وقد قاله في آيَةٍ أخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩] لكن هنا قال: ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ لأنَّ المَقصودَ من هذا الخارِجِ هو الثَّمرة، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغايَةَ المَقْصودَةَ وهي الثَّمراتُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ كأَخْضَر وأَحْمَرَ وأَصْفَرَ وغيرها] وهذا يدلُّ على قُدْرَةِ الله، فهذه الثَّمَرات مُخْتَلفٌ أَلْوانُها، وكَلِمَة (أَلْوَان) يُحْتَمَل أن يكون المُرَادُ ما ذكره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو اللَّون المُخْتَلِف بالحُمْرَة، والصُّفْرَة، والخُضْرَة، وما أشبه ذلك، ويُحْتَمَلُ أنَّ المُرَاد بالأَلْوانِ الأَصْنافُ، فإنَّ الأَلْوانَ تُطْلَق على الأَصْنافِ كما قال الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صلاةِ اللَّيْلِ في قيام رَمَضانَ قال: «رُوِيَ في ذلك أَلْوانٌ»[2] أي: أَنْواعٌ وأَصْنافٌ، وإذا نظَرْتَ إلى الخارج من الأَرْض وَجَدْتَ أَنَّه ذو أَلْوانٍ في شَكْلِه، وذو أَلْوان في أَنْواعِهِ وَأَصْنافِهِ، ما بين حُلْوٍ ومُرٍّ ومُتَوَسِّط وحامِض وغير ذلك مِمَّا هو معلومٌ.

وهذا الأَخيرُ إذا قلنا: إنَّ المُراد بالأَلْوانِ ما يَعُمُّ الأَنْواعَ؛ أَشْمَلُ مِمَّا لو قلنا: إنَّ المُرَادَ بالأَلْوان اختلافُ الشَّكْل، وقد تقَدَّمَت قاعِدَة: بأَنَّه كلَّما كان المَعْنى أَشْمَل في باب التَّفْسيرِ كان أولى؛ لأنَّ الأَشْمَل يَعُمُّ الأَخَصَّ وغيره، بخلاف الأَخَصِّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدنية وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية الكوسج (٢/ ٧٥٦).

قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ هذه جُمْلَة اسْتِئْنافِيَّةٌ يُبيِّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها كمال قُدْرَته أيضًا بالنِّسْبَةِ للأَرْض وطَبقاتِها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ جَمْع جُدَّةٍ: طريقٌ في الجَبَل وغيره] من الجبالِ جُدَدٌ؛ يعني: شَيْءٌ يُشْبِه الطُّرُق لاختلافه عن بَقِيَّة الجبل، وهو مُخْتَلِفٌ في اللون، ومختلفٌ في الماهِيَّة أيضًا.

نحن نرى بعض الجبال الآن ولا سيَّما إذا فُتِحَ الجَبَلُ نرى في أثنائه خُطُوطًا قد تكون سوداءَ، وقد تكون حَمْراءَ، وقد تكون بُنِّيَّة، وقد تكون بيضاءَ، المُهِمُّ أنَّنا نجد فيه خطوطًا تُخالِفُ بَقِيَّة الجَبَل، هذه الجُدَد التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ هنا، فالجبالُ تَخْتَلِفُ أَلْوانُها أيضًا، وهذا الاختلاف في اللون؛ يعني: الاختلاف في الماهِيَّة والحَقيقَة، ليسَتِ الحصاةُ السَّوداءُ كالحَصَاةِ البَيْضاءِ أو الحَمْراء أو ما أشبهها مِمَّا يخالِفُها في اللون، بل لا بُدَّ أن يكون هناك اختلافٌ في طَبيعَةِ هذه الحَصاة كما كان اخْتِلافُ الثَّمَراتِ في أَلْوانِها يدلُّ على اختلافها في طُعُومها وفي ماهِيَّتِها.

قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ﴾ ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِيضٞ وَحُمۡرٞ﴾ وكان المُتَوَقَّع أن يقول: (بيضٌ وسُودٌ)؛ لأنَّ هذا هو المَعْروف في مُقابَلَةِ البَياضِ؛ أن يُقابَلَ بالسَّوادِ، لَكِنَّه قال: ﴿وَحُمۡرٞ﴾ لأنَّ الحُمْر أَقْرَبُ إلى البياضِ من السُّودِ، وستُذْكَر في قَوْله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾.

هذه الجُدَد بِيضٌ وحُمْرٌ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وصُفْر] ونحن ربَّما نقول أيضًا: (وزُرْق) وغير ذلك من الأَلْوان، والله عَزَّوَجَلَّ لم يَذْكُر هَذَينِ اللَّوْنَيْنِ للحَصْر، وإنَّما هو على سبيل التَّمْثيلِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ بالشِّدَّةِ والضَّعْفِ] هنا فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأَلْوَان بالماهِيَّة وليس بالأَشْكالِ؛ لأَنَّه قال: [بالشِّدَّةِ والضَّعْف] ولم يقل: [باللَّون الأَحْمَر أو الأَبْيَض].

على كُلِّ حالٍ: (الأَلْوَان) كما سبق تُطْلَقُ على الأَنْواع أحيانًا.

وهذا الاختلاف في أَلْوَانِ أَحْجارِ الجبال كالاخْتِلاف في أَلْوَانِ الثِّمار.

قَوْله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [عطفٌ على جُدَد؛ أي: صخورٌ شديدَةُ السَّوادِ، يقال كثيرًا: أَسْوَدُ غِربيبٌ، ويقال قليلًا: غِرْبيبٌ أَسْوَدُ]، فالغَرابيبُ جَمْع غِرْبِيبٍ، والغِربِيبُ: شديدُ السَّوادِ.

وكان مُقْتَضَى التَّرْكيبِ أن يقال: (وسُودٌ غَرابِيبُ)، ولكنَّ الله تعالى قدَّم فقال (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) فعلى هذا زَعَمَ بَعْضُهم أنَّ في الكَلَام تقديمًا وتَأْخيرًا، وقال بعضهم: بل هو على تَرْتيبِهِ، ليس فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، ولكنَّ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن الأَسْوَدَ الشَّديدَ السَّوادِ قبل بيان مُطْلَقِ السَّوادِ، هذا أيضًا مُشاهَدٌ؛ نجد في الجبال طُرُقًا يعني كالطَّريقِ أو كالخَطِّ أَسْوَد خالصًا، وإلى جانبه طريقٌ أَبيَض، أو أَحْمَر، أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليلٌ على قُدْرَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

فنجد نحن أنَّ هذا الاخْتِلافَ في الجبال هو كالاخْتِلافِ في الثَّمَرات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّنْبيهُ على أَنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ أن يَتفكَّر في خَلْقِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ فإنَّ هذا تقريرٌ، والتَّقْريرُ لا يكون إلا بعد أن يَنْظُرَ المُقرَّر فيما قُرِّرَ به حتى يُقِرَّ به ويَعْتَرِفَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه؛ وذلك بإنزالِ الماءِ من السَّماء، ففيه قُدْرَةٌ عَظيمَة؛ أن يَنْزِلَ هذا الماء الذي يكون بِحارًا أحيانًا يُدَمِّر ما مرَّ عليه من البناء ويَجْتَرِف الأراضِيَ مع أنَّه يَنْزِلَ من هذا السَّحابِ الرَّقيقِ الذي تَخْتَرِقُه الطَّائِرة كما نُشاهِدُ، ويَتَمَزَّق عندما يَمُرُّ بالجبالِ وبالبِناءِ وما أشبه ذلك؛ تَنْزِلُ منه هذه المياه العَظيمَة، هذا تمامُ القُدْرَة.

وتمامُ الرَّحْمَةِ: ما يَحْصُل من هذا المَطَرِ من الآثار النَّافِعَة للعبادِ.

وتَمامُ الحِكْمَة؛ لأنَّ هذا المَطَرَ يَنْزِلُ من أعلى حتى يَشْمَلَ المُرْتَفِعَ والمُنْخَفِضَ من الأَرْض، ولو كان يَمْشي مَشْيًا كالأَنْهار لكان الأَسْفَلُ من الأَرْض يَرْوَى بالماء بل يَغْرِق، أمَّا الأعلى فلا يُصيبُه شَيْءٌ، وهذا من تمام حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ أنَّه يَنْزِل من فوق.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّة، ففي الآيَة إثباتُ الأَسْبابِ وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قَرَنَ الأشياء بأَسْبابِها، وهذا من تَمام حِكْمَتِه؛ أن تكون الأَسْبابُ والمُسَبَّباتُ مُتلازِماتٍ، فمِنَ المَعْلومِ أنَّ الله قادِرٌ على أن يُخْرِجَ هذه الثَّمَراتِ بدون ماءٍ، ولكن قد جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سببًا.

إذن: في الآيَة إثباتُ الأَسْبَابِ؛ ولذلك لَزِمَ علينا القَوْلُ بِوُجوبِ الفِعْلِ؛ لأنَّ السَّبَبَ يَسْتَلْزِمُ وجود المُسَبَّب، وهذا يقتضي أن نُوجِبَ على الله عَزَّوَجَلَّ وُجودَ المُسَبَّب لوجود السَّبَب.

فعُلَماءُ الكَلَام كالجَبْرِيَّة مثلًا أَنْكَروا حِكْمَةَ الله، يقولون: لأنَّنا لو قلنا بِثُبوتِ الحِكْمَـةِ والسَّبَبِيَّة لزم من ذلك أن نُوجِـبَ على الله تعالى أن يَفْعَل كمـا قال ذلك خُصُومُهم من المُعْتَزِلَة، فالمُعْتَزِلَة يقولون بِوُجوبِ الأَصْلَح، بعضهم يقول بوجوبِ

الصَّلاحِ على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا مُقْتَضَى الحِكْمَةِ، وأولئك الجَبْرِيَّةِ بالعَكْس، يقولون: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَخْلُق الشَّيْء بدون سَبَبٍ وبدون حِكْمَةٍ؛ لأنَّك لو أَثْبَتَّ السَّبب والحِكْمَةَ لزم إيجاد المسبَّبِ أو الفِعْل الذي يكون مسبَّبًا لهذا السَّبَب، وهذا يقتضي أن نوجب على الله عَزَّوَجَلَّ فِعْل الشَّيْء، فما الجواب؟

نقول: إنَّ إثباتَ الحِكْمَةِ أو السَّبَبِ لا يَسْتَلْزِم أن نُوجِبَ على الله، ولكن مُقْتَضَى كَوْنِه حكيمًا أن يَفْعَل وأن يُوجِدَ المسبَّبَ عند وجودِ السَّبَب، ونحن لا نُوجِبُه، ولكن الذي أوجبه على نَفْسِه هو الله بمُقْتَضَى اسْمِه (الحكيم) ووَصْفِه بالحِكْمَة، وإيجابُ الله على نَفْسِه ليس بِمُمْتَنِع كما أن تَحْرِيمَه على نَفْسِه ليس بِمُمْتَنِع، وقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»(١).

فلِلَّهِ أن يُحَرِّمَ على نفسه وأن يوجِبَ على نفسه ما شاء، أمَّا نحن فلا، فإذا قيل مثلًا: هذا مَصْلَحَةٌ فإننا نقول: نعم، ونَلْتَزِم بهذا، ولكن هل نحن الذين أَوْجَبْناه على الله؟

الجواب: لا، بل الله هو الذي أَوْجَبَه على نفسه، وهذا لا ينافي كَمالَه، بل هو من مُقْتَضَى كَمالِه، إلا أنَّ المَحْذورَ هنا في هذا الباب أن نَظُنَّ أنَّ المَصْلَحَةَ في كذا، وحَقيقَةُ الأَمْرِ أنَّ المَصْلَحَة في عَدَمِه، هذا هو الذي يُخْشَى منه، وحينئذٍ نَعْتَقِدُ أنَّ هذا واجِبٌ على الله وهو لم يَجِبْ، نعتقد أنَّه واجبٌ على الله بمُقْتَضَى فَهْمِنا أنَّ هذا مَصْلَحَةٌ وخَيْر ثم نوجِبُه على الله، هذا هو المَحْذورُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أمَّا إذا تحقَّقت المَصْلَحَةُ فلا مانع من أن نقول: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجب على نفسه أن تكون المَصْلَحَةُ؛ لأنَّ هـذا هو مُقْتَضى اسْم الله (الحكيم)، وفي هـذه الحالِ لم يَحْصُلْ منَّا أيُّ عُدْوانٍ أو ظلم، بل قلنا بمُقْتَضى حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بِإِخْراجِ هذه الثَّمَراتِ المُخْتَلِفَةِ الألْوانِ مع أنَّها في أَرْضٍ واحِدَة وتُسْقَى بماءٍ واحِدٍ، ويظهر ذلك لك جليًّا إذا نظَرْتَ إلى الزُّهور كيف تَجِدُ هذا الاختلافَ العَجيبَ بَيْنها مع أنَّها تُسْقى بماءٍ واحِدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمَةُ في اختلاف هذه الثَّمرات؛ لأنَّه لو كانَتْ هذه الثَّمَراتُ طَبيعَتُها واحِدَةٌ لَمَلَّ النَّاسُ منها ولم يَحْصُلْ لهم كَمـالُ اللَّذَة، فإذا اخْتَلَفَتْ حَصَلَ كمالُ اللَّذَة وعدم المَلَل والسَّآمة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ ورَحْمَتِه وحِكْمَتِه فيما نرى في الجبال من الجُدَدِ المُخْتَلِفَة؛ لأنَّ هذا دليلٌ على القُدْرَة؛ حيث جعل هذا بين هذا، ودليل على الحِكْمَة؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ ما في بطون هذه الجبالِ يكون مَعادِنَ مُفيدَةً للإِنْسَان، كذلك بيانُ الرَّحْمَةِ بالخَلْقِ لِإيداعِ هذه الأَشْياءِ في بطون هذه الجِبالِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ إنَّه يَجْعَلُ بَعْضَ الجبالِ فيها السَّوادُ الخالِصُ، وقد يكون الجَبَلُ كُلُّه أَسْوَدَ، وأحيانًا نرى جبلًا أَسْوَدَ وإلى جانبه جبلًا أَبْيَض، فهذا كُلُّه من تَمام قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ما يَتَـرتَّب على النَّظَـر في هـذه المَخْلـوقاتِ من الاعْتِبارِ والاسْتِدْلالِ بها على ما تَتَضَمَّنُه من صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

•••

جُمْلَة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ جُمْلَة خَبَرِيَّةٌ قُدِّمَ فيها الخَبَر على المُبْتَدَأ، و﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: فاعِلُ ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾ لأن ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾ اسْم فاعل، واسْم الفاعل يَعْمَلُ عَمَلَ فِعْله.

وَقَوْله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صِفَـةٌ لِقَوْله تعالى: ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾ يعني: مختلـفٌ كاختلافِ ما ذُكِر.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ هي جُمْلَةٌ أيضا مُكَوَّنَة من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، وفيها حَصْرٌ، وطريقُه: ﴿إِنَّمَا﴾ وجُمْلَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ كالتَّعْليلِ لِما قبلها، كما سيأتي إن شاء الله.

قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ النَّاسُ هُمُ البَشَر، وأصلها (أُناسٌ) ولكن حُذِفَت الهَمْزَةُ تَخْفيفًا لكثرة الاسْتِعْمال كما حُذِفَتْ من (شَرّ) و(خَيْر)، وأصلهما: (أَشَرُّ) و(أَخيَرُ)، وحُذِفَت أيضًا من (الله) على قَوْلِ كثيرٍ من عُلَماء اللُّغَة، وأَصْلُها: (الإله) والمُرَادُ بالنَّاس: بنو آدم، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَأْنَس بعْضُهم إلى بعض.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابَّة، وتُطْلَقُ على عِدَّة معانٍ، تُطْلَقُ على كلِّ ما دَبَّ على الأَرْض كما في قَوْله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النُّور:٤٥]، وكما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ﴾ [هود:٦] يَشْمَل كُلَّ ما دَبَّ على الأَرْض من إِنْسَان وحيوانٍ وحشرات، وغير ذلك.

وتُطْلَقُ الدَّابَّةُ على ما يَدبُّ على بطنه؛ مثل: الحيَّات، وتُطْلَقُ الدَّابَّة على ذوات الأَرْبَعِ كالحِمارِ، فما المُرَاد بها في هذه الآيَة؟

نقول: المُرَاد بها ما عدا النَّاسَ والأَنْعامَ، فتَشْمَلُ كُلَّ ما دَبَّ على الأَرْض إلا النَّاسَ والأَنْعامَ.

فإن قلت: لماذا لا تَجْعَلُها شامِلَةً وتجعل هذا من بابِ عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالنِّسْبَة للنَّاسِ، ومن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ بالنِّسْبَة للأنعام؟

يعني: لو قال قائِلٌ: المُرَاد بالدَّوابِّ: كُلُّ ما دَبَّ على الأَرْض، لَكِنَّها عُطِفَت على النَّاسِ مِن باب عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ، وعُطِفَتِ الأَنْعامُ عليها من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؟

قلنا: هذا مُمْكِنٌ، لكِنَّ التَّقْسيمَ يُبعِدُه، فيكون المُرَادُ بالدَّوَابِّ ما عدا النَّاسَ والأَنْعامَ، والمُرَادُ بالأنعام ما يَنْتَفِعُ النَّاس به؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣].

فيكون المُرَادُ بالأَنْعامِ هنا ما يَنْتَفِعُ النَّاس به كالإِبِل، والغَنَم، والبَقَر، والطيور الحلال، وغير ذلك.

قَوْله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ هل المُرَادُ باللَّوْنِ الشَّكْلُ أو الصِّنْف أيضًا؟

الجواب: يَشْمَل؛ فالنَّاسُ مثلًا تَخْتَلِفُ أَلْوانُهم؛ هذا أبيضُ، وهذا أسود، وهذا أَحْمَر، وهذا بين ذلك، واختلافُ اللَّوْنِ ظاهِرٌ، وقد تَخْتَلِف أجْناسُهُم أيضًا؛ هذا ذَكَر وهذه أنثى، هذا عالِمٌ وهذا جاهِل، هذا أَحْمَق وهذا حَليمٌ، وعلى هذا فَقِسْ.

الدَّوابُّ كذلك تَخْتَلِفُ أَلْوانُها بالشَّكْل، وتَخْتَلِفُ أَصْنافُها وأَنْواعُها، منها المؤْذي، ومنها الضَّارُّ، ومنها النَّافِع، ومنها ما ليس بضَارٍّ ولا نافِعٍ ولا مُؤْذٍ، فهي أربعة أَصْنافٍ.

مثالُ النَّافِعِ: الأَنْعام، ومثال الضارِّ: الحيَّات والعقارِب والسِّباع وما أشبهها، ومثال المُؤْذي: الصَّراصِير، والخُنْفُساء، والجُعْلان، وما أشبه ذلك، ومثال ما ليس بِمُؤْذٍ ولا ضارٍّ: النَّمْل، وغيره أيضًا من الدَّوابِّ الكثيرة التي نراها؛ نرى مثلًا طيورًا تَطيرُ في الجَوِّ ليست حلالًا مثلًا ولَكِنَّها لا تَضُرُّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كاخْتلافِ الثِّمارِ والجبالِ] فصار الاختلافُ في مَخْلوقاتِ الله تعالى شاملًا للحيوانِ ولِمَا يَنْتَفِع به الحيوانُ من الثِّمار وغيرها ولِطَبَقاتِ الأَرْضِ كالجِبالِ.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ لَمَّا ذَكَرَ هذه الأصنافَ وفيها ما يدلُّ على كَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ في صِفاتِهِ التي تَتَضَمَّنها هذه الأَصْنافُ المَذْكورَة بيَّن أنَّ العالِمَ بذلك هو الذي يَخْشى الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني: لا يَخْشى الله إلا العُلَماءُ.

والخَشْيَةُ هي أعلى الخَوْف، أو إن شِئْتَ فقل: هي الخَوْفُ المَبْنِيُّ على العِلْم،

وبَعْضُهم قال: هي الخَوْفُ المَبْنِي على عِظَم المَخُوفِ، ولا يَمْتَنِع أن تكون الخَشْيَةُ هي الخوف بِكُلِّ الأَنواعِ الثَّلاثَةِ؛ يعني: هي أعلى أَنْواعِ الخَوْفِ، أو الخَوْف المَبْنِي على العِلْم، أو الخَوْفُ المَبْنِيُّ على عِظَمِ المَخُوف.

أمَّا الخَوْف المُجَرَّدُ عن الخَشْيَة فقد يكون عن جَهْل، يخاف الإِنْسَانُ من شَيْء؛ لأنَّه جاهِلٌ به وإلا فليس أَهْلًا لأن يُخافَ منه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ بخلاف الجُهَّال ككُفَّار مَكَّة]، وصَدَقَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في قَوْلِه: [بِخِلاف الجُهَّال] وأمَّا التَّمْثيل بكُفَّار مَكَّة فليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بل هو على سبيلِ المِثالِ، فكل كافِرٍ فهو في الحَقيقَةِ جاهِلٌ.

وهل هذه الجَهالَةُ جَهالَةُ عِلْمٍ أو جَهالَةُ تَصَرُّفٍ؟

الجوابُ: هي جَهالَةُ تَصَرُّف في الغالِبِ، وإلا فإنَّ الكافر يكون عنده عِلْمٌ؛ لَكِنَّه -والعياذ بالله- يَسْتَمِرُّ على طغيانه ولا يُؤْمِنُ.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عِزَّةٍ، قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: والعِزَّةُ ثلاثَةُ أَنْواع؛ عِزَّة القَدْرِ، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

فأما عِزَّة القَدْرِ فمعناها أنَّ الله تعالى ذو قَدْرٍ عزيز، والقَدْرُ معناه المكانَة والشَّرَف والسُّؤْدُد ونحو ذلك.

عِزَّة القهر؛ أي أنَّ الله تعالى غالِبٌ غَيْرُ مَغْلوبٍ، ومنه قَوْله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غَلَبَني.

وعِزَّة الامتناع؛ أي إنَّ الله تعالى يَمْتَنِع عليه النَّقْصُ في ذاته، أو في صِفاته، ومنه قَوْلهم: (أَرْضٌ عَزَازٌ)؛ أي: شديدةٌ صُلْبَة، لا يتجاوَزُها شَيْء لِصلابَتِها، ولا يُؤَثِّر فيها شَيْء، لِقُوَّتِها وشِدَّتِها.

فالعِزَّةُ إذن لها ثلاثةُ معانٍك عِزَّةُ القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

قَوْله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مَغْفِرَة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، والمَغْفِرَةُ سِتْرُ الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، يدلُّ لذلك اشْتِقاقُها؛ فإنَّها مُشْتَقَّةٌ من المِغْفرِ وهو ما يُغَطَّى به الرَّأْسُ وتُتَّقى به السِّهام، وفي المِغْفَر سِتْرٌ ووِقايَة، وعلى هذا فنقول: (الغفور) ذو المَغْفِرَة، وهي: سِتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

ويدل لهذا المَعْنى -زيادةً على دَلالَةِ الاشتقاق- ما ثَبَتَ في الحديث الصَّحِيح أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)؛ يعني: أَتَجاوَزُ عنها، وفي الدُّنْيا سَتَرَها الله على العَبْد.

ومُناسَبَة ذكر العِزَّة والمَغْفِرَةِ هنا بعد ذِكْرِ الخَشْيَةِ: الإشارَةُ إلى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أَهْلٌ لأن يُخْشَى؛ لأنَّه عزيزٌ؛ وأنَّه إذا نَقَصَ شَيْءٌ من الخَشْيَة فإنَّه يُقابَل بالمَغْفِرَة، فهو عزيزٌ فلذلك كان أَهْلًا للخَشْيَة، وهو غفورٌ إذا نَقَصَ شَيْءٌ مِمَّا يَجِبُ له من خَشْيَتِه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في مُلْكِه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنـوب عبادِهِ المُؤْمِنينَ].

هذا مبنيٌّ على أنَّ العِزَّة بمَعْنى الغَلَبَة كمـا يُفَسِّرُها كثيرٌ من المُفَسِّرينَ بذلك، فيقول: العزيزُ؛ أي: الغالِبُ، ولكن هذا التَّفْسيرَ الذي ذكرناه ما نُطْلِقُه في مُلْكِه، تقول: (هو عزيز) ولا نُقَيِّده في المُلْك؛ لأنَّ الله تعالى عزيزٌ في مُلْكِه، وعزيزٌ في صِفاتِه كُلِّها، وعزيزٌ في شَرْعِه، فالعِزَّة عامَّةٌ، ما دمنا نقول: إنَّها عِزَّةُ الامْتِناعِ والقَدْر والقَهْر.

وأما [﴿غَفُورٌ﴾ لِذُنوبِ عِبادِهِ المُؤْمِنيـنَ] فَتَقِييـدُها بذلك أيضًا فيه نَظَـرٌ، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: (غفورٌ لمن تابَ إليه) أو (لِمَنِ اسْتَغْفَرَه) لكان أَشْمَلَ؛ لأنَّ الله تعالى يَغْفِر حتى لِغَيْرِ المُؤْمِنينَ لو تابوا إلى الله، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] فالتَّعْميمُ أَوْلَى من التَّخْصيصِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باختِلافِ أَلْوانِ النَّاسِ والدَّوَابِّ والأنعام؛ أي: أَصْنافها وأَشْكالها؛ لأنَّ اختـلافَ هذه الأَلْوان -وهي نوعٌ واحِدٌ- دليلٌ على القُدْرَة، فبنو آدم مثلًا لا يُمْكِنُ أن يَشْتَرِكَ شخصان أو أن يتماثَلَ شخصان في كلِّ شَيْءٍ أبدًا، وإن قُدِّر تماثُلُهما في الخِلْقَة فَسَيَخْتَلِفَان في الخُلُق، والتَّساوِي في الخُلُق أمرٌ مُسْتَحيلٌ؛ لأنَّ النَّاس يَتَبايَنونَ فيه تبايُنًا عظيمًـا، يَتَبايُنون فيه تبايُنًا أَشَدَّ من التَّبايُن الخِلْقِيِّ وإن كان التَّبايُنُ الخِلْقِيُّ أَظْهَر؛ لأنَّه يُشاهَد ويُرى، لكنَّ التَّبايُنَ الخُلُقي أَشَدُّ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يَتَّفِقَ النَّاس فيه أو أن يتساوى النَّاس فيه أبدًا؛ لأنَّ أيَّ كَلِمَة

تَحْصُل من أَحَدِهما دون الآخر يَحْصُل فيها التَّبايُنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة خَشْيَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث لا يتَّصِف بها إلا العُلَماء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلَةُ العِلْم لِكَوْنِه سببًا في خَشْيَة الله عَزَّوَجَلَّ، والخَشْيَة صفةٌ لها آثارٌ حميدَةٌ؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا خَشِيَ ربَّه فإنَّه يتجَنَّب معاصِيَه ويفعل أوامِرَه خَوْفًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

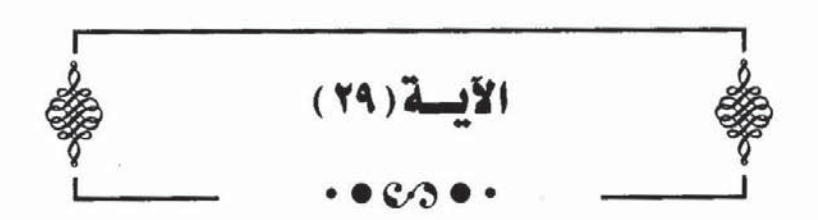
ولهذا لما ذَكَر الله عَزَّوَجَلَّ ثوابَ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحاتِ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البيِّنة:٧-٨] قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وهو دليلٌ على أنَّ الخَشْيَة تُوجِبُ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثْباتُ اسْمَينِ من أَسْماء الله وهما (العزيز) و(الغفور)، وإثباتُ ما تَضَمَّناه من الصِّفَة، وهي العِزَّة والمَغْفِرَة، وإثباتُ ما تَضَمَّناه من الحُكْم وهو الأَثَر؛ أمَّا الغفورُ فنعَمْ، لها أَثَرٌ وحُكْمٌ؛ كما قال تعالى آخر سورة (البقرة): ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

وهل العزيز لها حُكْمٌ؟

الجواب: قلنا: إنَّ من معانيها الغَلَبَة، وإذا كانت (عَزَّ) بمَعْنى غَلَبَ صارت مُتَعَدِّيَة فيكون لها حُكم؛ أي: (أثر).

إذن: إثباتُ ما تضَمَّنَه الاسْمانِ من الصِّفَة والحُكْم الذي نُعَبِّر عنه أحيانًا بالأَثَر، وقد تقدَّم أنَّ أَسْماء الله عَزَّوَجَلَّ إمَّا لازِمَة وإمَّا مُتَعَدِّيَة، فاللَّازِمَة يَثْبُتُ منها الاسْمُ والصِّفَةُ، والمُتَعَدِّيَة يَثْبُتُ منها الاسْمُ والصِّفَةُ والأَثَر.



الآيــة (٢٩)

• ● ◎ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

• ● ◎ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ يَقْرَؤون ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أداموها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زكاةً وغَيْرها ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ تَهْلِكَ].

الإِعْرابُ في هذه الآيَة واضِحٌ ليس فيه إشكال، إلا أنَّ قَوْله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ تَحتاجُ إلى خَبَرٍ، فما هو الخبـر؟ الخبـر هو جُمْلَة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ هذا هو الصَّحِيحُ من أَقْوال المُعْربين؛ يعني: أَنَّ هؤلاء فعلوا ذلك يَرْجونَ تجارةً لن تبور، فجُمْلَة ﴿يَرْجُونَ ﴾ هي خبر ﴿ إِنَّ ﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَقْرَؤُون] والصَّوابُ أنَّ التِّلاوَةَ أَعَمُّ من القِراءَة، فالتِّلاوَةُ نوعان: تلاوةٌ لَفْظِيَّة وهي القِراءَة، وتِلاوَةٌ عَمَلِيَّة وهي اتِّباعُ القُرْآن تَصْديقًا للخَبَر وامْتِثالًا للأَمْر؛ ولهذا يقال: (تلاه بمَعْنى تَبِعَه)؛ أي: جاء بعده، فالتِّلاوَةُ أَعَمُّ من القِراءَة، والتِّلاوَة العَمَلِيَّة تَسْتَلْزِم فَهْم المَعْنى؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن يُعْمَل إلا بما يُفْهَم، وعلى هذا يكون فِعْلُ الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تطبيقًا لهذه الآيَة تمامًا؛ لأنَّهم لا يتجاوَزونَ عَشْرَ آياتٍ حتى يَتَعَلَّموها وما

فيها من العِلْمِ والعَمَلِ، قالوا: «فَتعَلَّمْنَا القُرْآن وَالعِلْمَ وَالعَمَلَ»[1].

قَوْله تعالى: ﴿يَتْلُونَ﴾ فعلٌ مُضارِعٌ يدلُّ على الاسْتِمْرار، بخلاف ما لو قال: (إنَّ الذين تَلَوْا) بالماضي، فإنَّه لا يُفيدُ المَعْنى الذي يُفيدُه المضارِعُ ﴿يَتْلُونَ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هل هو القُرْآنُ أو هو أَعَمُّ من ذلك؟

الجواب: هو أَعَمُّ من ذلك، كِتَاب الله: الكُتُب التي أنزلها الله تعالى على الرُّسُل، فيَشْمَلُ جَميعَ الكُتُبِ؛ لأنَّ هذا الحُكْم يَشْمَلُ المُؤْمِنينَ من هذه الأُمَّة والمُؤْمِنينَ مِمَّا سَبَقَهم، فيكون المُرَادُ هنا: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ كل كِتَابٍ أنزله الله تعالى على رسُله.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفَةٌ على ﴿يَتْلُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أداموها] والصَّوابُ خلاف ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعني: معناه أنَّنا نختار كَلِمَةً أَشَدَّ مُطابَقَةً لِلَّفْظِ؛ فـ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أَتَوْا بها مُسْتَقيمَة؛ فيَشْمَلُ فِعْلَ الصَّلاة تامَّةً بِشُروطِها، وأَرْكانِها، وواجِباتِها، ومُسْتَحَبَّاتِها، ويَشْمَلُ الإِدامَة، أيضًا؛ لأنَّ الإِدامَة مِنَ الإِقامَة، وعلى هذا نقول: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فَعلوها قائِمَةً؛ أي: مُسْتَقيمَة على الوَجْهِ المطلوبِ منهم.

لو أنَّ الإِنْسَان أدامَ الصَّلاةَ لكن يُخِلُّ بأَرْكانِها أو واجباتِها، فهل يقال: إنَّه أقام الصَّلاة؟ الجواب: لا، فالرَّجُلُ الذي جاء يُصَلِّي ولا يَطْمَئِنُّ كان يصلي هذه الصَّلاة منذ أَسْلَم، والرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[2] مع أنَّه يُديمُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤١٠)، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ... فذكره.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الصَّلاة ويُصَلِّي لَكِنَّه لم يُصَلِّ؛ حيث إنَّه لم يأتِ بها قائِمَةً على الوجه المطلوب، فالصَّوابُ أنَّ الإقامَة هنا بمَعْنى أن يفعلها على الوَجْهِ المطلوب منه.

والصَّلاةُ مَعْروفة للجميع لا تحتاج إلى تَعْريفٍ؛ لأنَّها عِبَادَةٌ ذاتُ أَقْوالٍ وأفعالٍ مَعْلومَةٍ، مُفْتَتَحَةٌ بالتَّكْبيرِ مُخْتَتَمَةٌ بالتَّسْليمِ.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

﴿وَأَنفَقُواْ﴾ بمَعْنى بذلوا وأَخْرَجوا، ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مما أعطيناهم؛ لأنَّ الرِّزْق بمَعْنى العطاء.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ هل (مِنْ) لبيانِ الجِنْسِ أو هي للتَّبْعيض؟ الأَوْلى أن نجعلها لبيانِ الجِنس؛ لتَشْمَل ما لو أنفقوا جميعَ أَمْوالِهم على الوجْه الذي يرضاه الله ورسوله، فإنَّهم يدخلون في هذا الوَصْفِ.

قَوْله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: ﴿سِرًّا﴾ مَصْدَرٌ، ولَكِنَّها في مَوْضِعِ الحالِ؛ أي: مُسِرِّينَ ومُعْلِنِينَ، فالإسرارُ أن يُخْفُوا الإنفاقَ، فلا يَعْلَمُ به إلا المُنْفَقُ عليه، والإعلان أن يُظْهِروه للنَّاس إمَّا إِظْهارًا كامِلًا شامِلًا، وإمَّا أن يكون إظهارًا نِسْبِيًّا يَعْلَمُ به مَن حوله، وكل ذلك يُمْدَحُون عليه، وسيأتي -إن شاء الله- في ذكر الفَوائِدِ أنَّ هذا يكون بحَسَبِ الحالِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ زكاةً وغيرها] غَيْر الزكاة: كالإِنْفاقِ الواجِبِ على الأَقارِبِ وكَصدَقاتِ التَّطَوُّع، فالإنفاق هنا شامِلٌ.

قَوْله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

﴿يَرْجُونَ﴾ يعني: يُؤَمِّلون ويطلبون من هذه التِّجارة ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تَهْلِكَ، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما هذه التِّجارة؟

التجارة ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في قَوْله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٠-١٢] فهنا عِوَض ومُعَوَّض، العِوَض: الإيمان بالله والجهادُ في سبيله، المعوَّضُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ [الصف:١٢] هذه التِّجارة لا شَكَّ أنَّها أَرْبَح التِّجاراتِ، وأنَّها أَبْقَى التِّجاراتِ.

أَرْبَحُ التجارات؛ لأنَّ الرِّبْحَ فيها العَشْرُ مِئَة، فالحَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وأبقى كذلك؛ فهي أبقى التجارات بلا شَكٍّ؛ لأنَّها في جنَّاتِ عَدْنٍ؛ أي: في جنات إِقامَةٍ لا ظَعْنَ فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضْلُ تِلاوَةِ كِتَاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرجاء يَنْبَغي أن يكون في مَحَلِّه، بحيث يكون الإِنْسَانُ قد عَمِلَ عملًا يرجو الثَّوابَ عليه، أمَّا الرَّجاءُ بدون عمل فهو من التَّمَنِّي الذي لا ينفع العبد، وفي الحديث: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ

نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ»[١] فلا رجاء إلا بعمل.

وفي الحديث الصَّحِيح أيضًا: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»[٢]، وفي الحديث الصَّحِيح: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[٣].

وكل هذه النُّصوص وما أشبهها إنَّما تكون فيمن يَعْمَل ما يُمْكِن أن يرجو به ذلك وأن يُحْسِنَ به الظَّنَّ.

فلو أنَّ أَحَدًا أساء واسْتَكْبَر عن عِبَادَة الله، وقال: (أنا أُحْسِنُ الظَّنَّ بالله) لكان هذا ظنَّ وَهْمٍ، لا بُدَّ من شَيْء يَبْنِي عليه هذا الظَّنَّ، لو قال: (أنا أرجو رَحْمَةَ الله).

قلنا: هذا وَهْمٌ حتى تَعْمَلَ؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨] هؤلاء هم الذين يرجون، وهنا أيضًا مِثْلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الثَّواب في الآخِرَة لا يَنْقَطِع؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ بل ربَّما نقول: إن هذا أَعَمُّ؛ بحيث يُثاب الإِنْسَان في الدُّنْيا ثوابًا مُسْتَمِرًّا إلى الآخِرَة؛ لأنَّ الحَسَناتِ قد يرى الإِنْسَانُ ثوابَها في الدُّنْيا، وثوابُها في الدُّنْيا يَسْتَمِرُّ إلى الثَّواب في الآخِرَة؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل:٣١-٣٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضل إقامة الصَّلاةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهو شاملٌ لفَرْض الصَّلاة ونَفْلها، فما تقام به الفَريضَةُ تقام به النَّافِلَة، وما تقام به النافِلَة تُقامُ به الفَريضَة إلا بِدَليلٍ يدلُّ على الفَرْقِ بينهما.

وقد جَمَعْنا الفُروقَ بين فرض الصَّلاة ونَفْلها فبَلَغَتْ ثمانيةً وعِشرينَ فَرْقًا؛ منها ما هو واضِحٌ دلَّت عليه السُّنَّة، ومنها ما هو دون ذلك.

المُهِمُّ: أنَّ الأصل أنَّ إقامَةَ الفَريضَةِ إقامَةٌ للنَّافِلَة، وأن إقامة النَّافلة إقامة للفريضَة، هذا الأصل، فما ثبت في إحداهما ثبت في الثاني إلا بِدَليلٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَـة الإنفاقِ؛ لأَنَّه أَعْقَـبَ الصَّلاة به فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ وهو يدلُّ على أنَّ هذا الإنفاقَ يَشْمَل الزَّكاة وغير الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى يَقْرِن دائمًا في الذِّكْر بين الصَّلاة والزَّكاة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُنْفِقَ ليس مانًّا على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه إنَّما يُنْفِقُ ممَّا رزقه الله، فمهما بَلَغَت بك نفْسُك من الإعجاب والكِبْرياء على إنفاقِكَ فاذْكُر قَوْله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ كُلُّ شَيْءٍ تُنْفِقُه فليس لك فيه مِنَّة على الله عَزَّوَجَلَّ، بل لله المِنَّة عليك به في إيجادِهِ وفي إنفاقِهِ؛ ففي إيجاده؛ لأَنَّه لولا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رزقك ما حصل لك، وفي إنفاقه؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس يَبْخَلون بما آتاهم الله من فَضْلِه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران:١٨٠] فمن نِعْمَة الله عليك أن يَمُنَّ عليك بالإنفاق بعد أنْ مَنَّ عليك بالرِّزْقِ والعطاء.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الإنفاقَ لا نقول: إنَّ الإسرارَ فيه أَفْضَل، ولا إنَّ الإعلانَ

فيه أفضل، بل هو بحَسَبِ الحال، فتارةً يكون الإنفاقُ سرًّا أَفْضَلَ، وتارة يكون الإنفاقُ عَلَنًا أَفْضَلَ؛ حَسَب ما تَقْتَضيه الحالُ، بخلاف الصَّدَقَة فالأَصْلُ فيها السِّرُّ، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]؛ لأنَّ الصَّدَقَة فيها نَوْعُ مِنَّةٍ على المُعْطَى، فربَّما يَنْكَسِرُ أمام النَّاسِ إذا أُعْلِنَت الصَّدَقَةُ له، فصار إخفاؤها أَفْضَل، وفي الحديث الصَّحِيح في الذين يُظِلُّهُم الله في ظِلِّه: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا»(١).

أمَّا الأشياء العامَّة والمُعْلَنَة كما لو أردنا أن نُنْفِقَ في مشروعٍ خَيْرِيٍّ عامٍّ لا يظهر فيه المِنَّة على شخصٍ معين فهنا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَل، وكذلك لو أنَّ شَخْصًا جاء إلينا، وقال: (أرجو أن تَجْمَعوا لي من النَّاس) فهنا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَل من أجل أن يَقْتَدِيَ بك غَيْرك، وهذا الرَّجُل الذي طَلَبَ منَّا أن نجمع له لا يُهِمُّه أن يعلم النَّاس بأنَّه يُتَصَدَّق عليه أو لا يُتَصَدَّق.

فالمُهِمُّ أن نقول: إنَّ السِّرَّ والإعلان في الإنفاق كُلُّه خَيْرٌ، لكنَّ الصَّدَقَة الأَفْضَل فيها السِّرُّ لِما في إظهارها من كَسْرِ قَلْبِ المعطَى، وأمَّا الأشياء العامَّة أو الصَّدَقَة على شَخْص مُعَيَّن هو الذي طلب منا أن نَجْمَع له مثلًا، فهذا قد يكون الإعلانُ فيه أَفْضَل.

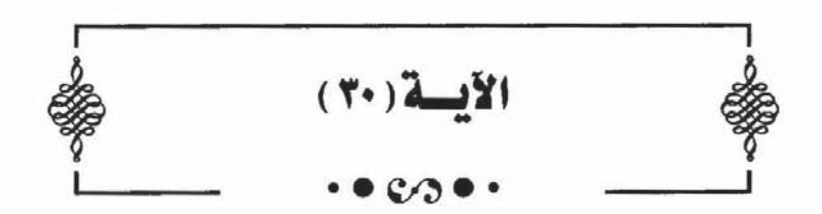
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّنْبيهُ على الإخلاص؛ لِقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ لا يريدون تجارةً تبور وتَهْلِك؛ يعني: لا يريدون مثلًا سُمْعَة؛ لأنَّ السُّمْعَة والجاه بين النَّاس لا شَكَّ أنَّه كَسْبٌ للمَرْءِ، ويُعْتَبَر تجارة، لكن هذه تِجارَةٌ هالِكَةٌ تزول بزوال

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّخْص، أو تزول بزوالِ ما اشْتُهِرَ به؛ لأنَّ من حُمِدَ على شَيْء ذُمَّ على فَقْدِه، لكن الذي يرجو ثوابَ الله ويُحْسِنُ النِّيَّة والقَصْد هذا هو الذي حصل على تجارة لن تبور.

ففيه: التَّنْبيهُ على الإخلاصِ، وأنَّه يَنْبَغي على الإِنْسَانِ أن يكون مُخْلِصًا لله تعالى في عَمَلِه اللَّازِمِ أو القاصِرِ والمُتَعَدِّي؛ فالقاصر كالصَّلاة، والمتعدي كالصَّدَقَةِ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠].

•• ◦ ••

قَوْله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: يُعْطيهم أُجورَهم وافِيَةً كامِلَةً، وضميرُ الفاعل يعود على (الله)؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩]، وَقَوْله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ هذه اللَّامُ للعاقِبَة، وقيل: للتَّعْليل.

فعلى القَوْلِ بأنَّها للعاقِبَة تكون مُتَعَلِّقَةً بـ﴿يَرْجُونَ ﴾ فـ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ عاقِبَتُهم أن يُوَفِّيَهُم الله أجورَهم.

وعلى أنَّها للتَّعْليلِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ﴿يَتْلُونَ ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ ﴾ و﴿وَأَنفَقُواْ ﴾ يعني: يَتْلُونَها لِيُوَفِّيَهُم أُجورَهم، أقاموا الصَّلاة لِيُوَفِّيهم أجورهم، أنفقوا مِمَّا رزقناهم لِيُوَفِّيَهم أجورهم؛ يعني: قصدوا ما رَتَّبَ الله على هذه الأعمال من الأُجُورِ.

وهذا الفِعْل ينصبُ مَفْعولينِ: أَحَدهما هنا: الهاءُ، والثاني: (أُجور)، وهو من أخوات (كسا)، و(أعطى)؛ لأنَّه نَصَبَ ما لا يَصِحُّ أن يكون مُبْتَدَأً وخبرًا، وكُلُّ فعلٍ ينصب مفعولين لا يَصِحُّ أن يكون أَحَدهما خَبَرًا عن الآخر فهو من باب (كسا).

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: ثَوابَ أَعْمالِهِم المذكورة] وهذه التَّوْفِيَة هذه مَعْروفَةٌ لنا جميعًا، وهي أنَّ الحَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سبع مِئَة ضعف

إلى أضعافٍ كثيرة؛ فمثلًا الصَّلاة حَسَنَةٌ بِعَشْرِ أَمْثالِها إلى سبع مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ومع الجماعة تكون سبعًا وعِشرينَ حَسَنة، كُلُّ حَسَنةٍ بِعَشْرِ أمثالِها.

قَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ معطوفة على (يُوفِّيهم)؛ يعني: يزيدهم عطاءً وأَجْرًا من فضله، وهذا مثل قَوْله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يَشْمَل الفَضْل في الدُّنْيا والآخِرَة؛ أمَّا في الدُّنْيا فإنَّ الإنْسَان إذا عمل العَمَل الصَّالِح مُخْلِصًا لله به حَبَّبَ الله إليه العَمَل حتى يزيد في العَمَلِ، وهذا شَيْء مُشاهَد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فَضْلِه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩]؛ أي: يأتي بخلَفِه.

فالزِّيادَة إذَنْ: تشمل زيادَةَ الأُجورِ، وزيادةَ الأَعْمالِ، وزيادَةَ المالِ المنفَقِ منه؛ فزيادة الأعمال؛ لأنَّه الإِنْسَانَ كلَّما عَمِلَ صَالِحًا حبَّب الله إليه العَمَل وزاده فيه، وزيادَة المالِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]، وَقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

وَقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: عطائِهِ الذي يَتَفَضَّلُ به عليهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لذُنُوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعَتِهم].

هذا تعليل لما سبق من تَوْفِيَة الأجور والزِّيادَة من الفَضْل؛ يعني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لِكَوْنه غفورًا رحيمًا صار يُوَفِّيهم أجورَهُم ويزيدُهُم من فضله، وفي هذا: إشارَةٌ إلى مَغْفِرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعامِلِ وإلى شُكْرِه إياه.

الـ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالَغَة أو صفةٌ مُشَبَّهَة، مَأْخوذة من الغَفْرِ، وهو السِّتْر مع الوقاية؛ لأنَّ أَصْلَ هذه المادة المِغْفَر، والمِغْفَر يَحْصُلُ به السِّتْر والوقاية، إِذَن ما مَعْنى أنَّ الله غفور؟

معناه: أنَّ الله يَسْتُرُ الذُّنوبَ ويتجاوَزُ عن العُقُوبَة، وما أَكْثَرَ ما نُذْنِبُ فيما بيننا وبين رَبِنا ومع ذلك يَسْتُرُها الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان يومُ القِيامَة عفا عن عُقُوبَتها، وبذلك تتحَقَّق المَغْفِرَة.

أما الـ﴿شَكُورٌ﴾ فنقول في تَصْريفِه كما قلنا في غفور: إنَّه إمَّا صيغةُ مُبالَغَة، وإمَّا صفةٌ مُشَبَّهَة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شكورٌ؛ أي: يشكر من عَمِلَ العَمَل الصَّالِح، ومِنْ شُكْرِه إياه أنَّه يُضاعِفَ له الأَجْرَ؛ فالحَسَنَة بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْع مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، وانظر إلى كمال الله عَزَّوَجَلَّ عليك في صِفَتِه أنَّه هو الذي يَمُنُّ عليك بالعَمَل، ثم يَشْكُرُك عليه ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] سبحان الله العظيم! ربُّنا يُحسِنُ إلينا ثم يقول: (ما جزاء إِحْسانِكُم إلا أنْ أُحْسِنَ إليكم) وهو الذي تَفَضَّلَ به أوَّلًا، وهذا يدلُّ على سَعَةِ كَرَمِ الله، والحَمْدُ لله، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ واسِعُ الكرم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ طلب الإِنْسَان للثَّوابِ غايةٌ عَظيمَة؛ لأنَّ اللَّام -كما أشرنا إليه آنفًا- للتَّعْليل، هذا إذا قلنا: إنَّها للتَّعْليل، وهي صَالِحَة للتَّعْليل، فكون الإِنْسَانِ يَعْمَل من أجل الأَجْر فإن هذا لا يُعدُّ نقصًا، خلافًا للصُوفِيَّة الذين يقولون: (لا تَعْبُدِ اللهَ لثواب الله، ولكن اعْبُدِ الله لله) فنقول لهم: هذا خطأ، فالله تعالى وَصَفَ أَشْرَفَ هذه الأُمَّة وخَيْرَ هذه الأُمَّة بأنَّهم يريدون فضلًا من الله ورِضْوانًا، قال الله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، ومع ذلك لا نقول: (إنَّك لا تعبد الله لله) بل اعْبُدِ الله لله ولِثوابِ الله؛ فإنَّك لن تَصِلَ إلى الله إلا بعد وُصولِكَ إلى ثوابِ الله، فإنَّ لقاء الله -اللقاء الذي هو الرِّضا التَّامُّ- إنَّما يَحْصُل في الجَنَّة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] هذا الفوز الكامل، وَقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢] متى يرون وجه الله؟

الجواب: إذا دخلوا الجَنَّة، رُؤْيَةُ وَجْهِ الله الرُّؤْيَة التَّامَّة بعد دخول الجَنَّة.

الحاصِلُ: أنَّ في هذه الآيَة وأمثالِها ما يدلُّ على ضَعْفِ ذلك المَسْلَك الذي سلكه أولئك الصُّوفِيَّة بألَّا تَعْبُدَ الله لثواب الله ولكن اعْبُدِ الله لله، فنقول: ما أكْثَرَ الآياتِ الدالَّةَ على أنَّ العِبادَة تكون لِفَضْل الله وثوابه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ضمان الثَّوابِ؛ يعني أنَّ الثَّواب مَضْمونٌ للعامل الذي يتعامل مع الله عَزَّوَجَلَّ بناءً على أنَّ اللَّام للعاقِبَة؛ أي: إنَّ هذا العَمَلَ سوف يُوَفَّى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ وفيه أيضًا وجْهٌ آخر لضمان الثَّوابِ؛ أنَّ الله سماه أجرًا، والأجر لا بُدَّ أن يُدْفَعَ لمن قام بالعَمَل.

بل جاء في الحديث الصَّحيح، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»[1].

فإذا كان الله خصمًا لهؤلاء؛ لأنَّهم لم يُعْطُوا الأجر فإنَّه يدلُّ على أنَّ الأجر الذي ضمنه الله لعباده سوف يَحْصُل قطعًا، ولكن لا بُدَّ أن يكون العَمَل صحيحًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ جزاء الحسنات أكثر مِمَّا يجب؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وزيادة الفضل شرحناها في التَّفْسير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثباتُ الاسْمَين الكريمينِ: (الغفور) و(الشَّكور)، وما تَضَمَّناه من صفة، وهي: المَغْفِرَةَ والشُّكر، وما تضَمَّناه أيضًا من أثَرٍ وهو الحُكم، فإن (غفور) يؤخَذُ منها أنَّه يغفر، و(شكور) يؤخذ منها أنَّه يَشْكُر من يستحِقُّ الشُّكْر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: دليلٌ على ثُبُوتِ الأَفْعالِ الاخْتِيارِيَّة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ و﴿وَيَزِيدَهُم﴾ وهذا مذهب أَهْل السُّنَّة والجماعَة أنَّهم يُثْبِتون لله تعالى الأفعال الاخْتِيارِيَّة؛ أي: التي تقع بِمَشيئَتِه، فإنَّه تعالى فعَّالٌ لما يريد خلافًا لمن زعم أنَّ الله تعالى لا يُوصَفُ بشَيْء حادثٍ أبدًا.

• • ۞ • •



الآية (٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر:٣١].

•••

جُمْلَة: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ جاءت بالصِّيغَة الاسْمِيَّة المحصورة، وطريقُ حَصْرِها أمران:

الأَمْر الأول: تَعْريفُ رُكْنَيْها وهما المُبْتَدَأ والخبر، فـ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ مُبْتَدَأ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبر، وقد قال أَهْلُ البَلاغَة: إنَّ تَعْريفَ الرُّكْنَيْنِ من الجُمْلَة الاسْمِيَّة يفيد الحَصْر.

الأَمْر الثاني: من طُرُق الحَصْر هو ضَميرُ الفَصْل وهو قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وضمير الفصل مِن فَوائِدِه: الحَصْر، وله فائِدَة ثانية: التَّوْكيد، وله فائِدَة ثالِثَة: الفَصْلُ بين الخبر والصِّفَة.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الوَحْيُ: إِعْلامُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنبياءَه ورُسُلَه بشريعةٍ من شرائعه، هذا هو الوَحْيُ شرعًا، أمَّا في اللُّغَة فقالوا: إنَّ الوَحْيَ هو الإِعْلام بسُرْعةٍ وخفاءٍ؛ يعني: مثل الإِشَارَة، والهَمْس، وما أشبههما، تُسَمَّى وحيًا.

أما السُّنَّة فإنَّها نوعان: منها وحيٌ، ومنها ما ليس بِوَحيٍ، أحيانًا يُسْأَل النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن شَيْء ولا يُجيبُ، فيَنْزِل عليه الوحي فيجيب بحديثٍ نَبَوِيٍّ؛ مثل

قصة يَعْلَى بن أُمَيَّة الذي كان أَحْرَمَ بالعُمْرة وهو مُتَضَمِّخٌ بالخلوق، فسأل النَّبِيَّ ﷺ عن ذلك، ولَكِنَّه لم يُجِبْه حتى جاءه الوحي[1]، وأحيانًا يُسْأَلُ عن الشَّيْء ثم ينزل به الوَحْيُ على أنَّه كَلَام الله (قُرْآن) فيُبَلِّغُه النَّبِيُّ ﷺ.

قَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المُرادُ به هنا القُرْآن قطعًا؛ بدليل قَوْله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لأن ﴿مِنَ﴾ بيانِيَّة، تُبيِّنُ الإبهام في اسْم الموصول ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ لأنَّ اسْمَ الموصول فيه إبهامٌ، فإذا جاءت من بعد اسْم الموصول فهي تَبْيِينِيَّة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ القُرْآن] وهو كِتَاب بمَعْنى مَكْتوبٍ؛ لأنَّ صيغة (فِعَال) تأتي كثيرًا بمَعْنى مَفْعولٍ، وأمثلتها: (غِراس، بِناء، فِراش) بمَعْنى: مَغْروس، ومَبنِيٍّ، ومَفْروش، فالكِتَاب بمَعْنى مكتوبٍ، مكتوب في أي شَيْءٍ؟ مكتوب في اللَّوْحِ المَحْفوظ، مكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس:١١-١٦]، مَكْتوبٌ في المصاحف التي بأيدينا.

إذن: هو مَكْتوبٌ على ثلاثَةِ أَوْجُهٍ: اللَّوْح المَحْفوظ، الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَة، الصُّحُف التي بأيدينا.

قَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خَبَرُ ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ فالذي أوحى الله إلى رَسُوله ﷺ هو الحَقُّ، أَكَّدَ الله ذلك بِمُؤَكِّدَينِ: ضَميرِ الفَصْلِ، وتَعْريف رُكْنَي الجُمْلَة.

قَوْله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: يعني: الشَّيْءَ الثَّابِتَ صِدْقًا في الأَخْبار وعدلًا في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب غسل الخلوق ثلاث مرات، رقم (١٥٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة، رقم (١١٨٠)، من حديث يعلى بن أمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأَحْكَام، فأَحْكَامُ القُرْآن كُلُّها عَدْلٌ، وأَخْباره كُلُّها صِدْقٌ، ليس فيها كَذِبٌ بِوَجْهٍ من الوجوه، وليس في أَحْكَامِهِ جَوْرٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لأَنَّك إذا تأَمَّلْتَ أَحْكَامه وَجَدْتَه قد أعطى كل ذي حَقٍّ حَقَّه؛ فلهذا كان عدلًا في الأَحْكَام، وإذا تأَمَّلْتَ أَخْباره وَجَدْتَها كُلَّها صدقًا، وهذا هو الصِّدْق في الأَخْبار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

قَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَقَدَّمَه من الكُتُب]؛ يعني: مُصَدِّقًا لما تَقَدَّمَه من الكُتُب؛ لأَنَّ الكتب التي سَبَقَتْه تكون بين يديه، ألا ترى إلى الرَّجُل يكون أمامك فهو قد سَبَقَك، وتقول: (إنَّ الرَّجُل بين يديك)، وربَّما يقال لِما بين اليدين للشَّيْءِ المُسْتَقْبَل؛ لأَنَّه أمامك أيضًا كما في قَوْلِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ أي: مُسْتَقْبَلَهم وماضِيَهم.

وَقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كَيْفِيَّةُ التَّصْديقِ للكُتُب السابقة من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّه صدَّقها؛ أي: أَثْبَتَ أَنَّها صادقة، فالقُرْآنُ يُثْبِتُ صِحَّة التوراة والإِنْجيل والزَّبُور وغير ذلك من الكُتُب، ويُبيِّن أَنَّها صِدْق.

الوجه الثاني: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأَنَّ الكُتُبَ السَّابِقَة أخبرت به، فنُزُولُه يكون تَصْديقًا لها، فهو مُصَدِّقٌ لما بين يديه من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّه صَدَّقَ ما سبقه؛ أي: قال: إنَّها كُتُبٌ صادِقَة ثابِتَة وأوجب الإيمان بها.

والوجه الثاني: أَنَّه صَدَّقَ ما أَخْبَرَتْ به؛ أي: نَزَلَ مُطابِقًا لما أخبرت به كما قال

الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، القُرْآن؛ زُبُرُ الأَوَّلِينَ كُتُبُهم؛ يعني أَنَّه موجود في كُتُبِهم، وأَنَّه سوف يَنْزِل؛ كما أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كذلك قد أُخِذَ العَهْدُ والميثاق على كُلِّ نَبيٍّ أن يُصدِّق به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران:٨١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبواطِنِ والظَّواهِرِ] هذه الجُمْلَة تَعلُّقُها بما قبلها أنَّها تفيدُ تَحْذيرًا وإِنْذارًا وتَرْغيبًا، فهي ترغيبٌ وتَرْهيبٌ؛ لأنَّه لما أَخبَرَ بأنَّ هذا القُرْآن هو الحقُّ، فقد انْقَسَم النَّاس في هذا الحَقِّ إلى قسمين: قسمٌ صدَّق به، وقسمٌ كَفَرَ به.

وكلُّ هؤلاء نقول لهم: إنَّ الله تعالى بكم خبيرٌ بصيرٌ، فالذين صَدَّقوا به لن يَضيعَ تَصْدِيقُهم وعَمَلُهم بما جاء به؛ لأنَّ الله خبيرٌ به وبصيرٌ به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذَّبوا به أيضًا لن تَخْفى حالُهم على الله عَزَّوَجَلَّ، فسوف يُعاقِبُهم بما يقتضي تكذَيبهم وإِنْكارَهُم واسْتِكْبارَهم، فالجُمْلَة إذن: هي باعتبارِ المُصَدِّقينَ لهذا القُرْآن للبِشارَة وباعْتِبارِ المُكَذِّبين للإنذارِ والتَّحْذيرِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ اسْمُ فاعِلٍ على صيغة مبالَغَةٍ، وإن شئت فقل: إنَّه صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وهو أحسن بالنِّسْبَة لما يَتَعَلَّق بالعِلْمِ، الأحسن في هذا أن نقول: (إنَّه من باب الصِّفَة المُشَبَّهَة)؛ لأنَّ الصِّفَة المُشَبَّهَة تدلُّ على الثبوت، لكنَّ صيغةَ المُبالَغَة قد تدُلُّ على الحُدُوثِ، وحدوث الخِبْرة في جانب الله عَزَّوَجَلَّ مُسْتحيلٌ؛ لأنَّه لم يَزَلْ ولا يزال خبيرًا.

إذن نقول: إنَّه يتعَيَّنُ أن نجعل ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ صِفةً مُشَبَّهة؛ لأنَّنا لو جعلناها صيغة

مُبالَغَةٍ من (خابِر) لكانت مُوهِمَةً لتَجَدُّد الخِبْرَة والعِلْم، وهذا شَيْء مُسْتَحيلٌ في جانِبِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ كَلِمَةُ ﴿بَصِيرٌ﴾ قد يراد بها العِلْم، وقد يراد بها الإدْراكُ بالرُّؤْيَةِ، وكلا الأَمْرَيْنِ لا يناقِضُ بَعْضُهما بعضًا وقد تقدَّم في قواعد التَّفْسيرِ أنَّ الآيَة إذا احتملت مَعْنَيينِ لا يَتَناقَضانِ فإنَّها تُحمَل عليهما؛ لأنَّ ذلك أَوْسَعُ في معناها وأبلغ، فالله عَزَّوَجَلَّ بصيرٌ بعبادِهِ من حيث النَّظَرُ والرُّؤْيَة، ومن حيث العِلْم؛ في جانب المَعْمولاتِ المَفعولاتِ الظَّاهِرةِ تكون الرُّؤْيَة والعِلْم أيضًا، وفي جانِبِ المَسْموعاتِ يكون العِلْمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ أنَّ القُرْآنَ كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ والوَحْيُ إِعْلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَحَدَ أَنْبيائِه بشريعةٍ من شرائِعِه، وهذا هو مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ القُرْآن كَلَام الله تعالى تَكَلَّمَ به حَقيقَة بِحُروفِهِ وبِصَوْتٍ مَسْموعٍ، لَكِنَّه لا يُشْبِهُ أَصْواتَ المَخْلوقينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَة رسولِ الله ﷺ بما أوحى اللهُ إليه من هذا القُرْآنِ العظيمِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اشتمال القُرْآنِ الكريم على الحَقِّ في أَخْباره وفي أَحْكَامِهِ؛ فأَخْباره كُلُّها صِدْقٌ وأَحْكَامه كُلُّها عَدْلٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما خالَفَ القُرْآنَ فهو باطِلٌ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فحصر الحَقَّ فيه، والحَصْرُ إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ ونَفْيُه عمَّا سواه، فكلُّ ما خالف القُرْآنَ فهو باطِلٌ بلا شَكٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إنذارُ المُخالفينَ لهذا القُرْآنِ وبِشارَةُ المُوافقينَ له، تُسْتَفادُ هذه الفائِدَةُ من قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

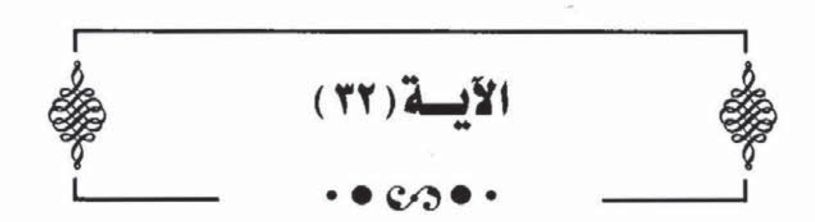
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ هَـذَينِ الاسْمَيـنِ لله عَزَّوَجَلَّ وما تَضَمَّناه من صفـةٍ وحُكْم: خبير وبصير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عُمومُ عِلْمِ الله وشُمولُه حتى لِما يقوم به العبادُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: علم الله تعالى بما تُكِنُّه الصُّدُور، تؤخَذُ من قَوْله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾ وربَّما نقول أيضًا: و﴿بَصِيرٌ﴾ لأنَّ (بصير) بمَعْنى العليم والمُبْصِر.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ جميع الخَلْقِ عابدون لله، فالخَلْقُ كُلُّهُم عِبادُ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فلا حَـقَّ لأَحَدٍ من المَخْلوقيـنَ في شَيْء من خصائص الرَّبِّ، بل كُلُّ عَبْدٌ ذليلٌ لله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

•• ❁ ••

كَلِمَة (أَوْرَثَ) هنا نَصَبت مَفْعولَينِ ليس أَصْلُهما المُبْتَدَأَ والخَبَر، وعلى هذا فهي من باب (كسا وأعطى)، والمَفْعولُ الأَوَّل هو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والثاني هو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ فليس الكِتَابُ وارثًا لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم الذين وَرِثُوا الكِتَاب، يعني: أَوْرَثْنا الذين اصطفينا من عبادنا الكِتَابَ، ومَعْنى أورثناهم إياه؛ أي: جَعَلْناهم يَرِثُونَه؛ فالذين اصطفاهم الله أَوْرَثَهُم الله الكِتَاب؛ أي: جَعَلَهُم يرثونه.

وكَلِمَة ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرْآن] ويَنْبَغي أن نجعله أَعَمَّ؛ لأَنَّنا لو قلنا: (إنَّ الكِتَاب هو القُرْآن)، وقلنا: إِنَّه مَوْروثٌ عمَّن سَبَقَنا لكان القُرْآن قد نزل على من سَبَقَنا، وليس الأَمْر كذلك؛ فالمُرَادُ بالكِتَاب هنا الجِنْس، لا خصوصُ القُرْآنِ؛ يعني أنَّ الكُتُب السَّابِقَة كُلُّ ما فيها من الخَيْرِ موجودٌ في القُرْآن، فنحن وَرِثْنا عمَّن سبقنا كلَّ ما أُوتوه من خَيْرٍ، فالأُصُولُ التي تجب على كل مُسْلِمٍ في أيِّ مكانٍ وزمان موجودَةٌ في القُرْآن، والشَّرائِعُ التي تَخْتَلِف باختلافِ الأُمَم وباخْتِلافِ الزَّمانِ والمَكانِ هذه تَخْتَلِفُ عمَّن سبق؛ قد يَجِبُ علينا ما لا يَجِبُ عليهم، وقد يُحَرَّم علينا

ما لا يُحَرَّمُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، أمَّا الأُصُولُ فقد وَرِثْناها عنهم، فالأصول التي هي أمُّ الدِّينِ قد وَرِثْناها عمَّن سَبَقَنا.

قَوْله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخْتَرْنا، وهو مَأخوذٌ من الصَّفْوَة، وأصله (اصْتَفَيْنا) لكن لِعِلَّةٍ تَصْرِيفيَّةٍ قُلِبَتِ التاءُ طاءً، فقيل: (اصطفينا من عبادنا)؛ أي: اخْتَرْناهم.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل المُرادُ بذلك العُبُودِيَّةُ العامَّةُ أو الخاصَّة؟ يعني الذين اصْطَفَيْناهم من المُؤْمِنينَ، أو اصْطَفَيْناهُم مِنْ جَميعِ العباد؟

الذي يظهر أنَّها من العُبُودِيَّة العامَّة؛ يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده الذين يَخْضَعون له كَوْنًا، والمُرَاد بهم هذه الأُمَّة، بدليل قَوْله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] فالذين اصْطَفَاهم الله من عباده هم هذه الأُمَّةِ للآيَةِ التي سُقناها وهي في آل عمران، ولدليلٍ آخَرَ من هذه الآيَةِ نَفْسِها؛ لأنَّ هذه الأُمَّةَ هي آخِرُ الأُمَم، إذن فلا يُمْكِن أن يُورَثَ ما عندها من الكِتَاب، فهي وارِثَةٌ غَيْر موروثة، وإذا كانت وارِثَةً غَيْر مَوْروثة فهي التي اصْطُفِيَت.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالتَّقْصيرِ في العَمَلِ به]؛ أي: بالكِتَابِ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يَعْمَلُ به أَغْلَبَ الأَوْقاتِ ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ يَضُمُّ إلى العَمَل التَّعْليمَ والإرْشادَ إلى العَمَلِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته].

قسَّم الله تعالى هذه الأُمَّة التي أورثها الكِتَابَ إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل في المَرْتَبة فالأَقَلِّ، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾.

فالظَّالِمِ لِنَفْسِه هو الذي ترك شيئًا من الواجِباتِ أو فَعَلَ شيئًا من المُحَرَّمات؛ ترك صلاةَ الجَماعَةِ مع وُجُوبِها عليه، تَرَكَ بَعْضَ الزَّكاة لم يُخْرِجْه، ترك الحَجَّ على الفَوْر مع وُجُوبه عليه على الفَوْرِ، هذا نقول: إنَّه ظالمٌ لِنَفْسِه؛ فَعَلَ المُحَرَّماتِ، شَرِبَ الخَمْرَ، زنا، سَرَقَ، نظر نَظَرًا مُحَرَّمًا، هذا نقول: إنَّه ظالمٌ لنفسه.

ومَعْنى الظَّالِمِ في الأَصْل هو النَّاقِصُ؛ لأنَّ الظُّلْمَ هو النَّقْص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]؛ يعني: لم تَنْقُص، وكلُّ من أساء فقد نقص فيما يَجِبُ عليه؛ ولهذا كل عَمَلٍ سَيِّئٍ يُعْتَبَرُ نقصًا فيما يَجِبُ عليك؛ لأنَّ الواجِبَ عليك لِنَفْسِك أن ترعاها حَقَّ رِعايَتِها، فأنت مَسْؤُولٌ أَوَّلَ ما تُسْأَلُ عن نَفْسِكَ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لأَهْلِك عليك حقًّا»(١)، فبدأ بالنَّفْس، فكما يَجِبُ عليك أن ترعى مصالِحَ وَلَدِك، ومالِك، وأَهْلِك، يَجِبُ عليك أن ترعى مَصْلَحَة نَفْسِك، بل هو الواجِبُ الأَوَّل من حقوق المَخْلوقينَ بعد حَقِّ الله ورسوله.

إذن: مَن فَعَل مُحَرَّمًا فقد ظَلَمَ نفسه؛ لأنَّه نَقَصَها حَقَّها في الأَمانَةِ، أنت مُؤْتَمَنٌ عليها يَجِبُ أن ترعاها حَقَّ رعايتها، ومن ترك واجِبًا فقد ظلم نَفْسَه؛ لأنَّ الواجِبَ عليه أن يفعل الواجِبَ ليقوم بحَقِّ الأَمانَة فيما يَتَعَلَّق في نفسه، هذا الظَّالِمِ لِنَفْسِه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ المُقْتَصِدُ هو الذي لم يَقَعْ منه ظُلْمٌ لِنَفْسِهِ ولا تَقَدُّمٌ في الخَيْرِ؛ أي: قائمٌ بالواجِباتِ تارِكٌ للمُحَرَّماتِ، لَكِنَّه لا يُكْثِرُ من النَّوافِلِ، ولا يَحْرِصُ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم (١٩٦٨)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري: كتاب التهجد، رقم (١١٥٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِكمالِ الواجِباتِ على الوَجْهِ الأَكْمَل، ولا يتَجَنَّبُ المَكْروهاتِ، فهو مُقْتَصِدٌ، لا نَقَصَ ولا زَادَ.

يُصَلِّي مع الجماعَةِ، ويُزَكِّي بدون نَقْصٍ، لكن لا يأتي بالنَّوافِل ولا بِصَدَقَةِ التَّطَوُّع، يؤَدِّي فريضة الحَجِّ لكن لا يعود، يَصومُ رَمَضانَ لكن لا يصوم نَفْلًا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المُعامَلاتِ بين النَّاسِ على الوَجْهِ الواجِبِ فقط، لا يتسامَحُ عن فقيرٍ، ولا يُنْزِلُ من قِيمَةٍ أو ثَمَن، لَكِنَّه ماشٍ على ما يَجِبُ عليه، نقول: هذا مُقْتَصِدٌ، هذا لا له ولا عَلَيْه؛ يعني: ليس له ثَوابٌ إلا ثوابُ فِعْلِ الواجِبِ فقط.

﴿سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ هذا يأتي بالواجِباتِ ويَزيدُ ما شاء الله تعالى من الخَيْراتِ، ويأتي بالواجباتِ أيضًا على الوجه الأَكْمَلِ الأَتَمِّ؛ فالصَّلاة مثلًا لا يَقْتَصِرُ فيها على تَسبيحَةٍ واحِدَة بل يزيدُ، لا يَقْتَصِرُ على الفاتِحَة بل يزيد، لا يَقْتَصِرُ على أن يضع يديه مثلًا مُطْلَقَةً هكذا، بل يضعها في مَوْضِعِها في حالِ القيامِ، وفي حالِ الرُّكوعِ، وفي حالِ السُّجود، وهكذا.

نقول: هذا سابِقٌ بالخَيْرات، يؤَدِّي الزَّكاةَ ويتَصَدَّق، يَحُجُّ الواجِبَ ويَتَطَوَّع، يَصومُ رَمَضانَ ويَتَنَفَّل بِغَيْره من الصِّيامِ، هذا نقول: إِنَّه سابِقٌ بالخَيْراتِ.

أما قَوْلُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إنَّ مَعْنى [﴿سَابِقٌۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يَضُمُّ إلى العَمَل التَّعْليمَ والإِرْشادَ إلى العَمَل] ففي هذا نَظَرٌ ظاهِر؛ لأَنَّ التعليم قد يكون واجِبًا، وإذا قام بالتَّعْليمِ الواجِبِ صار من المُقْتَصِد، وإن تركه صار من الظَّالِمِ لِنَفْسِه، وكذلك نقول في الإرشادِ: الإِرْشادُ الواجِبُ إذا قام به صار مُقْتَصِدًا، وإن تركه صار ظالِمًا لِنَفْسِه، ولكن ما قلنا هو الصَّوابُ.

واختلفَ المُفَسِّرون في هذه الآيَةِ؛ فمنهم من يقول: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾

كالمانِعِ للزَّكاةِ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ كالمُقْتَصِر عليها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ كالزَّائِد عليها.

وآخَـرُ يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مُؤَخِّـرٌ للصَّلاةِ عـن وَقْتِها ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فاعِلٌ لَها في وَقْتِها، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فاعِلُها في أوَّلِ وَقْتِها؛ أي: في الوقت الذي يُسْتَحَبُّ أن تقام فيه، فهل بين القَوْلَيْنِ خِلافٍ؟

الجواب: لا، ليس بينهما خلاف، هذا يُسَمَّى اختلافَ تَنَوُّعٍ؛ يعني أنَّ كل واحِدٍ من القائلِينَ ذَكَرَ نَوْعًا، فيكون هذا على سبيل التَّمْثيلِ، ولا يُعَدُّ هذا خلافًا في الواقِعِ، ولَكِنَّه تَمْثيلٌ، هذا مَثَّلَ بالزَّكاة، وهذا مَثَّل بالصَّلاة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادَتِهِ] لكن هل المُراد الكَوْنِيَّةُ أو الشَّرْعِيَّةُ؟

الظَّاهِر أنَّنا نُغَلِّبُ هنا الكَوْنِيَّة؛ يعني أنَّ هذه الأَقْسامَ الثلاثة: الظالِمِ، والمُقْتَصِد، والسَّابِق، كُلُّهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أَذِنَ للظَّالم نَفْسَه أن يَظْلِمَ نَفسَه، وللمُقْتَصِد أن يَقْتَصِر على ما يَجِبُ، وللسَّابق أن يزيد.

وتقييدُ هذا بإذن الله؛ لئَلَّا يَفْتَخِرَ مفتخرٌ بكونه سابقًا بالخَيْراتِ، فيُضيفَ الشَّيْءَ إلى نَفْسِه، ويَمُنَّ به على رَبِّه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فأنت إذا منَّ اللهُ عليك بِسَبْقٍ في الخَيْراتِ لا تَظُنَّ أنَّ هذا من نَفْسِك، لو وُكِلْتَ إلى نَفْسِك لكُنْتَ ظالِمًا لِنَفْسِك؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

[الأحزاب:٧٢] هذه حَقيقَةُ الإِنْسَانِ: الظُّلم والجَهالَة، لكن مَنْ مَنَّ الله عليه وهَداه فهو مِن فَضْلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إِرْثُهُم الكِتَابَ ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾].

صدق الله، الفَضْلُ الكبيرُ الذي لا يُدانيهِ فَضْلٌ هو مِنَّةُ الله على عبده بالعِلْم بهذا الكِتَابِ، هذا هو الفَضْلُ الكَبيرُ، ليس الفَضْلُ الكبير بأن يُعطَى الإِنْسَانُ قُصُورًا أو مَراكِبَ فَخْمَةً أو زوجاتٍ حِسَانٍ أو أبناءً كثيرين، لا، الفَضْلُ الكبير أن يُورَثَ هذا الكِتَابَ، كُلُّ من وَرِثَ هذا الكِتَاب علمًا وعَمَلًا ودَعْوَةً فهو الذي حاز الفَضْلَ الكَبيرَ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وفي قَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ فيها أداةُ حَصْر، وهو ضميرُ الفَصْل، وضميرُ الفَصْلِ هو ضميرٌ يأتِي مطابقًا للسِّياقِ، يأتي بِصورَة الغائِبِ كـ(هو)، وبِصورَةِ المُخاطَب كـ(أنت)، وبصورة المُتكَلِّم كـ(أنا)، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر:٨٩] هذا أتى بصيغة المُتكَلِّم، وتقول لمن تخاطبه: (إنَّك أنت القائِلُ) ومنه قَوْله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] هذا في صِيغَة المخاطب، وفي صيغة الغائِب كثير، منه هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

إذن: فضميرُ الفَصْل ضميرٌ يؤتَى به مطابقًا للسِّياقِ من حيث التَّكَلُّمُ والخِطابُ والغَيْبَةُ، وهو من حيثُ الإِعْرابُ لا مَحَلَّ له.

أمَّا من حيث المَعْنى فيفيد ثلاثة أُمُور: يفيد التَّوْكيدَ، والحَصْرَ، والتَّمْييزَ بين الخَبَرِ والصِّفَة.

فتقول مثلًا: (زيدٌ الفاضِلُ) ليس فيها ضميرُ فَصْل، فهنا يُحْتَمَل أن تكون (الفاضِلُ) خبرًا، ويُحْتَمَل أن تكون صِفَةً والخبرُ لم يأتِ، ويُمْكِن أن نقول: تَقْدير الكَلَام: زيدٌ الفاضِلُ قائمٌ، فتكون الفاضِلُ صِفَةً، فإذا قلتَ: (زيدٌ هو الفاضِلُ) تعيَّنَ أن تكون الفاضِلُ هنا خبرًا، ولا يُمْكِنُ أن تكون صِفَةً، إذن فهو يُمَيِّز بين الصِّفَة والخَبَرِ، فيكون ما بعده خَبَرًا لا صِفَةً، ولولاه لكان مُحْتَمَلًا أن يكون خَبَرًا أو صِفَةً؛ هذا شَرْح قَوْلنا: (التَّمْييزُ بين الخَبَرِ والصِّفَةِ).

فيفيد الحَصْر؛ فإذا قُلْتَ: زيدٌ فاضلٌ، هل يَمْنَعُ أن يكون غَيْرُه فاضِلًا؟ لا يمنع.

فإذا قلت: زيدٌ هو فاضِلٌ، أو زيدٌ هو الفاضِلُ؛ نَعَم، تعني أن يكون (زيدٌ) وَحْدَه هو الفاضِلُ.

أما التَّوْكيدُ فلا شَكَّ أنَّ قَوْلك: (زيدٌ الفاضل) تريد المُبْتَدَأ والخبَرَ، لا شَكَّ أنَّها جُمْلَة تامَّةٌ ومعناها واضِحٌ، لكن إذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ كأنَّك اتَّكَأْتَ عليه وزِدْتَها توكيدًا.

فـ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ بمَعْنى العطاء من الله، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ من حيث الحَجْمُ فهو كبيرٌ في كَيْفيَّتِه، ونحن نَعْلَم من جهةٍ أخرى أنَّه كثيرٌ في كَمِّيَّتِه فيجتمع في هذا العطاء الكَمِّيَّة والكَيْفيَّة، فهو فضلٌ كبيرٌ في ذاتِهِ وكَيْفيَّته، وفضلٌ كثير أيضًا في عَدَدِهِ وكَمِّيَّته: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ القُرْآن كِتَابٌ؛ أي مكتوبٌ، وهو مكتوبٌ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي المَلائِكَةِ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدينا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هذا القُرْآن مُصَدِّقٌ لما سَبَقَه من الكُتُب؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائِدَة: أَنَّ الذي يُؤْمِنُ بهذا القُرْآن مُؤْمِنٌ بالكُتُب السَّابِقة؛ لأَنَّ هذا القُرْآن مُصَدِّقٌ لها فيكون الإيمانُ به إيمانًا بما سبق من الكُتُب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الاسْتِشْهادُ بالأَمْرِ الواقِعِ حتى وإن كان مِن عند الله؛ بمَعْنى أَنَّ الله تعالى يَسْتَشْهِد بالأَمْرِ الواقِعِ؛ ليزدادَ إيمانُ المُؤْمِنين؛ وَجْهُ ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على أَحَدِ المَعْنَيَيْنِ، وهما أَنَّه وَقَعَ مُطابِقًا لما أَخبَرَتْ به، فإنَّه إذا أَخبَرَتْ به ثم جاء فهذا دليلٌ على صِدْقِه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، فاسْتَشْهَد الله تعالى بعِلْمِ عُلَماءِ بني إسرائيل زيادةً في التَّثْبيتِ وإقامةً للحُجَّةِ على المُنْكِرين من أَهْلِ الكِتَاب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رَحْمَةُ الله تعالى بعباده؛ حيث لم يَدَعْهُم هَمَلًا، بل أنزل إليهم الكُتُب التي يَسْتَنيرون بها في سَيْرِهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: سَعَةُ التَّعْبيرِ في اللُّغَة العَرَبيَّة، وأَنَّ المَقصودَ المَعْنى دونَ مُجَرَّدِ اللَّفْظِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأَنَّه قد يقول قائل: وهل للقُرْآنِ يَدٌ؟

فالجواب: أَنَّ هذا من بابِ التَّوسُّع في التَّعْبيرِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة، وأَنَّ المقصود هو المَعْنى، والأَلْفاظُ قَوالِبُ تَدلُّ على المَعْنى؛ إذ قوالِبُ الشَّيْء يعني: أَوَانيه التي يُجْعَلُ

فيها، فأنت مثلًا إذا قُدِّمَ إليك (كرتون) مُزَخْرَفٌ مُزَيَّنٌ بالذَّهَب تَسْتَدِلُّ بهذا على ما في باطِنِهِ وأنَّه شَيْءٌ غالٍ قَيِّمٌ، فالألْفاظُ في الواقِعِ قوالِبُ يُسْتَدَلُّ بها على ما تَضَمَّنَتْه من المعاني، وليس لها -أي للألفاظ- مَعْنًى ذاتِيٌّ حتى لا تتغَيَّر بأيِّ تركيبٍ كانت بل هي تتغَيَّر بحَسَب التَّرْكيباتِ والصِّيغ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أورثها هذا الكِتابَ العظيم الذي وَصَفَه الله تعالى بأنَّه حَقٌّ وأنَّه مُصَدِّقٌ لما بين يديه؛ أَوْرَثَه الله تعالى هذه الأُمَّةَ؛ ففي ذلك بيانُ فَضْلِ الله علينا بهذا الإِرْث.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذه الأُمَّة أَفْضَلُ الأُمَم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأُمَّة، واسْتَدْلَلْنا لذلك أيضًا بآيةٍ أخرى وهي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى الفَتْرَة بين عيسى ومُحَمَّدٍ ﷺ؛ تؤخَذُ من (ثم) الدالَّة على التَّراخي، وهو كذلك، ولا نَعلَمُ فترةً أَطْوَلَ منها بالنِّسْبَةِ لما بين الرِّسالاتِ والكُتُبِ المُنَزَّلَة، فقد قيل: إنَّ أطولَ ما كان بين آدَمَ ونُوحٍ، وهذا أمرٌ قد يَشُكُّ فيه الإِنْسَان، لكن ما بينَ عيسى ومُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حوالي سِت مِئَة سنةٍ.

وإنَّما طالَتِ الفَتْرَةُ لتَشْتَدَّ حال النَّاس إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فتأتي الرِّسالَة المُحَمَّدِيَّة إلى قومٍ في غايةِ الضَّرورَةِ إلى الرِّسالَة والوَحْي، ويكون لرِسالَتِهِ مَزِيَّةٌ عَظيمَةٌ؛ حيث جاءت كالمَطَرِ يَنْزِلُ على أَرْضٍ مُجْدِبَة فتكون أَشَدَّ قابليَّةً له وأَشَدَّ تأثُّرًا به.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تقسيمُ هذه الأُمَّة إلى ثلاثَةِ أَقْسامٍ: ظالِمٍ لِنَفْسِه، ومُقْتَصِد، وسابِق بالخَيْراتِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ على الخوارِجِ والْمُعْتَـزِلَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وجَعْلُهُم من الذين اصْطَفَاهُم الله تعالى مِن عباده، ولو خرجوا من الإِسْلامِ لم يكونوا من الْمُصْطَفَيْنَ.

وقد يقول قائل: يُمْكِن أن يعارِضَ الخوارِجُ والْمُعْتَزِلَة هذا الاسْتِدْلالَ بأن يقولوا بأنَّ الْمُرَادَ بالإِثْمِ هنا ما دون الكبائِرِ؟

فيقال: إنَّ ما دون الكبائر يقع مَغْفورًا بفعل الطَّاعاتِ؛ كالصَّلَوات الخَمْسِ والجُمُعَة إلى الجُمُعة ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينئذٍ ينتفي الظُّلْمُ بمُجَرَّد فِعْل هذه الطَّاعاتِ.

ثم نقول قَوْلًا آخر: بأنَّ الآيَة مُطْلَقَةٌ تَشْمَلُ الظُّلْمَ الأَصْغَرَ والظُّلْمَ الأَكْبَرَ.

ففيها ردٌّ على الخوارِجِ والْمُعْتَزِلَة الذين يُكَفِّرونَ أو يُخْرِجونَ الإِنْسَان بالكَبيرَةِ من الإِسْلام، وحينئذٍ لا يكون من العبادِ الذين اصْطُفُوا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كُلَّ عَمَلٍ يقـوم به الإِنْسَانُ فهو بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وإِرادَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة الذين يقولون: إنَّ الإِنْسَان مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِه؛ يقول ويَفْعَلُ ويَتْرُكُ بغير إذن الله، بل هو مُسْتَقِلٌّ بِمَشيئَتِهِ وفِعْلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَبْحُ النَّفْسِ عن الاسْتِعْلاء والفَخْرِ بالطَّاعَةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى لا يقول الإِنْسَانُ: فعلْتُ ذلك من نفسي وأنا الذي فَعَلْتُ وفَعَلْتُ، وهذا خلافًا لما يَسيرُ عليه بعضُ النَّاسِ إذا فعل المَعْصِيَةَ كان جَبْرِيًّا وإذا فعل الطَّاعة كان قَدَرِيًّا؛ إذا فعل الطَّاعَةَ قال هذا منِّي وأنا الذي فَعَلْتُ وأنا الذي فَعَلْتُ، وإذا

فعل المَعْصِيَةَ قال هذا من الله وأنا مُجْبَرٌ عليه، فبعض النَّاس يَسْلُكُ هذا المَسْلَكَ، وهذا مسلكٌ بَعيدٌ من العَدْلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ عُمُومِ مَشيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ حتى في أَفْعالِ العَبْدِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تَفاضُلُ النَّاسِ في العَمَل، ويَتَفَرَّعُ عليه: تَفاضُلُهُم في الإيمـان، والدَّليلُ على تَفاضُلِهِم في العَمَل تَقْسيمُهُم إلى ثَلاثَةِ أقسامٍ، ويَلْزَمُ من تفاضلهم في العَمَل أن يَتفاضَلوا في الإيمان، فيكون في ذلك دليلٌ لِمَذْهَبِ أَهْل السُّنَّة والجماعَةِ القائِلينَ بزيادَةِ الإيمانِ ونَقْصِ الإيمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أكْبَرَ فضلٍ يتفَضَّلُ الله به على عَبْدِهِ أن يُوَفِّقَه للقيامِ بطاعَتِهِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقد أشار الله تعالى إلى هذا المَعْنى في قَوْله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن إِفْضالَ الله على عباده يتفاضَلُ؛ فمنه الكَبيرُ ومنه الصَّغير، وهذا أمرٌ مُشاهَد، ففَضْلُ الله على الرُّسُلِ أعلى من فَضْلِه على الأَنْبياء، وعلى الأنبياءِ أَعْلى من فَضْله على الصِّدِّيقينَ، وعلى الصِّدِّيقينَ أعلى من فَضْله على الشُّهَداء، وعلى الشُّهَداءِ أعلى من الصَّالِحينَ، وهذا لا شَكَّ فيه.

••۞••



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر:٣٣].

• • • •

هذا بيانٌ لثوابِ هؤلاء الأَصْنافِ الثَّلاثَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾ إقامَةٍ ﴿يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي الثَّلاثَةُ، بالبناء للفاعِلِ والمَفْعولِ؛ خَبَرُ ﴿ جَنَّتُ ﴾ المُبْتَدَأُ].

بالبناء للفاعل يَدْخُلونَها، وبالبناءِ للمَفْعولِ: (يُدْخَلُونَها)، وهم إذا أُدْخِلُوا فقد دَخَلُوا، فكأنَّ القراءتَيْنِ واحِدٌ، ولكن يُسْتَفادُ منها من كَلِمَةِ يُدْخَلونَها بيانُ أنَّهم يُعْطَوْنَها كرامةً، فتُقَدَّمُ إليهم حتى يَدْخُلوها، لكن يَدْخُلونَها بدون أن يقال يُدْخَلُونَها، فإنَّ الدَّاخِلَ قد يدخل كرامَةً وقد يدخل من ذاتِ نَفْسِه، لكن إذا أُدْخِلَها كأنَّها قُدِّمَت له على سبيلِ الكَرامَةِ حتى يَدْخُلوها.

وَقَوْله تعالى: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾ جناتٌ أَصْلُها جمع جَنَّةٍ، قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: والجَنَّة البُستانُ الكثيـرُ الأَشْجارِ، وسُمِّي بذلك لأنَّه يَسْتُرُ من كان داخِلَه، والله أعلم.

﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ عَدْن بمَعْنى إقامَةٍ، يعني أنَّ هذه الجَناتِ جناتُ إقامَةٍ لا ظَعْنَ فيها، بل هم خالدون فيها أبدًا، ومع ذلك ليس أَحَدٌ منهم يتمَنَّى أن

يتحَوَّل عما هو فيه؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨] بخلاف الجَنَّةِ فإنَّ الإِنْسَانَ لو كان في أَحْسَنِ ما يكون من البَساتينِ لتَمَنَّى أن يتحَوَّل إلى ما هو أَحْسَنُ منه وأفضل منه، لكن في الآخِرَة كلُّ إِنْسَان من كل واحدٍ منهم يرى أَنَّه في مكان إقامةٍ لا يريدُ أن يَتَحَوَّل عنه.

وهذا لا شَكَّ أَنَّه مِنْ كمالِ النَّعيمِ؛ أَنْ يسْتَقِرَّ الإِنْسَانُ وأن يرى أَنَّه في أَكْمَلِ ما يكون حتى لا تَتَشَوَّفَ نَفْسُه إلى نَعيمٍ أعلى فيَتَنَغَّص نعيمه؛ لأَنَّه من المعلوم أَنَّ الإِنْسَانَ إذا رأى أَنَّه دون غَيْره وإن كان في مقام أمينٍ وإن كان في مقامٍ مُنَعَّم فيه، لكن يَتَنَغَّصُ عليه ذلك لكونه يرى أن غَيْرَهُ أَفْضَلُ منه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بالبناءِ للفاعِلِ وللمَفْعولِ، خَبَرُ، جناتٌ: المُبْتَدَأ]، وجُمْلَة يَدخلونها أو يُدْخَلُونَها خَبَرٌ.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبرٌ ثان] ولا تَصِحُّ أن تكون حالًا من الفاعل؛ وذلك لأَنَّ تَحْلِيَتَهُم بذلك بعد الدُّخول، ولو قُلنا: إنَّهم يَدْخُلونَ حالَ كَوْنِهم يُحَلَّوْنَ لَلزِم من ذلك أن يكون التَّحْلِيَة حينَ الدُّخولِ أو قَبْلَها.

[﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان] وهل يَجوزُ أن يَتَعَدَّد الخَبَرُ؟

الجواب: نعم، وهذا في القُرْآن كثيرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٥] الخَبَرُ الآن أربعة: الغفور والوَدود وذو العرش والمَجيدُ؛ فتعَدُّد الأَخْبارِ جائزٌ في اللُّغَة العَرَبِيَّة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في هذه الجَنَّاتِ ﴿مِنْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَعْض] فأفادنا أَنَّ مِنْ هنا ليست بَيانِيَّة بل هي تَبْعِيضِيَّة، ولو قيل إنَّها بيانِيَّة لكان له وجهٌ جَيِّدٌ؛

لأنَّ التَّحْلِيَة لا تتعَيَّن في الأساوِرِ؛ إذ قد يُحَلَّى الإِنْسَان بالخِرْصان[1] مثلًا أو بالقلائِدِ أو ما أشبه ذلك، فجَعْلُها بَيَانِيَّة أولى مِن جعلها تَبْعِيضِيَّة؛ لأنَّك إذا قلْتَ: يُحَلَّوْنَ بَعْضَ أساوِرَ لم تَكُنِ التَّحْلِيَة بالأساوِرِ، وإنَّما يُحَلَّوْن بِبَعْضِها، إلا إذا قلت: نعم، أقولُ إنَّها على التَّبْعيضِيَّة؛ لأنَّ الأساور المذكورة هنا نوعانِ فقط: ذهب ولؤلؤ، مع أنَّ لهم حليةٌ أخرى وهي الفِضَّة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١]؛ فإذا جَعَلْتَها تَبْعيضِيَّة باعتبار أنَّ الأساوِرَ المذْكورَة من نَوْعَيْنِ وبَقِيَ نوعٌ ثالِثٌ لم يُذْكَرْ: فصار القَوْلُ بأنَّها للتَّبْعيضِ له وَجْهٌ.

وقد ذكرنا مرارًا كثيرةً أنَّه إذا احْتَمَلَ اللَّفْظ مَعْنَيَيْنِ لا يتنافيانِ فإنَّه يُحْمَلُ عليهما فيُمْكِنُ أن نَجْعَلَ ﴿مِنۡ﴾ هنا مُشْتَرِكةً بين كونها بَيانِيَّة وبين كَوْنِها تَبْعِيضِيَّة؛ بين كونِها بيانِيَّة لأنَّ التَّحْلِيَة تكون من الأَساوِرِ وغيرِها، فتكون ﴿مِنۡ﴾ هنا مبيِّنَةً ما يُحَلَّوْن به؛ وتَبْعيضِيَّة؛ لأنَّه ذُكِرَ من الأساور هنا نوعان، وبقي نوعٌ ثالثٌ لم يُذْكَر.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤٍ) مُرَصَّعٍ بالذَّهَب]: (من ذهبٍ ولؤلؤٍ) أمَّا ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ فهي مَجْرورةٌ لا شَكَّ فيها؛ لأنَّها دَخَلَتْ عليها مِنْ، وأمَّا ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ فهي عندي منصوبة، ولكن قَوْلُهُ: [مُرَصَّعٍ] يدلُّ على أنَّها مَجْرورةٌ، كما هي القِراءَة الثانِيَةُ؛ ولهذا يَنْبَغي أن نُصَحِّح في المُصْحَفِ المُفَسَّر ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ ونَجْعَلُها بالجَرِّ بناءً على تَفْسير الجلالِ.

وما الدَّليل على أنَّها (ولؤلؤٍ)؟

الجواب: لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [مُرَصَّعٍ] لو أنَّه أراد قِراءَةَ النَّصْب لقال مُرَصَّعًا.

---

(١) الحلقة الصغيرة من حُليِّ الأذن، واحدتها: خُرْصٌ، وجمعها أَخْراص وخرصان. تاج العروس (١٧/ ٥٤٦)، مادة: (خرص).

إذن: نقول: (ولؤلؤ) فيها قراءتان سَبْعِيَّتانِ؛ إحداهما بالنَّصْبِ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ وعلى هذا تكون معطوفةً على محَلِّ ﴿أَسَاوِرَ﴾ يعني يُحَلَّوْن فيها أساوِرَ ولؤلؤًا؛ أساوِرَ من ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ لؤلؤًا أيضًا؛ وأمَّا بالجَرِّ (ولؤلؤٍ) فهي معطوفة على ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ يعني يُحَلَّوْنَ فيها أساور من نَوْعَيْنِ: من ذهبٍ ولُؤْلُؤٍ.

أَضِفْ إليها ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] تكون أساوِرُهم من ثلاثة أَنْواعٍ: من الذَّهَبِ، واللُّؤلؤ، ومِنَ الفِضَّة.

ولا نَشُكُّ أنَّ السوار من الذَّهَب مُجَمِّلٌ وفيه جمالٌ بذاته، وكذلك السِّوارُ من الفِضَّةِ، وكذلك السِّوارُ من اللُّؤْلؤ، فكلُّ واحدٍ منها على حِدَةٍ فيه جَمالٌ وتَجْميل، فإذا اجْتَمَعَتِ الثَّلاثَة وصُفَّ بَعْضُها إلى بعض تولَّد من ذلك تَجْميلٌ أَكْبَر.

ولا أَحَد يتصَوَّرُ كيفَ تُجْمَعُ هذه الثَّلاثَة؛ هل يكونُ اللُّؤلؤُ بين الذَّهَب والفِضَّة، أو الذَّهَب بين اللُّؤلؤ، أو الذَّهبُ بين اللُّؤلؤ والفِضَّة، أو اللُّؤْلُؤ بينهما؟!.

المُهِمُّ: أنَّ تَرْتيبَها هذا لا أَحَدَ يَتَصَوَّرُه الآن، لكن الذي نُؤْمِنُ به أنَّ هذه الثَّلاثَة تُجْمَعُ، أمَّا كيف تُجْمَعُ، فالله أعلم به، لكننا أيضًا نَعْلَمُ بأنَّ جَمْعَها -أي الثَّلاثَة- له زيادةٌ في التَّجْميلِ.

واعْلَمْ أنَّ الذَّهَب الذي يُذْكَر في نعيم الجَنَّة والفِضَّة واللُّؤْلُؤ ليست كالذَّهَبِ الذي نشاهده الآن أو الفِضَّة أو اللُّؤْلُؤ، بل هو ذَهَبٌ أَعْظَمُ، ذَهَبٌ يليقُ بِنَعيمِ الجَنَّة؛ كما أنَّ النَّخْل والرُّمَّان والفاكِهَة والعَسَل واللَّبَن والخَمْر، وما أشبه ذلك، ليس كالذي يُوجَدُ في الدُّنْيا؛ لأنَّ النَّعِيمَ يناسِبُ الدار، فإذا كانَتِ الدَّارُ الدُّنْيا لا تُشابِهُ الدَّارَ الآخِرَة؛ فالنَّعِيمُ الذي في الآخِرَة لا يُساويهِ النَّعِيم الذي في الدُّنْيا، هذا من حيثُ المَعْقُول.

أما من حيثُ المَنْقولُ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]، وفي الحديث القُدُسِيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

وأنتم تُشاهِدونَ الآن أنَّه لو دعاكم رجلٌ فَقيرٌ وصنع لكم أعلى ما يُمْكِنُه من الطَّعام الذي هو أحسن شَيْء عنده، ودعاكم رجلٌ غَنِيٌّ وصنع لكم أَعْظَم ما يجد من الطعام عنده لَعَرَفْتم بالفَرْقِ؛ فالفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما أتى بِكُلِّ ما يَسْتَطِيعُ؛ كذلك الفَرْقُ بين نعيم الآخِرَة ونعيمِ الدُّنْيا.

فالذَّهَب إذَنْ: يوافِقُ الذَّهَب في الدُّنْيا في الاسْمِ ولا يوافِقُه في الحَقيقَةِ؛ قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الآخِرَة مِمَّا في الدُّنْيا إلَّا الأَسْماء فقط»[2]، أمَّا الحقائِقُ فتَخْتَلِفُ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [(من ذهبٍ ولؤلؤٍ) مرَصَّعٍ بالذَّهَبِ] وَقَوْله: [مُرَصَّع بالذَّهَب] قد يُعارَض المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، إذ قد يقال: إنَّ اللُّؤْلُؤَ حِلْيَة مُسْتَقِلَّة، ويدل لذلك قِراءَةُ النَّصْب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْن لؤلؤًا، أمَّا على قِراءَة الجَرِّ فما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مُحْتَمَل غَيْرُ مُتَعَيِّن؛ فهو يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ اللُّؤْلُؤ ليس مُسْتَقِلًّا بل هو مُرَصَّع بالذَّهَب كما يوجد في حُلِيِّ الدُّنْيا، ولكننا لا نُسَلِّم لما قال، فالظَّاهِرُ من الآيَة الكَريمَة أنَّ اللُّؤْلُؤ سِوارٌ مُسْتَقِلٌّ، ويُبَيِّنُ هذا قِراءَةُ النَّصْب ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني يُحَلَّوْن لؤلؤًا، فجَعَلَ حِلْيَةَ اللُّؤْلُؤِ حِلْيَةً مُسْتَقِلَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

وَقَوْله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما ذَكَرَ ما يُلْبَسُ في اليَدِ ذكر اللِّباسَ العامَّ على جميع البدن؛ فقال: لباسُهُم في الجَنَّة حريرٌ، وحريرُ الجَنَّة ليس كحريرِ الدُّنْيا الذي تُفْرِزُه أو تَصْنَعه دودة القَزِّ؛ فهو قابِلٌ لِكُلِّ آفَةٍ، بل حريرُ الآخِرَة حريرٌ لا يُماثِلُه شَيْءٌ من حريرِ الدُّنْيا أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جزاء أولئـك القَوْمِ الذين أُورِثـوا الكِتَاب على اخْتـلافِ طَبَقاتِهِم الثلاثِ؛ أنَّ جزاءهم جنات عَدْنٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أو (يُدْخَلُونَها) على قِراءَتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارَةُ إلى كمال نَعيمِ الجَنَّة لِكَوْنِها جناتٍ بَهيجَةً، وكَوْنِها مَحَلَّ إقامةٍ لا ظَعْنَ منها أبدًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما يُنْعِم الله على عباده في هذه الجنَّات من أَنْواعِ الفَواكِهِ والمطاعِمِ بدخوله في كَلِمَةِ ﴿جَنَّتُ﴾ وكذلك مِن الملابِسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجَنَّة ليست دار تَكْليفٍ؛ أي: دارًا يُمْنَعُ منها العبدُ مِمَّا يتَنَعَّم به، بل يَتَنَعَّمُ بِكُلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعْلَمُ جميعًا أنَّ تَحَلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنْيا بالذَّهب ممنوعٌ وحرامٌ، لَكِنَّه في الجَنَّة مباحٌ وممنوح، وليس بممنوعٍ؛ لأنَّ الجَنَّة لهم فيها ما يشاؤونَ بل أكثر مِمَّا يشاؤون ويريدونَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ومنها ما يَحْصُلُ من الجمـال بِتَنْويعِ الحُلِيِّ؛ لكونه من ذَهَبٍ ولؤلؤ، وفي الآيَةِ الأخرى فِضَّة، وهنا لم يَذْكُرِ الله تعالى تحديدَ هذه الحِلْيَـةِ، لكن

جاءت بها السُّنَّةُ؛ حيث قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: نُعومَةُ لباسِهِم وأَنَّه أَنْعَمُ ما يكون من اللِّباسِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، حريرٌ لا يَخْلَقُ ولا يتدنَّسُ، ودائمًا على جِدَّته ونظافَتِه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٣٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

قالوا يعني: أَهْلَ الجَنَّة، ويقولون ذلك بعد دُخولِ الجَنَّة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحَمْدُ له سببانِ: الأَوَّل كَمالُ المَحْمودِ، والسَّبَبُ الثاني إنعامُ المَحْمودِ بخِلافِ الشُّكْر بل إنَّه ليس له إلا سَبَبٌ واحِدٌ، وهو إنعامُ المشكور، ولعَلَّنا نَتطَرَّقُ إلى الفَرقِ بين الحَمْدِ والشُّكْر:

فالحَمْدُ قلنا له سببان، فهو أَعَمُّ من الشُّكْر من حيث السَّبَبُ فإنَّ سببه كمالُ المَحْمودِ وإِنْعامُ المَحْمودِ، الشُّكْرُ ليس له إلا سببٌ واحِدٌ وهو إنعامُ المَشْكورِ، فالحَمْدُ أَعَمُّ؛ لأَنَّه يكون على هذا وهذا، والشُّكْرُ يكون بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارح؛ بالقَلْبِ أن يَعْتَرِفَ الإِنْسَانُ بِقَلْبِه بنِعْمَة المُنْعِم؛ وباللِّسانِ أن يَشْكُرَه بِلِسانِهِ ويُثْنِيَ عليه بلِسانِهِ؛ وبالجوارِحِ أن يَقومَ بِطاعَتِهِ فلا يُخالِفُه، وعليه قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[(١)]

أَمَّا الحَمْدُ فلا يكونُ إلا باللِّسانِ؛ لأَنَّ الحَمْدَ وَصْفُ المَحْمودِ بالكمال فلا يكونُ إلا باللِّسانِ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

إذن: فالشُّكر أَعَمُّ مُتعَلَّقًا؛ لأَنَّه يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارِحِ، والحَمْدُ لا يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ، وربَّما يَتَعَلَّقُ بالقَلْبِ لَكِنَّه لا يسمى حَمْدًا، يعني من أَضْمَرَ في نَفْسِهِ الثَّناءَ على الله عَزَّوَجَلَّ لا يقال حَمِدَ الله؛ إذ إنَّه لم يُظْهِرْ وربَّما يتعَدَّى، وربَّما يقول قائِلٌ: إنَّه يكون بالقَلْبِ، لَكِنَّه ليس بظاهِرٍ.

﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الكائِنَ في النُّفُوسِ وهو الغَمُّ بما مضى والخَوْفُ الهَمُّ لما يُسْتَقْبَل، فهنا هل نقول إنَّ الحَزَنَ يَشْمَل الغَمَّ مِمَّا مضى والهَمَّ مِمَّا يُسْتَقْبَل؟

نعم، فكذلك في الجَنَّة جَميعُ ما مضى عليهم من الأَحْـزانِ والهُمُومِ وغيـرِها يَنْسَوْنَها كمـا جاء في الحديث الصَّحِيحِ أنَّ الإِنْسَان يُغْمَسُ في الجَنَّةِ؛ يُصْبَغُ صَبْغَةً واحِدَةً يُغْمَسُ فيها، فيقال له: هل رَأَيْتَ شَـرًّا قط فيقول: لا[1]، فكلُّ ما مضى: من الشُّرورِ والأَحْزانِ والهُمُومِ كُلِّها.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَميعَه] يُشيرُ إلى أن (أل) هنا لاسْتِغراقِ العُمومِ، و(أل) تكون لاسْتِغراقِ العُمومِ إذا صَحَّ أن يَحُلَّ مَحَلَّها كلٌّ؛ فهي للاسْتِغْراقِ، كقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]، وَقَـوْله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أمَّا قَـوْله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤] فليَسَتْ للاسْتِغْراقِ، فما كُلُّ رَجُلٍ قَوَّامٌ، فأحيانًا تكون المَرْأَةُ قَوَّامَةً على الرَّجُل!! فهذه لبيان الحَقيقَةِ فقط، الحَقيقَة فقط.

أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَوْله: [جميعَه] أن (أل) هنا للاسْتِغْراقِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ﴾ للطَّاعَة]؛ هذه الجُمْلَة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم (٢٨٠٧)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُؤَكَّدَة بِمُؤَكِّدَيْنِ؛ بـ(إن) واللام، فهم أَكَّدُوا بالثَّنَاء هذا على الله أَنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غَفُورٌ للذُّنُوب شكورٌ للطَّاعَةِ.

فالغَفُور هنا هل هي صِيغَةُ مُبالَغَة أم صِفَةٌ مُشَبَّهَة؟

هي تشمل الأَمْرَيْنِ جميعًا، هي صيغة مُبالَغَة لِكَثْرِةِ غُفْرانِ الله تعالى للذنوب وكَثْرَة من يَغْفِرُ لهم؛ فهو كثير المَغْفِرَة للذُّنوب؛ إذ إنَّ الذنوب تتكَرَّر من الإِنْسَان عِدَّةَ مَرَّاتٍ فَيَغْفِرُها الله، والذين يَغْفِرُ الله لهم كثيـرون أو قَليلون؟ كثيرونَ، ومن جهةٍ أخرى باعتبار أنَّ الله تعالى لم يَزَلْ غفورًا نقول هي صِفَةٌ مُشَبَّهَة.

وَقَوْله تعالى: ﴿شَكُورٌ﴾ نقول فيها كمـا قلنا في ﴿لَغَفُورٌ﴾ بأَنَّه عَزَّوَجَلَّ لم يزل شكورًا على طاعَةِ عِبادِهِ وامْتِثالِهم أَمْرَه، ومِنْ شُكْرِهِ أَنَّه يعطي العامِلَ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سبعِ مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

وهو أيضًا شكورٌ باعتبارها صيغَةَ مُبالَغَة؛ لأَنَّه كلَّما كَثُر العَمَل كَثُر الشُّكْر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلَة أَهْلِ الجَنَّة بِثَنائِهم على ربِّهم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن حَمْدَ الله تعالى يكون على إنعامِهِ وإِفْضالِهِ وعلى كمال صِفاتِهِ وهنا قالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فحَمِدوا الله على إنعامِهِ عليهم وعلى كَوْنِهِ غفورًا شكورًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمال الفرح والسُّـرورِ لأَهْلِ الجَنَّةِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ فإن هذه الصِّفَة السَّلْبِيَّة تدلُّ على كمال ضِدِّها فإذا كان الحَزَنُ مَنْفِيًّا عنهم

كان ذلك دليلًا على كمالِ سُرُورِهِم وأنَّه سرورٌ لا يُشابُ بِحَزَنٍ أبدًا بخلاف سرورِ الدُّنيا؛ فإنَّ سرور الدُّنيا مهما عَظُمَ مَشُوبٌ بالكَدَرِ ولهذا يقول الشَّاعِرُ الحكيمُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بادِّكَارِ المَوْتِ والهَرَمِ[1]

فالإِنْسَانُ مهما كان في الدُّنيا من النَّعِيم، فإنَّه إذا تذَكَّرَ أنَّ أمامه شَيْئَيْنِ لا بُدَّ منهما؛ لا بُدَّ من أَحَدِهما قطعًا، فإن طالَتْ به الحياة فلا بُدَّ من الأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، وهو الهَرَمُ والمَوْتُ، وحينئذٍ تَتَنَغَّصُ عليه حياتُه، وهو حينئذٍ يَعْرِفُ أنَّه كُلَّ يومٍ يَمْضي عليه فإنَّه يُبْعِدُه من الدُّنيا ويُقَرِّبُه من الآخِرَة، وهذا تنغيصٌ آخَرُ؛ ولهذا قال الشاعر:

والمَـرْءُ يَفْـرَحُ بِالْأَيَّـامِ يَقْطَعُهَـا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ[2]

على كُلِّ حالٍ: في الآخِرَة نعيمٌ لا كَدَرَ فيه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن نعيمَ الآخِرَة يُؤْسِي كلَّ ما سبقه من حَـزَنٍ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وذَهَابُ الحَزَنِ هنا ذَهَابٌ لِما قد وُجِدَ، ولما يُتَوَقَّعُ وُجُوده فلا يُمْكِن أن يَمَسَّه فيها حَزَنٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ اسْمَيْنِ من أَسْماء الله وهما: الغفور والشكور، فالغَفور في جانب المعاصي، والشَّكور في جانِبِ الطَّاعاتِ، أمَّا في المعاصي فإنَّه عَزَّوَجَلَّ قال في الحديث القُدُسِيِّ: «يا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بِي

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

(٢) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/ ٣٧)، وزهر الآداب (٢/ ٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظلّ تفرح بالأيام تقطعها ... وكلّ يوم مضى يدني من الأجل

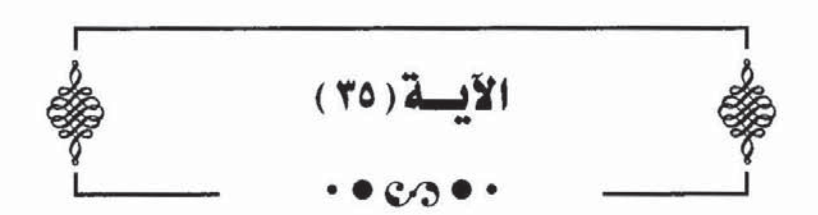
انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/ ٣٩٦).

شَيْئًا لَغَفَرْتُ لَكَ»[1]. وأمَّا في الطَّاعاتِ فإنَّ الله يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ فَاعِلَ الحَسَنَةِ تُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ»[2].

• • ۞ • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيـة (٣٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

قَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هنا يجوز أن تكون صفةً لما سبق وهو الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ ويُحْتَمَل أن تكون استئنافًا؛ يعني أنَّها في محَلِّ رَفْعٍ على القطع؛ لأنَّ المَنْعوتَ إذا عُلم وتَعَدَّدَ النَّعْتُ له جاز في النَّعْتِ الثاني القَطْعُ والإِثباتِ، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنْ نُعُوتٌ كَثُرَتْ وَقَدْ تَلَتْ مُفْتَقِرًا لِذِكْرِهِنَّ أُتْبِعَتْ[1]

وإن لم يكن مُفْتَقِرًا جاز القَطْع.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي أَنْزَلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ هنا بمَعْنى الإقامَةِ فهي إذنْ ظرفُ مكانٍ، أو أنَّها مصدر ميمي دخلتْه التاء، ودار المُقامَة هي دار الجَنَّة ووُصِفَت بذلك لأنَّ ساكنيها مقيمونَ فيها أبدًا ولأنَّهم لا يريدونَ الإِقامَةَ بغيرها، كلُّ واحدٍ منهم لا يبغِي حِوَلًا عما هو فيه؛ لأنَّه يرى أنَّه أَكْمَلُ أَهْل الجَنَّة؛ بل إنَّ الله أَقْنَعَهُم بما هم عليه من النَّعِيم حتى لا يتطلَّعوا إلى نعيم أكثر فيَحْتَقِروا ما هم فيه، بخلاف أَهْلِ النَّارِ فإنَّ أَهْل النَّار كلُّ واحدٍ منهم يرى أنَّه أَشَدُّ أَهْل النَّار عذابًا؛ لأنَّه لو يرى أن غَيْرَهُ أَشَدُّ منه لَهانَ عليه العذابُ.

---

(١) الألفية (ص٤٥).

وَقَوْله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

﴿مِن﴾ سَبَبِيَّة هنا؛ أي: بسبب فضله؛ أي تَفَضُّله علينا؛ لأَنَّه لولا فَضْلُ الله عليهم ما وصلوا إلى هذا المَقامِ العَظيمِ، فكُلُّ ما في الإِنْسَان من خَيْرٍ ونِعْمَةٍ فمن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣].

فإحلالُهُم دار المُقامَة هو من فَضْل الله تعالى، وهذا من تَمامِ شُكْرِهم لله حيث اعْتَرَفوا له بالفَضْل، بخلاف الذي إذا أصابَتْه النَّعْماء قال: هذا لي، أو: هذا من عندي، أو ما أشبه ذلك.

قَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ إعياءٌ مِنَ التَّعَبِ].

لا يمسنا فيها نَصَبٌ؛ أي: تَعَبٌ، ومَعْنى يَمَسُّنا؛ أي: يُصيبُنا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ [التَّوْبَة:٥٠] فالمَسُّ بمَعْنى الإصابة.

وَقَوْله: [﴿نَصَبٌ﴾ تعب ﴿لُغُوبٌ ﴾ إعياء] لأنَّ هناكَ تعبًا مباشِرًا ينالُ الإِنْسانَ حين الفِعْلِ، وإعياءً يكونُ أثرًا للتَّعَب، فأنت إذا مارَسْتَ عملًا شاقًّا فإنَّك حين تُمارَسَتِه تَتْعَبُ، ثم بعد انتهائه تَعْيا؛ يعني: تَضْعُفُ وتَخْلُد إلى الرَّاحة وإلى النَّوْم، فالجَنَّةُ ليس فيها ﴿نَصَبٌ﴾ يعني: تَعَبًا بَدَنِيًّا حين مُزاوَلَةِ الأَعْمالِ ولا ﴿لُغُوبٌ ﴾ أي إعياءٌ وهو النَّاتِجُ عن التَّعَب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إعياءٌ من التَّعَبِ لعدم التَّكْليفِ فيها] هذا تعليلٌ عليلٌ لأنَّ

التكليف حتى في الدُّنْيا غالِبُه ليس فيه تَعَبٌ، بل إن بعضه يكون راحةً للبَدَنِ وراحةً للقَلْب وتَنْشيطًا للبَدَنِ وصِحَّةً له، وليس هذا هو المقصودَ الأَوَّلَ في العبادات، لَكِنَّه يَحْصُلُ من مُمارَسَةِ العِبَادَة، يَحْصُل من ذلك النَّشاطُ والصِّحَّةُ كما هو موجود مثلًا في الصَّلاة، وموجود في الصِّيامِ، ومَوْجودٌ في الحَجِّ، فليس هناك تَعَبٌ في الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ.

بل نقول ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ هذا من باب الصِّفاتِ السَّلْبِيَّة المُتَضَمِّنَةِ لِكَمالِ ضِدِّها، فلا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّهُم فيها لغوب؛ لكمال نَعِيمِهِم وراحَتِهِم وأُنْسِهِم وفَرَحِهِم، وما أشبه ذلك.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [لعدم التَّكْليفِ فيها، وذَكَرَ الثَّانِيَ التَّابعَ للأَوَّلِ للتَّصْريحِ بِنَفْيِهِ].

ذَكَرَ الثانِيَ -وهو اللُّغُوبُ- التَّابعَ للأَوَّلِ -وهو التَّعَبُ- لأنَّ اللُّغوبَ -كما قلنا قبل قليل- نتيجَةُ التَّعَبِ، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَجابَ عن سؤالٍ؛ كأنَّه قيل: إذا انتفى التَّعَبُ انْتَفَى اللُّغُوبُ الذي هو نَتِيجَتُه، فلماذا لم يُقْتَصَرْ على نَفْيِ التَّعَبِ، وقيل لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وإذا انتفى النَّصَبُ انتفى اللُّغُوبُ؟

أجاب على ذلك: بأنَّه ذُكِرَ من أجل التَّصْريحِ بِنَفْيِهِ.

هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا شَكَّ أنَّه وَجْهٌ حَسَنٌ، ولكن ربَّما نقول: إنَّ الإِنْسَان أحيانًا يَجِدُ إعياءً وكَسَلًا ومَوْتَ قُوًى بدونِ عَمَلٍ وبدون تَعَبٍ، وهذا مُشاهَدٌ؛ وعليه فيكون نَفْيُ اللُّغوبِ أمرًا ليس تأْكيدًا، وإنَّما هو أَمْرٌ أَساسِيٌّ؛ أي: إنَّ الإِنْسَان قد يَجِدُ إعياءً أحيانًا وهو ما اشْتَغَلَ.

إذن نقول: إنَّ ذِكْرَه أساسِيٌّ، وليس من باب التَّصْريحِ بِنَفْيِهِ الذي لا يُقْصَدُ منه إلا مُجَرَّدُ التَّوْكيدِ.

المُهِمُّ: أنَّ أَهْل الجَنَّةِ لِكَمـالِ نَعيمِهِم لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّهم فيها لُغوبٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فَضيلَةُ أَهْلِ الجَنَّةِ بإضافتهم النَّعِيمَ إلى المُنْعِمِ به؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فنَسَبُوا الأَمْر إلى الله وإلى فَضْلِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا غايَةُ الثَّناءِ والحَمْد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ دار الجَنَّة دارُ إقامَةٍ، فكُلُّ إِنْسَانٍ لا يتمَنَّى أن يزول عن مكانه منها حتى مَن كانوا في الدَّرجاتِ غَيْرِ العالِيَةِ يرون أنَّهُم في أَكْمَلِ النَّعِيم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَأْبيدُ الجَنَّةِ؛ لِإِطْلاقِ قَوْله تعالى: ﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ ولم تُقَيَّدْ بِزَمَنٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بُلُوغَهُم إلى هذه الدَّارِ ليس بِحَوْلِهِم وقُوَّتِهِم، ولكنْ بِفَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ الأَسْبَابِ؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ هنا سَبَبِيَّةٌ؛ أي: بفضل الله، ففيها رَدٌّ على من ينكرون الأَسْبَابَ، ويقولون: إنَّ الأَسْبَابَ لا تَأْثيرَ لها وإنَّما يَحْصُل الشَّيْءُ عِنْدها لا بِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإِنْسَانَ لا يَدْخُلُ الجَنَّة بِعَمَلِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكِنْ قد يُشْكِلُ على هذا قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]،

وأشباهها من الآياتِ، وقد جمع العُلَماء رَحِمَهُمُاللَّهُ بينهما بأنَّ الباءَ في قَوْله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّبَبِيَّةِ، وأنَّ الباء في قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»(١) لِلْعِوَضِ؛ يعني أنَّ دُخولَ الإِنْسَانِ الجَنَّةَ ليس بعمله؛ إذ لو أنَّه أُريدَتِ المُعاوَضَةُ لَهَلَكَ الإِنْسَانُ؛ فلو أنَّ الإِنْسَان نُوقِشَ في عَمَلِهِ بالإضافَةِ إلى نِعْمَة الله عليه لكانَتْ نِعْمَةٌ واحِدَة تُقابِلُ كُلَّ العَمَلِ، بل لكان العَمَلُ نَفْسُهُ نِعْمَةً يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ؛ لأنه من توفيقِ الله عَزَّوَجَلَّ للعَبْدِ؛ كما قيل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ(٢)

وهذا حَقٌّ؛ كُلُّ عملٍ صَالِحٍ تُوَفَّقُ له فهو نِعْمَةٌ من الله عليك يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ، فإنْ شَكَرْتَهُ صار الشُّكْر نِعْمَةً يَحْتاجُ إلى شُكْرٍ آخَرَ، ثم لا تستطيعُ أن تُثْنِيَ على ربِّكَ بل تَقِفُ تقول: سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كمالُ الرَّاحَةِ في الجَنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وَكَمالُ القُوَّةِ والنَّشاطِ؛ لأنَّ التَّعَبَ إنَّما يَلْحَقُ البَدَنَ الضَّعيفَ.

فإذا قال قائِلٌ: من أين عَرَفْنا الكَمالَ؟

فالجوابُ: مِنَ النَّفْيِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ النَّقْصِ إثباتٌ لِكَمالِ ضِدِّهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص٢٣٢).

وهل يُؤْخَذُ من هذه الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ الجَنَّة ليس فيها نَوْمٌ؟

الجواب: أَخْذُ نَفْيِ النَّوْمِ من هذه الآيَةِ فيه شَيْءٌ من الإِشْكالِ، لكن إذا أَرَدْنا أن نَتَوَسَّعَ في الاسْتِدْلال يُمْكِنُ أن نقول كما قُلْتَ: إنَّ النَّوْمَ إنَّما يُحْتاجُ إليه لراحةٍ مِنْ تَعَبٍ سابِقٍ وتَجْديدِ نَشاطٍ لِعَمَلٍ لاحِقٍ، وإذا كان الإِنْسَانُ في مَحَلِّ إقامَتِهِ لا يَمَسُّه النَّصَبُ ولا اللُّغُوبُ، فإنَّه لا يحتاج إلى النَّوْمُ.

يَرِدُ علينا: الأَكْلُ والشُّرْبُ؛ فالأَكْلُ والشُّرْبُ في الجَنَّة ثابِتٌ مع أنَّه يُحْتاجُ إليه في الدُّنْيا لِحاجَةِ البَدَنِ إلى النُّمُوِّ وإلى العَمَلِ، فيقال إنَّ أَكْلَهُمْ في الآخِرَة ليس للحاجَةِ، ولكن على سَبيلِ التَّلَذُّذ، ولهذا يأكلونَ ويَشْربونَ ولا يَبولونَ ولا يَتَغَوَّطونَ، إنَّما يخرج ذلك رَشْحًا -يعني عَرَقًا- أطْيَبَ مِن رِيحِ المِسْكِ[1]؛ ولهذا يأكلون دائمًا، ولكِنْ في الدُّنْيا إذا امْتَلأَ الإِناءُ وَقَّفَ فلا تَأْكُلْ أَكْثَرَ.

على كُلِّ حالٍ: لا شَكَّ أنَّهم لا ينامونَ مِنْ نصوصٍ أخرى، والعُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقولون: إنَّ النَّوْمَ أخو الموتِ، وقد نفى الله عَنْهُمُ المَوْتَ فإذا انتفى المَوْتُ فإنَّ النَّوْمَ يَنْتَفي أيضًا، لأنَّه وفاةٌ صُغْرى.

ثم إنَّهم لو كانوا يَنامونَ لأدَّى ذلك إلى تَعَطُّلِ نَعيمِهِم وَقْتَ نَوْمِهِم، والجَنَّةُ نَعيمُها دائمٌ مُسْتَمِرٌّ، فالنَّوْمُ ليس مُتْعَةً إلا لِمَنْ يَحْتاجُه فقط، أمَّا من لا يحتاجه فليس فيه فائِدَةٌ، وله أَدِلَّةٌ صَريحَةٌ من السُّنَّة؛ أنَّ الرَّسُول أخبر أنَّهم لا يَنامونَ.

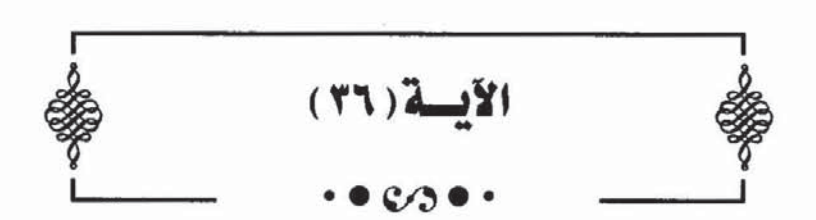
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أَهْلَ الجَنَّة لا يَتْعَبونَ في مُزاوَلَةِ الأَعْمالِ ولا يَلْحَقُهُم إعياءٌ بَعْدَ ذلكَ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا يَتْعَبونَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا، رقم (٢٨٣٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَطْعًا كما في الآيَة، لَكِنَّهم يَعْمَلونَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] يَعْمَلون في نَعيمِهِم، يُفَجِّرونَ الأَنْهارَ ويَجْنونَ الثِّمارَ؛ إلا أَنَّه بدونِ كُلْفَة ولا مَشَقَّة، كما قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣].

• ● ❁ ● •



الآية (٣٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ فثنَّى بِذِكْرِ عِقابِ أَهْلِ النَّارِ؛ لأنَّ القُرْآنَ مَثانٍ، كُلُّ ما ذُكِرَ فيه مَعْنًى ذُكِرَ فيه ما يُقابِلُه، ولا تكاد تَجِدُ آياتٍ في القُرْآن يُذْكَرُ فيها معنًى إلا وذُكِرَ ما يقابله لِئَلَّا تَتَمادى النَّفْس في الرَّجاء، فإذا ذُكِرَ النَّعِيم وَحْدَه فإنَّ النَّفْس تتمادى في الرَّجاءِ، وحينئذٍ تَأْمَنُ مَكْرَ الله، ولو ذُكِرَ الوعيدُ وَحْدَه لتمادَتِ النَّفْسُ في الخَوْف وقَنِطَتْ من رَحْمَة الله، ولَكِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هذا تارة، وهذا تارَةً حتى يكونَ الإِنْسَانُ سائرًا من غَيْـر مَيْلٍ إلى الرَّجاء ومن غَيْـر مَيْلٍ إلى القُنوطِ.

وهذه المَسْأَلَة اخْتَلَفَ العُبَّاد فيها: هل الأَوْلَى أن يَسيرَ الإِنْسَانُ إلى رَبِّه بين الخَوْفِ والرَّجاءِ فيكونَ خائِفًا راجِيًا، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الرَّجاءَ إحسانًا في الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، أو الأَوْلَى أن يُغَلِّبَ الخَوْفَ؟

في هذا خلافٌ بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ فالإمام أحمدُ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ رُوِيَ عنه أَنَّه قال: يَنْبَغِي أن يكونَ خَوْفُه ورَجاؤُهُ واحِدًا، فأَيُّهُمـا غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه؛ لأَنَّه إن غَلَبَ

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

الرَّجاءُ أَمِنَ الإِنْسَانُ مِن مَكْرِ الله وإن غَلَبَ الخَوْف قَنِطَ من رَحْمَة الله، فيكون خَوْفُه ورجاؤه واحِدًا.

قالوا: فالخَوْفُ والرَّجاءُ كالجَناحَيْنِ للطَّائِرِ إن هَبَطَ أَحَدُهما مال الطَّائِر إليه واخْتَلَّ تَوازُنُه، وإن تساويا استقامَ الطَّائِرُ واستقام واعْتَدَل توازُنُه.

وقال بعض أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: بل هذا يَخْتَلِفُ باختلاف الأَحْوالِ؛ فإذا فعل الإِنْسَان الطَّاعَةَ فَلْيُغَلِّبِ الرَّجاءَ، وأنَّ الذي وفَّقَه لها سوف يَقْبَلُها منه ويُثيبُه عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فإذا وُفِّقْتَ للدُّعَاء وُفِّقْتَ للإجابة، وإذا وُفِّقْتَ للعَمَلِ وُفِّقْتَ للقَبُولِ.

وإذا عَمِلَ المَعْصِيَة فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْف ولْيَرْجِعْ إلى ربِّهِ؛ لأنَّه إن غَلَّبَ جانِبَ الرَّجاءِ بعد فِعْلِ المَعْصِيَة فلا يتوبُ منها، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ويقول الله غفورٌ رحيمٌ وما أشبه ذلك، فيكون تَغْليبُ الرَّجاءِ في حالٍ، وتَغْليبُ الخَوْفِ في حالٍ أخرى.

وقال بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يُغَلِّبُ الخَوْفَ في حال، والرَّجاءَ في حالس، لكن لا باعتبارِ العَمَلِ بل باعتبارِ الحال، فإذا كان مَريضًا فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ؛ لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ**»[1]، وإن كان صَحيحًا فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْف.

والمناسَبَةُ قالوا: لأنَّ المريضَ تَضْعُفُ نَفْسُهُ وتَنْكَسِرُ وليس يَميلُ إلى الدُّنْيا ولَكِنَّه يَهتَمُّ بما أمامه فلْيُغَلِّبْ جانب الرَّجاء، ليس هناك نفسٌ تَتَطَلَّعُ إلى الدُّنْيا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتَنْغَمِسُ في التَّرَفِ بل نَفْسُه قد رَقَّتْ وآوَتْ إلى الآخِرَة، وأمَّا إذا كان صحيحًا فإنَّ النَّفْس الآن فيها شِرَّةٌ وتَطَلُّعٌ للدُّنيا وإترافِها؛ فيُغَلِّبُ جانب الخَوْفِ.

على كُلِّ حالٍ: يُمْكِن أن نقول: إذا وُجِدَتْ أَسْبَابٌ يخافُ الإِنْسَان على نفسه من تغليب جانِبِ الرَّجاءِ فليُقَدِّم الخَوْفَ، وإن وُجِدَتْ أَسْبَاب تَقْتَضي أن يخافَ الإِنْسَانُ ويَيْأَسَ من رَحْمَة الله فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاء؛ يعني إذا فعل أَسْبَابَ الرَّجاء فلْيُغَلِّبِ الرَّجاءَ، وإذا وُجِدَتْ أَسْبَابُ الخَوْفِ فلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْفِ.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فهنا قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى أولًا بالمُبْتَدَأِ ثُمَّ أتى بمُبْتَدَأٍ وخَبَرٍ آخر، وهذا يفيدُ التَّوْكيدَ؛ فهو أَشَدُّ توكيدًا من مِثْلِ قَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك:٦] لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بَقِيَ الذِّهْنُ مُتَشَوِّقًا مُتَطَلِّعًا إلى الخَبَرِ: ما الذي يكون لهؤلاء؟ قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أعوذ بالله! يعني ليس لهم إلا ذلك: نارُ جَهَنَّم.

وهذا من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِهِ؛ لأنَّ النَّار يُعَبَّرُ عنها بالنَّار وَحْدَها أحيانًا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وأحيانًا يُعَبَّر بجَهَنَّم عن النَّارِ مِثْل: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨]، وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البيِّنة:٦] مثل هذا مُضافَة، وأحيانًا تضاف النَّار إلى جَهَنَّمَ؛ وحينئذٍ يقع الإِنْسَانُ في إشكالٍ؛ يقول: كيف يضاف الشَّيْء إلى ذاتِهِ أو إلى نَفْسِه؛ فالنَّار هي جَهَنَّمُ وجَهَنَّمُ هي النَّار؟

ونقول: إضافَتُها هنا من باب إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه؛ ولهذا لا يقال جَهَنَّمُ نار، ولكن يُقالُ: نار جَهَنَّم؛ فجَهَنَّمُ عَلَمٌ من باب اللَّقَبِ، ومَعْلومٌ أنَّ العَلَمَ اسْمٌ وكُنْيَةٌ ولَقَبٌ، فجَهَنَّم اسْمُ عَلَمٍ، لَكِنَّه من باب اللَّقَب، والعَلَمُ اللَّقَبُ بِمَنْزِلَة الصِّفَةِ؛

يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأنَّ اللَّقَبَ عندما أَشْعَرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ؛ وبناءً على ذلك يَتبَيَّنُ أنَّ مثل هذا التَّركيب (نار جهَنَّم) من باب إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه، فالنَّار هي هذا الجَوْهَرُ الحارُّ المَعروف، وجَهَنَّمُ أَصْلُهَا من الجَهْمَةِ وهي الظُّلْمَةُ لِبُعْدِ قَعْرِها وخُلُوِّها من النُّور.

ومن هنا نَعْرِفُ أنَّ هذا الاسْم فيه شَيْءٌ من الاشْتِقاقِ فيكون دالًّا على وَصْفٍ.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالمَوْتِ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ يَسْتَرِيحوا]؛ قال الله تعالى في ذلك ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] فلا هو مَيِّتٌ فَيَسْتَرِيحَ ولا حيٌّ حياةً يتَنَعَّمُ فيها، بل هو في شقاءٍ دائم، يَتمَنَّونَ المَوْتَ ولكن لا يَحْصُلُ لهم؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

فهنا يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يُقضى عليهم بالمَوْتِ فَيموتوا ويَسْتريحوا، والفاءُ في قَوْله تعالى: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فاءُ السَّبَبِيَّة، والفِعْلُ بعدها منصوب بِحَـذْفِ النون والواو فاعِلٌ؛ لوقوعه بعد النَّفْيِ الكائـِنِ في قَوْله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ] فهم في عذابٍ مُسْتَمِرٍّ لا يَسْتريحونَ منه لا بِمَوْتٍ ولا بِنَوْمٍ ولا بِتَخْفيفٍ، والعياذ بالله!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فانظُرِ الذُّلَّ، والعياذُ بالله ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ كأنَّهم آيسونَ أن يَدْعوا الله؛ لأنَّ الله تعالى قد قال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]،

فيَطْلبونَ الوَسائِطَ: ادعوا ربَّكُم، ثم هذا دُعَاءُ اسْتِجْداء ضَعيف؛ فقالوا: يُخَفِّف، ولم يقولوا: يَمْنَع فطَلَبوا التَّخْفيفَ يَوْمًا ولم يقولوا دائِمًا، فهنا يَظْهَرُ أَثَرُ الضَّعْفِ عليهم والذُّلِّ والهوانِ من ثلاثة وجوه:

أولًا: أنَّهم طَلَبوا الشُّفَعاء فلا يَسْتَطِيعونَ أن يَتكَلَّموا.

ثانيًا: طَلَبوا التَّخفيفَ دونَ المَنْعِ النِّهائِيِّ.

ثالثًا: أنَّهم طلبوا ذلك يومًا من الأَيَّامِ لا دائِمًا.

وتُجيبُهُم المَلائِكَةُ بالتَّوْبيخِ، والعياذ بالله؛ قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٥٠].

فهم لا يُقْضى عليهم فيَموتوا، ولا تُجابُ دَعْوَتُهم بذلك ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها ولا يومًا واحدًا؛ لأنَّهم قد أُنْذِروا وقامَتْ عليهم الحُجَّة من كُلِّ وَجْهٍ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ﴾ كما جَزَيْناهُم ﴿نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ كافِرٍ؛ بالياءِ والنون المَفْتوحَة مع كَسْرِ الزَّايِ ونَصْبِ ﴿كُلَّ﴾].

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَجْمَلَ في بيان هاتَيْنِ القِراءَتَينِ إجمالًا مُخِلًّا؛ فالقراءتان ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ بالنونِ المَفْتوحَةِ والزَّايِ المَكْسورَةِ ونَصْبِ ﴿كُلَّ﴾ ووَجْهُ هذه القِراءَةِ ظاهِرٌ بأنَّ ﴿نَجۡزِي﴾ فِعْلٌ مضارعٌ، وفاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ و﴿كُلَّ﴾ مفعولٌ به.

القِراءَة الثانية: (يُجْزَى كُلُّ كَفُورٍ) وصَنيعُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لا يُؤَدِّي هذا المَعْنى، بل ظاهِرُهُ أنَّ (كُلَّ) منصوبة على القِراءَتَيْنِ، وأيضًا ظاهِرُهُ أنَّ الزَّايَ مَكْسورَةٌ على القِراءَتَيْنِ وأنَّ الياءَ مَفْتوحَةٌ على القِراءَتَيْنِ.

ونرجع إلى كَلِمَة: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَرِدُ كثيرًا في القُرْآن الكريم، ويقول المُعْرِبونَ: إنَّ الكافَ مفعولٌ مُطْلَقٌ، وإنَّ تَقْديرَ الكَلَامِ: مِثْلَ ذلكَ الجَزَاءِ نَجْزي، وعامِلُ هذا المَفْعولِ المُطْلَقِ ما بعده من الفِعْلِ؛ كذلك نجزي الظَّالمينَ؛ أي: مِثْلَ ذلك الجزاءِ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، كذلك نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ؛ أي: مِثْلَ ذلكَ الجَزَاءِ نَجْزي كُلَّ كَفورٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كافِرٍ] يعني أنَّ صيغَةَ المُبالَغَةِ هنا لا تُرادُ، بل مُطْلَقُ الكُفْرِ مُوجِبٌ لهذا الجزاءِ؛ لأنَّك لو اعْتَبَرْتَ صِيغَةَ المُبالَغَةِ بِظاهِرِ معناها لكان لا يُجْزى هذا الجَزاءَ إلا من تكَرَّرَ كُفْرُه ولكن لا يَمْنَعُ أن نقول: إنَّ (كفور) هنا صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، ويكون المَعْنى كلَّ من اتَّصَفَ بالكُفْرِ، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جزاءَ الكافرينَ النَّارُ، وهذا ما دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّهم لن يَدْخلوا الجَنَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّةِ الدالَّةِ على الثُّبُوت والاسْتِمْرار.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَلَّمونَ منها ومن عذابِها وعقابِها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ لأنَّهم لو ماتوا لاسْتَراحوا، فيكون في هذا رَدٌّ على قَوْلِ من يقول -من المُعْتَزِلَة وغيرهم-: إنَّ أَهْلَ النَّارِ يكونون أو تكون النَّارُ فيهم طَبيعَةً فلا يَحْتَرِقونَ فيها ولا يَتَأَلَّمونَ منها، وهذا خلاف ما دل عليه القُرْآنُ، وخِلافُ ما دَلَّ عليه العَقْلُ.

أمَّا القُرْآن فالله تعالى يقول: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١] أي: ذوقوا العذابَ الذي يُحْرِقُكم، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦]، وهذا نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الجلودَ تَحْتَرِقُ، ولكن تُبَدَّلُ لِأَجْلِ أن يذوقوا العَذابَ، ففيها دليلٌ على أنَّها لو احْتَرَقَتْ وبَقِيَتْ مُحْتَرِقَةً فإنَّها لا تُحِسُّ بالعذابِ فيفرق بينها وبين ما إذا بُدِّلَتْ.

فالصَّواب بلا شَكٍّ أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَلَّمُونَ من عذابِها، وأنَّه لا تكون النَّارُ طَبيعةً لهم فلا تهمهم بعد ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حُسْنُ بَلاغَة القُرْآن؛ إذا ذَكَرَ شيئًا ذكر ما يُقابِلُه حتى تكون النَّفْس بين هذا وهذا، فإذا ذَكَرَ ثناءً على أَهْل الخَيْرِ ذَكَرَ ثناءً على أَهْلِ الشَّرِّ، وإذا ذكر جزاءَ أَهْلِ الخَيْرِ ذكر جزاء أَهْل الشَّرِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء -أعني أَهْل النَّار- لا يُخَفَّفُ عنهم من عذاب النَّارِ أبدًا لا في كَيْفِيَّتِهِ ولا في نَوْعِهِ ولا في زَمَنِهِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾.

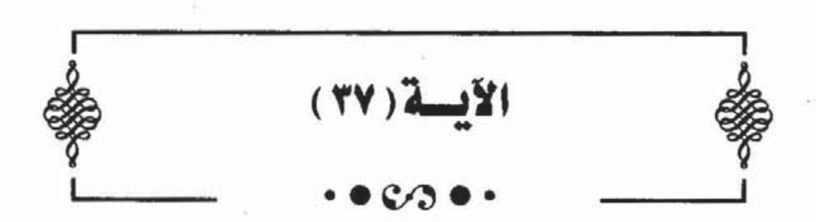
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: دليلٌ على كمالِ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث تبقى هذه النَّارُ أَبَدَ الآبدينَ -والعياذ بالله- لا تَتَغَيَّرُ، والمَعْروف في نارِ الدُّنْيا أنَّها مع طُولِ الزَّمَنِ تتغيَّر وتَنْقُص وتُطْفَأُ حتى لا يكون لها أثر، أمَّا في نار جَهَنَّم فإنَّها تبقى أبد الآبدينَ، لا ينقص عذابُها ولا حرارَتُها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذا الجزاء ثابتٌ لِكُلِّ من اتَّصَفَ بالكفر، يعني لا تَخْتَصُّ به قبيلةٌ دون أخرى، فلا يقال مثلًا إنَّه خاصٌّ بقُرَيْشٍ المُكَذِّبينَ لرسول الله ﷺ أو بالقبيلةِ الفُلانِيَّة أو القبيلة الفلانِيَّة، بل كلُّ كَفورٍ حتى وإن كان من قَرابَةِ الرَّسُولِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثْباتُ الأَسْبَابِ ورَبْطِ مسبَّباتِها بها؛ لِقَوْله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ أَهْل النَّار تتفاوَتُ منازِلُهم وعذابُهُم؛ تؤخذ من قَوْله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ووجه الأَخْذِ: أنَّ كل مُعَلَّقٍ على وصف فإنَّه يزدادُ بزيادَةِ ذلك الوَصْفِ ويَنْقُصُ بنُقْصانِهِ.

• ● ۞ ● •



الآية (٣٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يَسْتَغيثونَ بِشِدَّة وعَويلٍ].

قَوْله تعالى: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ هذه من الصُّراخِ، والصُّراخُ مَعْروفٌ وهو رَفْعُ الإِنْسَانِ صَوْتَه أَشَدَّ ما يُرْفَعُ، وأصلها: (يَصْتَرِخونَ) أُتِيَ بالتَّاءِ للْمُبالَغَةِ في الصُّراخِ، كما يقال خَطَبَ واخْتَطَبَ، واخْتَطَبَ أَبْلَغُ من خطب، صَرَخَ واصْطَرَخَ، فاصْطَرَخَ أَبْلَغُ من صَرَخَ.

وقد ذكروا قاعِدَةً أَغْلَبِيَّةً في هذا المقام، فقالوا إنَّ زيادةَ المَبْنى تَدُلُّ على زيادة المَعْنى، لكن هذه القاعِدَة أَغْلَبِيَّة؛ لأنَّها تَنْتَقِضُ بشَجَرَةٍ وشَجَرٍ وبَقَرَةٍ وبَقَرٍ؛ فإن شَجَرَة زائِدَةُ المَبْنَى على شَجَر ناقِصَة المَعْنى؛ يعني شَجَرَة تدلُّ على واحِدٍ، وشَجَر على جَمْعٍ، لكِنَّ الغالِبَ أنَّ ما زاد في المَبْنى زاد في المَعْنى، فاصْطَرَخَ لا شَكَّ أنَّها أَبْلَغُ من صَرَخَ؛ فهم -والعياذ بالله- يَصْطَرِخون هذا الصُّراخَ العَظيمَ في النَّارِ، يَصْطَرِخون فيها يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

فَقَوْله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ فالآنَ يُقِرُّون بالرُّبوبِيَّة وأنَّه لا يُغيثُهُم من الشِّدَّة إلا الله،

وكانوا في الدُّنْيا يَسْتَغيثونَ بِمَنْ؟

بِغيرِ الله؛ بأَصْنامِهِم وما يعبدونَ من دون الله، أمَّا الآن فقد عَرَفُوا أنَّه لا يُمْكِنُ أن يُنْجِيهُم مِمَّا هم فيه إلا اللهُ.

وَقَوْلهم: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أَتَتْ ﴿نَعْمَلْ﴾ بالجَزْمِ؛ لأنَّها جوابٌ للطَّلَبِ في قَوْله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا ﴾ وإذا كان جوابًا للطَّلَبِ كان كالشَّرْطِ المُقَدَّرِ: أَخرِجْنا إِنْ تُخْرِجْنا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هكذا يقولون: رَبَّنا أَخرِجْنا يعني من النَّارِ نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الذي كنا نعمل، ولكن هذا القَوْلَ ليسَ بِصَحيحٍ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، وهذا كَلَامُ الله عَزَّوَجَلَّ العالِمِ بما سيكون لو أَخْرَجَهُم.

فهؤلاء يقولون ذلك من باب الاعْتِذارِ وإلا فَقُلُوبُهُم خارِبَةٌ، خَرِبَتْ بالأَوَّلِ وسَتَخْرَب في الثاني، فإذا نَجَوْا من النَّار عادوا إلى ما كانوا عليه.

وقال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الأولى نَعْمَلْ: مَجْزومةٌ على أنَّها جوابُ الطَّلَبِ، والثَّانِيَة مَرْفوعَةٌ لِتَجَرُّدِها من النَّاصِبِ والجازِمِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ما الذي كانوا يعملون؟

كانوا يعملون عملًا سيِّئًا؛ لأنَّهم يُشْرِكون بالله عَزَّوَجَلَّ ويَسْتكْبِرون عن عبادته، ولو رُدُّوا لعادوا إلى ما كانوا عليه من قَبْلُ، ولهذا قيل لهم: [﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ أي وقْتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ الرَّسُولُ، فما أَجَبْتُمْ].

يقال لهم تَوْبيخًا وتنديمًا وإقامةً للحُجَّةِ: أولَمْ نُعَمِّرْكم، فمَنِ القائل؟

إن نَظَرْنا إلى ظاهِرِ الفِعْلِ قلنا: إنَّ القائِلَ هو الله؛ لأنَّ الذي عَمَّرَهُم هو الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحْتَمَلُ أن يكون القائِلُ هو المَلائِكَةَ، ولكِنْ لما كانت المَلائِكَةُ تقولُ بِأَمْرِ الله صار كأنَّ القائِلَ هو الله، فالمَلائِكَة تقول لأنَّهم جُنودُ الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وأيًّا كان فالمقصودُ بهذا إقامَةُ الحُجَّةِ عليهم وتَوبيخُهُم وتَنْديمُهُم.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ هذا السِّيَاقُ يُوجَدُ كثيرًا في القُرْآن، فتَأْتِي هَمْزَةُ الاسْتِفْهامِ وبعدها حَرْفُ العَطْفِ، وقد اختلف المُعْربونَ في مثل هذا التركيبِ.

فقيل: إنَّ الهَمْزَةَ داخلةٌ على مُقَدَّرٍ يُسْتَفادُ من الكَلَامِ، وهذا المقدَّرُ عُطِفَتْ عليه الجُمْلَةُ التي بعد حَرْفِ العَطْفِ.

وقال بعضهم: بل إنَّ الهَمْزَةَ داخلةٌ على الجُمْلَةِ المَوْجودَةِ لا على شَيْءٍ مَحْذُوف، لَكِنَّها قُدِّمَتْ على حَرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّ لها الصَّدارَةَ فيكون التَّقْديرُ في قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾: (وَأَلَمْ نُعَمِّرْكُم) وتكون الواوُ هنا عاطِفَةً على قَوْلِهِم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هذا من حيث الإِعْرابُ.

أما من حيث المَعْنى فكما أَشَرْنا أولًا إلى أنَّ المُرادَ بذلك التَّوْبيخُ والتَّنْديم وإقامة الحُجَّة؛ يعني: قد عَمَّرْناكم تَعْميرًا واسِعًا وَوَقْتًا طويلًا يتذَكَّرُ فيه من تَذَكَّر؛ لأنَّ الرُّسُلَ جاءتهم وأَمْهَلَتْهم ودَعَتْهم، ولكن أَبَوْا وأَصَرُّوا على كُفْرِهم.

وكان أَوَّلَ من أُرْسِلَ مِنَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فماذا يقول له قومه؟

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧] يَجْعلون أصابِعَهم في آذانِهم لئلَّا يَسْمَعوا واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُم لِئلَّا يرَوْا، وهذا يدلُّ على شِدَّةِ كَراهتِهم لما يقول، لا يُحِبُّون أن

يَسْمَعُوه ولا أن يَرَوْا نوحًا وهو يُلْقيه عَلَيْهم؛ ثم أَصَرُّوا؛ يعني: بَقُوا على ما هم عليه واسْتَمَرُّوا فيه واسْتَكْبَروا اسْتِكبارًا -يعني استكبارًا عَظيمًا- عن قَوْل الحَقِّ، هذا أَوَّلُ الرُّسُلِ.

وآخِرُ الرُّسُل قالوا إنَّه ساحرٌ كذَّاب، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] وآذَوُا الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقَوْلِ والفِعْل، بل اسْتَباحوا أن يُقاتِلوه ورَضُوا أن يَبْذُلوا رِقابَهُم للسُّيوفِ معارَضَةً لِدَعْوَتِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فهؤلاء الذين تَبْلُغُ بهم هذه الحالُ بَعْدَ أن عُمِّروا ما يتذَكَّر فيه من تذَكَّر وجاءتهم الرُّسُل: هل يرجى منهم لو خَرَجوا من النَّارِ أن يعودوا إلى الحَقِّ؟ أبدًا؛ لأنَّ الأَمْرَ واحِدٌ.

لكن قد يقول قائِلٌ: إنَّه ليس الخَبَرُ كالمعايَنَةِ؛ فالنَّارُ التي تُوعِّدَ بها أَدْرَكُوها عن طريقِ الخَبَـرِ قبل أن يكونوا فيها، أمَّا لَمَّا كانوا فيها فقد عَرَفوها عن طريق الحِـسِّ والمُشاهَدَةِ؟

فالجواب: أنَّ خَبَـرَ الرُّسُلِ المؤيَّدَةِ بالآياتِ الدالَّة على رِسالَتِهم يُفيدُ العِلْم اليَقِينِيَّ؛ لأنَّ الرُّسُلَ ما جاءت تدعو النَّاسَ وتُنْذِرُهم وتُبَشِّـرُهم إلا بآياتٍ يؤمِنُ على مِثْلِها البَشَرُ، وهؤلاء -والعياذ بالله- طَبيعَتُهُم التَّكْذيب والإنكارُ، فلن يُؤْمنوا ولو خَرَجوا.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ النَّذيرُ، يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الرَّسُول] والمُراد به الجِنْس؛ لأنَّ كُلَّ رسولٍ قد أنذر قومه وحَذَّرَهم من مَعْصِيَة الله، وبَشَّرَهم ورَغَّبَهم في طاعة الله، ولَكِنَّهم، والعياذ بالله، أصَرُّوا واسْتَكْبَروا فقد قامت عليهم الحُجَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ذوقوا: الأَمْرُ هنا للإهانَةِ، ومفعول ذوقوا مَحْذُوفٌ، التَّقْدير: ذوقوا عَذابَكُم أو ذوقوا عاقِبَة تكْذيبِكُمْ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ الكافرينَ ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العَذاب عَنْهُم].

(ما للظالمين من نَصيرٍ) الجُمْلَةُ مُكَونة من مُبْتَدأ وخَبَر، والخَبَر ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ والمُبْتَدأُ ﴿نَّصِيرٍ﴾ ودخلَتْ عليهم ﴿مِن﴾ الزَّائِدَةِ لتَوْكيدِ النَّفْيِ، و(ما) هنا لا تَعْمَلُ عمل لَيْسَ؛ لِتَقَدُّم الخبر، وهي لا تعمل عمل لَيْسَ إلا مع التَّرْتيبِ، فنقول مثلًا: ما زيدٌ قائِمًا، ولو قلت: ما في الدارِ زيدٌ، فهذا صحيح، لكن لا نَجْعَلُ (في الدار) في مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لِتَقَدُّمِ الخَبَرِ.

قال تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَدْفَعُ العَذابَ عنهم] والنصير بمَعْنى النَّاصِر، والنَّاصِرُ هو المانِعُ من الشَّرِّ، المُعينُ على الخَيْرِ، فكُلُّ من مَنَعَ الشَّرَّ عنك فهو ناصِرٌ لك، وكُلُّ من أعانك على الخَيْر فهو ناصِرٌ لك.

ويدل لهذا قَوْلُ رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «انْصُرْ أَخاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا» قالوا: يا رسولَ الله، هذا المظلومُ -يعني: نَصْرُ المَظْلومِ بِدَفْعِ الشَّرِّ عنه- فكيف نَصْرُ الظَّالِمِ؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

ومَنْعُ الظَّالِمِ من الظُّلْم ليس خَيْرًا إليه، لكِن هو مَنْعُهُ من الشَّرِّ، فالنَّصْرُ إذن: إمَّا أن يكون بِجَلْبِ خَيْرٍ، وإمَّا أن يكون بِدَفْعِ شَرٍّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «تأخذ فوق يديه».

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ شِـدَّةِ عذابِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَجْهُ ذلك قَوْله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقرارُهُم واعترافُهُم بأَنَّه لا يَمْلِكُ دَفْعَ الضُّرِّ عنهم إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لتَوْجيهِهِم النِّداء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والاسْتِغاثَة به في قَوْله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إقرارهم بأَنَّ أَعْمالَهُم في الدُّنْيا غَيْـرُ صَالِحَة؛ لِقَوْلِهِم: ﴿نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وهم كمـا يُقِرُّونَ بأَنَّ أَعْمالَهُم في الدُّنْيا غَيْـرُ صَالِحَة يُقِرُّونَ بأَنَّهم غَيْرُ عُقَلاء أيضًا؛ لِقَوْلِهِم ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] ولكن لا يَنْفَعُهم هـذا لأَنَّه بَعْدَ فوات الأوان؛ وانْظُرْ إلى جوابِهِم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ...﴾ إلى آخِرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أقامَ على الكافرينَ الحُجَّةَ من وَجْهَيْنِ:

أولًا: أَنَّه عَمَّرَهُم وقتًا يُمْكِنُهُم أن يتذَكَّروا فيه.

ثانيًا: أَنَّه جاءَتْهُم رُسُلٌ فلا عُذْرَ لهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: توبيـخُ أَهْلِ النَّارِ بِمِثْل هذا الكَـلَامِ؛ لأَنَّ هذا الكَـلَام قد يكون أَشَدَّ عليهم من العذابِ لِمَا فيه من التَّنْديمِ وتَجْديدِ الحُزْنِ عليهم والتَّمَني الذي لا ينفعهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْـرِيَّة الذين يَحْتَجُّـون بالقَـدَرِ على المعاصي؛ ويقولون ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]

وَجْهُ الرَّدِّ قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ولو كان القَدَرُ حُجَّةً لم يَكْفِ ما ذُكِرَ في الاحْتِجاج عليهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ وإعذارُه لخَلْقِه؛ حيث أرسل إليهم الرُّسُلَ، فإنَّ إِرْسالَ الرُّسُلِ فيه رَحْمَةٌ، وفيه أيضًا إعذارٌ وإقامَةُ حُجَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إهانَةُ هؤلاء الذين في النَّارِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فإنَّ الأَمْرَ هنا للإهانة فيُهانُونَ، والعياذ بالله، بالعذابِ والتَّوْبيخِ وغيرها من أَنْواعِ الإهاناتِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَيْئيسُ هؤلاء من الخلاصِ من النَّار؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بيانُ أنَّ الكُفْرَ ظُلْمٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الإظْهارُ في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَمْ يقل: فما لكم من نَصيرٍ فذوقوا؛ ولو أنَّ السِّيَاقَ جرى على ما هو عليه لقال: فما لكم، لَكِنَّه قال: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّفَنُّنُ في الأُسْلوبِ أو اخْتِيارِ الوَصْفِ الذي يكون أَبْلَغَ في إقامَةِ الحُجَّة؛ لأنَّه عَدَلَ عن قَوْله (فما للكافرين) إلى ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فإمَّا أن يكون هذا من باب التَّفَنُّنِ في التَّعبير حتى لا يلحَقَ المُخاطَبَ السآمَةُ بتكْرارِ الأَلْفاظِ عليه، وإمَّا أن يكون هذا من باب العُدُولِ عن الوَصْف إلى وصفٍ أَبيَنَ منه في إقامَةِ الحُجَّة؛ والثاني أَقْوَمُ في المَعْنى؛ لأنَّه هنا ما قال: (فما للكافرين) لم يُبيِّنْ أنَّهم ظَلَمَة بِكُفْرِهم، لكن لما قال: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ صار فيه إِشَارَةٌ إلى أنَّهم بِكُفْرِهم صاروا

ظَلَمَة غَيْر مظلومينَ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: يُمْكِـن أن نقول فيه دليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ لا تَنْفَع فيهم الشَّفاعَةُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهذا عامٌّ؛ يعني لا أَحَـد يدافِعُ عنهم، ولا يَشْفَعُ لهم.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٣٨)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر:٣٨].

• • ● • •

صِلَةُ هذه الآيَة بما قبلها: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ أَحْوالَ الطَّائِعينَ ومَثُوبَتَهم وأحوالَ العاصينَ وعُقُوبَتَهم بيَّن أنَّ هذا صادِرٌ عن علمٍ تامٍّ؛ فإنَّ الله تعالى عالِمُ غَيْبِ السَّمَواتِ والأَرْضِ، وعالِمُ ما في الصُّدور.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ما غاب في السَّمَواتِ والأَرْضِ غيبًا مُطْلَقًا عن كلِّ أَحَدٍ.

وَقَوْلنا: (غيبًا مُطْلَقًا) احترازٌ من الغَيْبِ النِّسْبِيِّ؛ فإنَّ الغَيْبَ النِّسْبِيَّ لا يختصُّ عِلْمُه بالله عَزَّوَجَلَّ، بل يَعْلَمُه الله، ومَنْ عَلِمَهُ مِن عِبادِ الله.

مثال الغَيْبِ النِّسْبِيِّ: أن يكون الشَّيءُ الظَّاهِرُ بالنِّسْبَة لقَوْمٍ خَفِيًّا بالنِّسْبَة لآخَرينَ، فنحن هنا نعْلَمُ ما بين أيدينا، لكن لا نَعْلَمُ ما كان في السُّوق أو في البيوت، وهذا نُسَمِّيه غَيْبًا نَسْبِيًّا؛ لأنَّ الذين في البُيُوت أو في السوق يَعْلَمونَه.

فالغيب المُطْلَق هذا لله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه، يَعْلَم ما غاب عن الخَلْقِ مُطْلَقًا، حتى الأُمُورُ المُسْتَقْبَلَة يَعْلَمُها عَزَّوَجَلَّ، يَعْلَمُها متى تكون وأين تكون وكيف تكون.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدُور؛ أي:

بصاحِبَةِ الصُّدورِ، وهي القُلُوب، والقلوب هي مَحَلُّ العَقْلِ والتَّفْكير والإرادَةِ، فهو عليمٌ بها عَزَّوَجَلَّ، وإخبارُ الله تعالى بأنَّه عالِمُ غَيْـب السَّمَوات والأَرْض يُقْصَد منه التَّحْذيرُ من المُخالَفَةِ، والتَّرغيبُ في المُوافقَةِ.

فأنت إذا وافَقْتَ الله عَزَّوَجَلَّ فلن يَضيعَ عمَلُك؛ لأنَّه معلومٌ لله، وإن خالَفْتَ فلن يَضيعَ؛ لأنَّه معلومٌ لله؛ لَكِنَّه بشارةٌ بالنِّسْبَة للطَّائعينَ، وإنذارٌ بالنِّسْبَة للمُخالِفينَ العاصينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

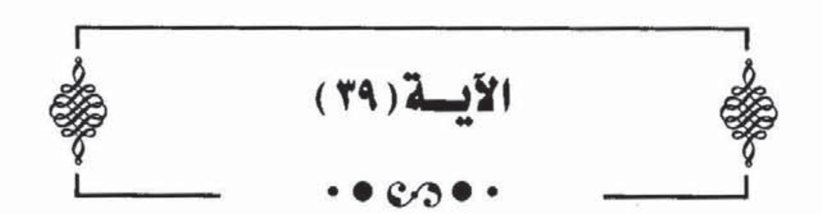
الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْباتُ عُمُومِ عِلْمِ الله؛ لِقَوْله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ علم الله بما في قلوب بني آدم وغيرِ بني آدم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحْذير من أن يُضْمِرَ الإِنْسَان في قَلْبِه ما لا يرضاه الله ثم تُحَدِّثه نفسه بأنَّ هذا لا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ، فيَغْتَرُّ بإمهالِ الله له؛ وَجْهُ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: العَكْس: وهو أنَّ الإِنْسَانَ إذا أَضْمَرَ في قلبه خَيْرًا فإنَّ الله يَعْلَمُه وسوف يُثيبُه عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإِشَارَة إلى أنَّ المدار على ما في القَلْبِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وذات الصُّدورِ هي القُلُوبُ؛ لأنَّها السَّاكِنَة فيها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].



الآية (٣٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر:٣٩].

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْعُ خليفَةٍ؛ أي يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ الضَّميرُ يعود على الله في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ صيَّـرَكُم خلائِـفَ، وخلائِـفُ جَمْعُ خليفة، والخليفةُ بمَعْنى الخالِفِ الذي يَخْلُفُ من سَبقَه، وهذه الخلافَةُ تَشْمَلُ خلافَةَ القُرونِ بَعْضِها بعضًا كالشَّبابِ مثلًا يَخْلُفُ الشُّيوخَ والكِبارَ، والأَحْياء يَخْلُفونَ الأَمْواتَ.

وتَشْمَلُ الخِلافَة خِلافَة السُّلْطَة بأن يَذْهَبَ سُلْطانُ شَخْصٍ إلى سُلْطانِ شَخْصٍ آخـر، فيَنْتَقِلُ المُلْك من شـخص إلى شـخص بالقُوَّةِ مع بقاء الأول؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

فالخلافة إذن: خلافَةُ القُرونِ بَعْضِها بعضًا، وخلافَةُ الملوكِ بَعْضِهِم بعضًا الذين يَخْلُفُ بَعْضُهُم بَعْضًا في السُّلْطَة والإِمْرَة على الخَلْقِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ من كفر فعليه كُفْرُه ولا يَضُرُّ غَيْرَه شيئًا ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا أيضًا، وهذا كقَوْله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] فكُفْرُ الإِنْسَان على نَفْسِه وليس يَضُرُّ غَيْرَه شيئًا.

أما قَوْله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] فإنَّ هذا من باب تَعْميمِ العُقُوبَةِ التي لا يَخلو مِنها تَقْصِير بَعْضِ أَهْل الإِحْسانِ، أمَّا لو قاموا بما يَجِبُ عليهم فإنَّ العُقُوبَةَ لا تَعُمُّهُم؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

ولأنَّ الواقِع شاهِدٌ بذلك؛ فنوحٌ وهودٌ وغيرُهُما من الرُّسُل أنجاهُمُ الله مع أنَّه أخذ أَقْوامَهُم بالعُقُوبَة.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كُفْرِه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ كُفْرُ الكافرين عند الله لا يزيدهم إلا مَقْتًا، لا يزيدهم عند الله مُحاباةً لهم أو رَحْمَةً بهم؛ لأنَّ الحُجَّة قامت عليهم، فكُلَّما ازدادوا كُفْرًا ازدادوا مَقْتًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ﴿مَقْتًا﴾: [غضبًا] والمَعْروف أنَّ المَقْتَ أَشَدُّ البُغْضِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

وهذا يدلُّ على أنَّ المَقْتَ هو البُغْض، لكِنَّهم قالوا: إنَّه أَشَدُّ البُغْضِ فتَفْسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بالغَضَبِ فيه نَظَرٌ.

قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فبَيَّنَ هنا أنَّ الكفر سببٌ لِشَيْئَيْنِ:

الشَّيْءِ الأول: نزولُ مَرْتَبَةِ الكافِرِ؛ فإنَّ كُفْرَه لا يزيده عند الله إلا بُغْضًا.

والثاني: العُقوبَةُ التي تحصل له، وذلك بالخسارة؛ إذ يَخْسَرُ نَفْسَه وأَهْله ودنياه وآخرته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥] هو خَسِرَ نَفْسَه؛ لأَنَّه لو آمن لَربِحَ ونال ثوابَ الآخِرَة بالجَنَّة، وهذا ربح؛ أَمَّا الآن فقد أَهْلَكَ نَفْسَه ففاتت عليه، فخَسِرَ أَهْله؛ لأَنَّه لو آمن واتَّبَعَه أَهْله بالإيمان صاروا في الجَنَّة في مَنزِلَةٍ واحِدَة، وخَسِرَ دنياه لأَنَّه لم يَسْتَفِدْ من وجوده في الدُّنْيا شيئًا، بل استفاد الخَسارَةَ والعَمَل السَّيِّئَ، وخسر الآخِرَة أيضًا؛ لأَنَّه فاته النَّعِيمُ المُقيمُ في الآخِرَة وصار من أصحاب الجحيم.

فلا أَحَدَ أَعْظَم خَسارَةً من الكافِرِ، والعياذُ بالله، حتى وإن كان في الدُّنْيا مُنَعَّمًا نِعْمَةَ جَسَدٍ فهو في الحَقيقة مُعَذَّبٌ عذابَ قَلْبٍ؛ لأَنَّه ليس عند الكافِرِ انْشراحُ صَدْرٍ كما عند المُسْلِمِ، يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] يعني: فمن لم يكن كذلك فهو على ظُلْمَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تمامُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وسُلْطانِه؛ حيث إنَّه هو الذي يُدبِّر خَلْقَه بِجَعْلِهِم خلائِفَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بِشارَةُ المُؤْمِنينَ وإِنْذارُ الكافرينَ؛ لأنَّ من جُمْلَةِ الخِلافَةِ أن يَخْلُفَ المُؤْمِنين الكافرينَ في أَرْضِهِم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

وكذا قَوْله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩].

ففي هذا بِشارَةٌ للمُؤْمِن فلا يَيْأَس من أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَجْعَلُ له الخلافة في الأَرْضِ، وإنذارٌ للكافِرِ بأن تُجْتَاحَ أَرْضُهُ على أيدي المُؤْمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في توارُثِ الأُمَمِ بَعْضِها بعضًا، فإنَّه لولا ذلك لضاقَتِ الأَرْضُ بأَهْلها، فلو كان كلُّ من أوجده الله بَقِيَ، فكم يكون عدد العالَم؟

لا يُحْصَوْنَ، وحينئذٍ تضيق بهم الأَرْضُ ويَشُقُّ عليهم تَحْصيلُ الأَرْزاقِ وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ قد يَجْعَلُ لهم من الرِّزْقِ ما لا يَخْطُرُ بالبالِ، لكن لا شَكَّ من أنَّ النَّاس يَخْلُفُ بَعْضُهُم بعضًا، هذا يموت وهذا يحيا، هي الحِكْمَة والرَّحْمَةُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ شُؤْمِ الكُفْرِ وعاقِبَتِه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ كُفْرَ الكافر على نفسه لا على غَيْرِهِ، وهو كقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨] وأوردنا على هذه الجُمْلَة إِشْكالًا وأَجَبْنا عنه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ صِفَةِ البُغْضِ لله عَزَّوَجَلَّ، بل إثباتُ صِفَةِ المَقْتِ الذي هو أَشَدُّ البُغْضِ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ والمَقْتُ من صفات الله الفِعْلِيَّة؛ لأنَّ كل صفةٍ تُقْرَنُ بِسَبَبٍ، فهي من الصِّفات الفِعْلِيَّة لأنَّها حينئذٍ تتعَلَّقُ بِمَشيئَة الله؛ إذ إنَّ السَّبَب واقِعٌ بِمَشيئَتِهِ، والسَّبَبُ هو الذي عُلِّقَتْ به الصِّفَة فتكون الصِّفَةُ إِذَن واقِعةً بِمَشيئَتِه.

والقاعِدَةُ عنـد أَهْلِ السُّنَّةِ أنَّ الصِّفاتِ التي تكون بِمَشيئَةِ الله تُسَمَّى صفةً فِعْلِيَّةً.

وذَكَرْنا أنَّ الصِّفاتِ ذاتِيَّةٌ وفِعْلِيَّةٌ وخَبَرِيَّة:

فالذَّاتِيَّةُ هي الصِّفاتُ التي لا يَنْفَكُّ اللهُ عنها لم يَزَلْ ولا يَزَالُ مُتَّصِفًا بها، مثل: الحياة والعِلْم والقُدْرَة والسَّمْع والبَصَر والعِزَّة والحِكْمَة، وغير ذلك كثير.

والصِّفاتُ الفِعْليَّة هي التي تتعَلَّقُ بِمَشيئَته إن شاء فَعَلَهَا وإن شاء لم يَفْعَلْها سواءٌ كانت صِفَةً ظاهِرة أم غَيْرَ ظاهِرَةٍ؛ مثل: المحَبَّة والكَراهَة والرِّضا والبُغْض والضَّحِك والاسْتِواء والنُّزُول، وغير ذلك.

والصِّفاتُ الخَبَرِيَّةُ هي التي نظير مُسَمَّـاها أبعاضٌ لنا؛ مثل: الوَجْه واليَدَينِ والعَيْن والسَّاق والأُصْبَع وما أشبهها، وهنا لا نقول إنَّها أجزاءٌ بالنِّسْبَة لله، وهي لنا أَجْزاءٌ، ولكن نتحاشى أن نقولَ إنَّها أجزاءٌ، بل نقول: نظيرُ مُسَمَّاها أجزاءٌ لنا.

ولا يُمْكِـن أن نَجْعَلَ هذه صفاتٍ مَعْنَوِيَّةً؛ إذ لو قلنا بأنَّها صِفاتٍ مَعْنَوِيَّة لساوينا أَهْلَ التَّعْطيلِ؛ لأنَّهم يجعلون هذه الصِّفاتِ صِفاتٍ مَعْنَوِيَّةً.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه كلَّما ازداد الإِنْسَان كُفْرًا ازداد عند الله مَقْتًا؛ وجه ذلك القاعِدَةُ التي ذكرناها -ونُكَرِّرُها دائمًا- وهي: أنَّ الحُكْمَ المُعَلَّقَ على وَصْـفٍ يزدادُ بزيادَتِهِ وينْقُصُ بِنُقْصانِهِ، وهنا الحُكْمُ مُعَلَّقٌ على الكُفْرِ، فإذن يزداد مَقْتُ الله عَزَّوَجَلَّ على الكافِرِ بزيادَةِ كُفْرِه، وينْقُصُ بِنُقْصانِ كُفْرِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الكافر أيضًا خاسِرٌ؛ خاسرٌ في الدُّنْيا والآخِرَة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولم يُقَيِّـد، ولم يَقُـلْ في الدُّنْيا ولا في الآخِـرَة

ولا عند الله بل أَطْلَقَ، فأَخْسَرُ النَّاس هم الكُفَّارُ؛ خسروا -كما قلنا في التَّفْسيـر- أَنْفُسَهم وأَهْليهم ودنياهم وآخِرَتَهم، وشخصٌ خَسِرَ كُلَّ هذه الجهات ليس له رِبْحٌ، فأَعْظَمُ النَّاس خُسْرانًا هم الكافرون.

فإذا قال قائل: هل نَسْتَعْمِلُ هنا قياسَ العَكْس؛ فنقول: إذا كان الكافِرُ أَخْسَرَ النَّاسِ، فأَرْبَحُ النَّاسِ المُؤْمِنُ؟

فالجوابُ: نعم؛ نَسْتَعْمِل هنا قياس العَكْس؛ لأنَّ قياس العَكْس جاءَتْ به السُّنَّة؛ قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» قالوا: نَعَمْ، قال: «كَذلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(١).

فكلُّ عَمَلٍ حَلَالٍ تَسْتَغْنِي به عن حرامٍ يكون لك فيه أَجْرٌ.

إذن: المُؤْمِنُ رابحٌ في مُقابِلِ أنَّ الكافِرَ خاسِرٌ.

وإن شِئْتَ تَلَوْنَا آيَةً صريحةً في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:١-٣] يعني فليسوا في خُسْرٍ بل في رِبْحٍ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، وتجارة المُؤْمِنين تجارةٌ رابِحَةٌ ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩] لن تَهْلِكَ ولن تَخْسَر شيئًا.

وقال النَّبيُّ ﷺ لأَبي طَلْحَة لَمَّا قال: يا رسول الله، إنَّ الله أنـزل قَوْله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] وإنَّ أَحَبَّ مالي إلَيَّ بَيْرُحاءُ،

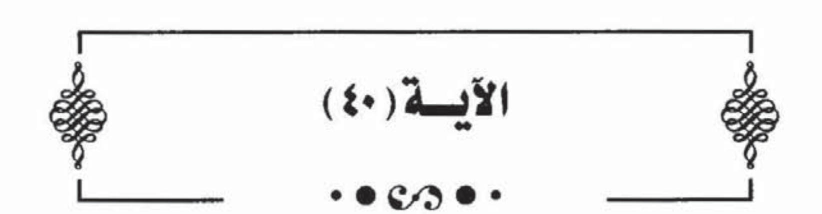
---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنِّي أَضَعُها -يعني عند الرَّسُول ﷺ- صَدَقَةٌ إلى اللهِ ورَسُولِهِ، فقال الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بخٍ بخٍ، ذاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ»(١).

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، رقم (٩٩٨)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٤٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

•••

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غَيْره، وهم الأَصْنَامُ الذين زَعَمْتُم أَنَّهُم شُرَكاءُ لله].

قَوْله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أخْبـروني و﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ مَفْعولٌ أَوَّل، يعني (أَرَأَيْتَ) تَنْصِـبُ ثلاثةَ مفاعيلَ، مفعولٌ أَوَّلُ صـريحٌ مَنْطوقٌ به والمَفْعولُ الثَّاني والثَّالِثُ مُعَلَّقٌ بهَمْزَة الاسْتِفْهام، فهنا ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكـنْ هنا قال: ﴿أَرُونِى﴾ من باب التَّحَـدِّي؛ أَخْبـروني عن شُرَكائِكُم، وَقَوْله تعالى: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ يعني الذين جَعَلْتُموهُم شُرَكاءَ، فالإضافَةُ هنا باعتبارِ جَعْلِهِم؛ أي: جَعْلِ العابدين لها شريكةً مع الله.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعْبدونَ] فحَوَّلَ الدُّعَاءَ إلى مَعْنى العِبادَة، ولا شَكَّ أنَّ الدُّعاءَ يأتي بمَعْنى العِبادَة؛ كقَوْله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] ولم يَقُلْ عن دعائي، فهذا دليلٌ على أنَّ الدُّعاء بمَعْنى العِبادَة.

ولكن لو قال قائِلٌ: إنَّ قَوْله تعالى: ﴿تَدْعُونَ﴾ شامِلٌ لدُعَاءِ المَسْأَلَةِ، وهو طلب الحاجَةِ ودُعَاء العِبَادَة؛ لكان أولى لأنَّ هذه الأَصْنَامَ التي يَدْعونَها، فأحيانًا يجمعون بين الأَمْرَيْنِ فيركعون لها ويسجدون ويذبحون وينذرون وأحيانًا يدعونها دُعَاءً، وأحيانًا يجمعون بين بين الأَمْرَيْنِ؛ فالأَوْلَى أن نَجْعَلَ الآيَة شامِلَةً لدُعَاء المَسْأَلَة ودُعَاءِ العِبَادَة، والله أعلم.

وَقَوْله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ والخطابُ بِقُلْ هنا خطابٌ لِمُفْرَد، وإذا جاء مِثْلُ هذا في القُرْآن فإمَّا أن يكون مِمَّا يَخْتَصُّ به الرَّسُولُ ﷺ، فالأَمْر فيه واضِحٌ؛ كقَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة:٦٧]، وما أشبهها فهذا خاصٌّ بالرَّسُول.

وإذا جاء مفردًا وليس خاصًّا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -يعني لم يَقُمْ دليل على اختصاصه به- فهل نقولُ إنَّ الخطاب مُوَجَّهٌ لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُهُ، أو إنَّه مُوَجَّهٌ إلى الرَّسُول وأُمَّتُه تَبَعٌ له، وإنَّما وُجِّهَ إليه وَحْدَه باعتبارِهِ الإمامَ المَتْبوعَ؟

الجواب: في هذا خلاف بين أَهْلِ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والخلاف هنا قريبٌ مِنَ اللَّفْظِيِّ لأنَّ الكُلَّ مُتَّفِقونَ على أنَّ الحكم يَشْمَلُ الأُمَّةَ؛ إذ لا دليلَ على اختصاص الرَّسُول ﷺ به، بخلافِ قَوْله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهذا خاصٌّ بالرَّسُول؛ لأنَّه ليس كُلُّ أَحَدٍ قد شرَحَ الله له صَدْرَه.

فهنا قَوْله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الخطابُ هنا لِمُفْرَد، فهل هو للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُه؟

قيل: إنَّه لِكُلِّ من يتأَتَّى خطابُه، وقيل: للرَّسولِ باعتباره الإمامَ، وغيرُه مِثْلُه،

حتى في زَمَنِنا هذا نقول للمُشْرِكينَ: أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خَلَقوا مِنَ الأَرْضِ.

وسَبَقَ أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّرَ الدُّعَاء هنا بالعِبَادَة، وقلنا إنَّه تَفْسيرٌ ناقِصٌ؛ لأنَّ الدُّعَاء يكون للعِبَادَةِ ويكون للمَسْأَلَة، والمُشْرِكون أشركوا بِشُرَكائِهِم بالنَّوْعَيْنِ جميعًا؛ فقد يَدْعونَ هؤلاء الشركاء وقد يَعْبُدونَهُم.

وسبق أنَّهم يقولون إنَّ الأَصْنَام شُرَكاء لله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى إنَّ المُشْرِكين يقولون في تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إلا شريكًا هو لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَرُونِي﴾ أَخْبِروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾] قَوْله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حيث الإِعْرابُ يجوز فيها وجهانِ:

الوَجْهُ الأول: أن نُعْرِبَ (ماذا) جميعًا على أنَّها اسْمُ اسْتِفْهامٍ مَفْعولٌ مُقَدَّمٌ لـ(خلقوا).

والثاني: أن نُعْرِبَ (ما) وَحْدَها على أنَّها اسْمُ اسْتِفْهامٍ، و(ذا) بمَعْنى الذي، وعلى هذا فيكون في ﴿خَلَقُوا﴾ ضميرٌ مَحْذُوف هو العائِدُ لاسْم الموصولِ، والتَّقْدير: ماذا خَلَقوه من الأَرْضِ.

والمَعْنى لا يَخْتَلِفُ، فهؤلاء يُتَحَدَّوْنَ ويقال أَرونا ماذا خلقوا من الأَرْضِ؟ هل خَلَقوا الجبالَ؟ هل خلقوا الأشجارَ؟ هل خلقوا الرِّمالَ والأَنْهار والبحار؟

الجواب: ما خلقوا شيئًا من هذا.

وننتقل إلى أعلى، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وهنا ما قال: أم خَلَقُوا شيئًا من السَّمواتِ، بل قال: أم لَهُم شِرْكٌ؛ لأنَّ السَّمواتِ لَيْسَتْ في مُتَناوَلِ أَيديهِم،

لكن يُحْتَمَل أن يكون لَهُم فيها مُشارَكَةٌ، فالذي لهم مُتناوَلٌ فيه قيل: ماذا خلقوا؛ لجواز أن يقول قائِلٌ: لهم شِرْكٌ في الأَرْض، فهذا مثلًا له فسحة يأتي النَّاسُ إليه وهي حريمُ قَبْرِه مثلًا؛ فنقول هل خَلَقُوا هذا؟ فإذا ادَّعَيْتُم أنَّ هذه الأَرْض مَثَلًا له وأنَّها أُوقِفَتْ على هذا القَبْرِ لِزائريهِ أو ما أشبه ذلك، فهل خلقوها؟!

لكن في السَّمَواتِ ما قال: ماذا خلقوا في السَّمَواتِ، بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ لا على سبيل الخَلْقِ ولا على سبيل التَّمَلُّك، أم لهم شرك؛ شَرِكَةٌ مع الله في خَلْقِ السَّموات.

وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في خَلْقِ السَّموات] فيه نَظَرٌ، بل الصَّواب أن نقول: في السَّمَواتِ سواءٌ كان ذلك عن طريق التَّمَلُّك أو عن طريق الخَلْقِ.

والجواب: لا، لا هذا ولا هذا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؟

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأنَّ لَهُم معي شَرِكَةً]، يعني: أو عندهم، إذا قُلْتُم لم يَخْلُقوا شيئًا من الأَرْض وليس لهم شَرِكَةٌ في السَّموات، فنقول: وهل عندهم كِتَابٌ وَهُمْ على بَيِّنَةٍ؛ حُجَّة بأنَّهم شُركاءُ مع الله؟

والجواب: لا؛ فكُلُّ هذه التَّقسيماتِ كُلِّها مُنْتَفِيَة بالنِّسْبَةِ للأَصْنامِ، فلم يَخْلُقوا شيئًا من الأَرْض، وليس لهم شَرِكَةٌ في السَّموات، وليس معهم بَيِّنَة من الله؛ كِتَابٌ بأنَّهم شُركاءُ مع الله، وإذا انْتَفَتْ هذه الأُمُورُ الثَّلاثَة، لا خَلْق ولا مُشارَكَة ولا وثيقَة؛ تَبَيَّنَ بُطْلانُها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلْ إِن﴾ (ما)] يعني أنَّ (إن) نافية هنا بمَعْنى (ما).

[﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرونَ ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ باطِلًا لِقَوْلِهِم: الأَصْنَامُ تَشْفَعُ لَهُم] يعني: أنَّ ما يَعِد الظالمون بعضُهم بَعْضًا فهو غرور، أي تغريرٌ وخِداعٌ، وليس له حَقيقَةٌ، والوَعْدُ الذي يَعِدُ به الظالمون بَعْضُهم بعضًا أنَّهم يقولون هـذه الأَصْنامُ تَشْفَعُ لكم عند الله؛ فاعبدوا مُحَمَّدًا ﷺ! اعْبُدوا جِبْـريلَ! اعبدوا الشَّجَر! اعبدوا اللَّاتَ! اعبدوا العُزَّى! فإنَّها تَشْفَعُ لكم؛ قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فكيف يعبدونهم ثم يقولون شُفَعاء؟

الجواب: الشَّافِعُ دَرَجَتُه دون دَرَجَة المَشْفوعِ إليه، إذ لو كان مُساوِيًا -أو أعلى- ما احتاج أن يَشْفَع؛ فإن كان أعلى أمَر أمْرًا، وإن كان مساويًا غالَبه فأيُّهما غَلَبَ تكون السُّلْطة له.

وعلى كُلِّ حالٍ نقول: إنَّ الظالمين يَغُرُّ بَعْضُهم بعضًا بالباطِل حتى يَخْدعوا ويظنوا أنَّ الباطِلَ حَقٌّ وأنَّ الحَقَّ باطِل.

والتغرير: تارةً يكون بالأَقوالِ الكاذِبَة المُلَفَّقَة التي ليس لـها أَصْلٌ، وتارةً يكون بالألقاب السَّيِّئَة التي تُشوِّه السُّمْعَة، فأما الأَقْوالُ الكاذِبَة فمثل قَوْلهم -فيما حكى الله عنهم-: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨] قَوْلهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا﴾ بها هذا كذبٌ وزورٌ؛ ولهذا قال الله تعالى مُبْطلًا لهذه الدَّعوى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا من جُمْلَةِ التَّغْريرِ: أن يدَّعُوا قَوْلًا كَذِبًا وزُورًا.

أو بالأَلْقابِ السَّيِّئَة، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٤-٥] فأَتَوْا بالأَلْقابِ

السَّيِّئَة: ساحِرٌ وكَذَّاب.

فالعامَّة إذا قيل لهم -ولا سيما إذا كان القائل زُعَماء-: هذا ساحِرٌ أو كذَّاب؛ لا يتَّبِعونه، وإذا قيل لهم -أي للعامَّة- إنكم إذا عَبَدْتُم الوَلِيَّ الفُلانِيَّ أو القبر الفلاني فإنَّ ذلك يَنْفَعُكم فإنَّ العامَّة تَنْخَدِعُ؛ لأَنَّه ليس عندها علمٌ، وليس عندها عَقْل ولُبٌّ، فتَنْخَدِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: قُوَّةُ القُرْآنِ في أُسْلوبِ المُناظَرَة، وذلك بالتَّرديدِ والتَّقْسيمِ، وَجْهُه أنَّ الله تَحَدَّاهم بثلاثةِ أُمُور: هل خلقوا شيئًا من الأَرْض؟ هل شاركوا الله في السَّماء؟ هل عندهم كِتَابٌ من الله أنَّ هذه الأَصْنَام تَنْفَعُهم وإن لم تكن شريكةً لله في السَّمَواتِ ولم تخلق شيئًا من الأَرْضِ؟

والجواب: لا، ولو خلقت شيئًا من الأَرْض لكان لها الحَقُّ لأنَّها تَخْلُق، ولو شارَكَتِ الله في مُلْكِه في السَّماء لكان لها الحَقُّ لأنَّها شريكَةٌ لله عَزَّوَجَلَّ في مُلْكِه، ولو كان الله أنزل كِتَابًا يقول بأنَّ هذه الأَصْنَامَ لها الحَقَّ أن تُعْبَد وتُدْعَى من دون الله لكان لهم شُبْهَة أو حُجَّة، فلمَّا انْتَفَتِ الأُمُورُ الثَّلاثَةُ تَبَيَّنَ أنَّه لا حُجَّة لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي في المُناظَرَة أن تَذْكُرَ جميعَ الأقسام التي يُمْكِنُ أن تَرِدَ في الذِّهْن ثم تُبْطِلَ؛ احترازًا مِمَّا لو ذَكَرْتَ شيئًا واحدًا ثم بَيَّنْتَ بُطْلانه فقد يُورَدُ عليك شَيْءٌ آخَرُ؛ لأنَّه كما أنَّ القَوْل الحَقَّ لا يَنْحَصِرُ إثباتُهُ بدليلٍ واحد، فكذلك الباطِلُ لا يَنْحَصِرُ إيراد الشُّبَه فيه في شُبْهَة واحِدَة، فإذا أَرَدْتَ أن تُفْحِمَ خَصْمَك لا تأتِ بِشُبْهَةٍ واحِدَة، ائتِ بجميع ما يُمْكِن ويُحْتَمَلُ أن يكون شُبْهَةً لِتُبْطِلَه حتى يكون عندك القُوَّةُ الكامِلَةُ التي لا يُمْكِن أن يُورِدَ عليك أَحَدٌ منها خللًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه لا أَحَد يَخْلُقُ مع الله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ فإن قلت: يَرِدُ عليك أنَّ الله أَثْبَتَ أنَّ هناك خالقينَ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المُؤْمِنون:١٤] وفي قَوْلِ الرَّسُول ﷺ: «يُقَالُ لَهُمْ -أي المُصَوِّرينَ- أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[(١)]؟

فالجواب: أنَّهم لم يَخْلُقُوا هذا، ولكن حَوَّلُوهُ مِنْ صُورَةٍ إلى صُورَةٍ، فهنا ليس منهم إيجادٌ، بل تَحْويلٌ من صورةٍ إلى صورَةٍ، فالمُصَوِّر مثلًا الذي أخذ الطِّينَ وجعل منه صورةً على صُورَةِ إِنْسَانٍ أو صورَةِ طَيْرٍ أو صورَةِ دابَّةٍ؛ ما خلق هذا الشَّيْءَ لكن حَوَّلَه من كَوْنِه كُتْلَةً من الطِّينِ إلى كَوْنِه صورةً وليس خَلْقًا جديدًا.

وكذلك النَّجَّار مثلًا إذا أتى على الخَشَبِ ونَجَرَه على صورة مُعَيَّنة لا نقول إنَّه خَلَقَه لأنَّه لم يُوجِدْه، لَكِنَّه حوَّلَه من صورَةٍ إلى أخرى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بُطْلان أُلُوهِيَّةِ هذه الأَصْنَامِ ومن باب أولى رُبُوبِيَّتِها؛ وَجْهُ هذا: أنَّ الله تَحَدَّى أن تكون هذه الأَصْنَامُ صَالِحَةً للمُشارَكَة في كلِّ وَجْه من الوجوه: الخَلْق والمُشارَكَة والوَثِيقَة؛ كلُّ هذه مُنْتَفِيَة إذن؛ فيَبْطُلُ جَعْلُها إلهًا مع الله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الظَّالمينَ -ويَشْمَلُ الكافرينَ ومَنْ دونَهم- لا يَعِدُ بَعْضُهم بعضًا إلا غرورًا وخِداعًا، فيَشْمَل ذلك الكافرين الذين يُزَيِّنون الكُفْر، ويَشْمَل ذلك أَهْلَ الخَلاعَةِ الذين يُزَيِّنونَ الخلاعة، ويَشْمَل أَهْلَ اللَّهْو الذين يُزَيِّنون اللَّهْوَ؛ فكُلُّ باطِلٍ يُزَيِّنُه أصحابُهُ نقول فيه: لا يَعِدُ الظَّالِمون بَعْضُهُم بَعْضًا إلا غُرورًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الحذَرُ من أن يتمَنَّى الإِنْسَانُ على الله الأمانِيَّ، بل الذي يَنْبَغي

---

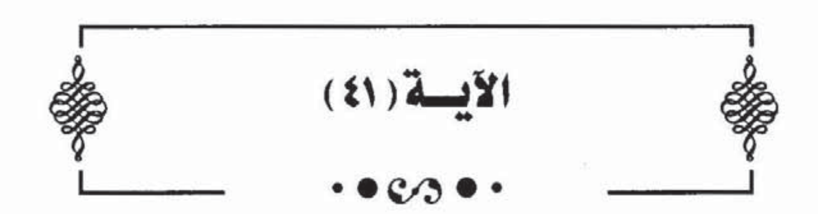
(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/ ٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

-أي يَجِبُ- أن يكون الإِنْسَانُ فَطِنًا كَيِّسًا حازِمًا؛ كما يُرْوَى عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الكَيِّسُ من دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وتَمَنَّى على اللهِ الأَمَانِيَّ»(١) فالوعود التي يُوعَدُ بها الإِنْسَانُ من قِبَلِ الظَّالمينَ أو من قِبَل نَفْسِه إذا كانت مُخالِفَة للشَّرْع؛ فما هي إلا غرورٌ وباطِلٌ، فَلْيَحْذَرِ الإِنْسَانُ منه.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت، رقم (٤٢٦٠)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٤١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا تمامَ قُدْرَتِهِ ومِنَّتِهِ على عبادِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَمْنَعُهُمَا من الزَّوالِ].

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الإمساكُ بمَعْنى القَبْضِ على الشَّيْءِ والتَّمَكُّن منه، وفَسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمَنْعِ وهو لازِمٌ للإِمْساكِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَن تَزُولَا﴾ أنْ هذه مَصْدَرِيَّة حُذِفَ منها حرف الجَرِّ؛ لأنَّه يَطَّرِدُ حَذْفُ حَرْفِ الجَرِّ مع (أَنَّ) و(أَنْ) إذا أُمِنَ اللَّبْسُ، وهنا اللَّبس مأمون، وإذا كان الكَلَام على تَقْديرِ (مِن) فحَوِّلْ (أنْ) وما دَخلَتْ عليها إلى مَصْدَرٍ يَكُنْ سَبْكَ الكَلَام: إنَّ الله يُمْسِكُ السَّمواتِ والأَرْضَ مِنَ الزَّوَالِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تَرِدُ هذه العِبارَة كثيرًا في القُرْآن، وهي جَمْعُ السَّمَواتِ وإفْرادُ الأَرْضِ، ولم تَأْتِ الأَرْضُ مَجْموعَةً في القُرْآنِ بِلَفْظِها، ولكن جاءت بِلَفْظٍ يدلُّ على التَّعَدُّدِ، وهو قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] فإنَّ المِثْلِيَّة هنا تتعيَّن أن تكون في العَدَدِ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن تكون الأَرْض

مِثْلَ السَّمَواتِ في الحَجْمِ ولا مِثْلَها في الصِّفَة، وإذا امتنع أن تكون مُماثِلَة للسَّماء في الحجم وفي الصِّفَة تعيَّنَ أن تكون مُماثِلَة للسَّماء في العدد.

والسُّنَّة جاءتْ باللَّفْظِ الصَّريحِ مِنْ أنَّ الأَرَضين سَبْعٌ؛ كما في قَوْلِه ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

وَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسم] اللَّامُ لامُ القَسَمِ و(إن) شَرْطِيَّةٌ و﴿زَالَتَآ﴾ الفِعْلُ هنا فِعْلُ الشَّرْطِ، و﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ الجُمْلَةُ جوابُ الشَّرْطِ و﴿إِنۡ﴾ هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] أي تكونُ نافِيَةً ﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُمْسِكهُما] إشَارَةً إلى أن ﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾ فعل ماضٍ لَكِنَّه بمَعْنى المضارِعِ؛ لأنَّه وقع جوابًا للشَّرْطِ، ومعلومٌ أنَّ جواب الشَّرْط يكونُ للمُسْتَقْبَلِ ولا يكون للماضي؛ لأنَّه لا يكون إلا بعد تحقُّقِ الشَّرْطِ، وتحقُّقُ الشَّرْطِ أمرٌ مُسْتَقْبَل.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِّنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾: (من) هذه زائِدَةٌ زائِدَة؛ زائِدَةٌ في الإعْرابِ ولَكِنَّها تزيدُ في المَعْنى.

و(زائِدَةٌ) اسْمُ فاعِلٍ من زاد يزيدُ، ونحن نعرف أنَّ زاد يأتي مُتَعَدِّيًا ويأتي لازمًا، فإذا قلت: زاد الشَّيْءُ؛ يعني: ارْتَفَعَ وكَثُرَ، وما أشبه ذلك، فهي لازمة، وإذا قلت زِدْتُه خَيْرًا صارت مُتَعَدِّيَة؛ لهذا نقول: هي زائِدَةٌ زائِدَة؛ ولهذا يقول بعضُ النَّاسِ -إذا رأى هذا الكَلَام-: هذا تناقُضٌ كيف يكون الشَّيْءُ (زائدًا زائدًا)؟!

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ونقول: (مِنْ) زائِدَة إِعْرابًا زائِدَةٌ مَعْنى؛ فتزيد في المَعْنى وهو تأكيدُ النَّفْي.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَحَدٍ﴾ فاعِلُ أَمْسَكَ مَرْفوعٌ بضَمَّة مُقَدَّرَةٍ على آخره منع من ظهورِهَا اشْتِغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

والمَعْنى: لَئِنْ قُدِّرَ أن تزولَ السَّمَـواتُ والأَرْضُ فإِنَّه لا أَحَـد يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَهُما سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو كذلك؛ وهذا هو الواقِع، بل لو زال ما دون السَّمَواتِ والأَرْضِ من النجومِ والكواكـبِ والشَّمْسِ والقَمَرِ ما استطاع أَحَـدٌ أن يُمْسِكَه سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل لا يَسْتَطِيع أَحَدٌ أن يَصْرِفَ شيئًا من هذه الكواكِبِ أو النُّجُومِ أو الشَّمْسِ أو القَمَرِ؛ أن يصرفه عن جِهَةِ سَيْرِه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولا أن يَمْنَعَه مِن سَيْرِه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قال في الإِعْراب هنا: قلنا إن اللام في (لَئِنْ) لامُ القَسَمِ و(إن) شَرْطِيَّة و(إن أَمْسَكَهُما) جوابُ القسم؛ لأنَّ لدينا قاعِدَةً: إذا اجتمع الشَّرْطُ والقَسَمُ حُذِفَ جوابُ المُتأَخِّرِ منهما، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ مُقَرِّرًا هذه القاعِدَة:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِماعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوُ مُلْتَـزَمْ[1]

إذن: فالمُؤَخَّر هنا الشَّـرْطُ، فيكون جوابه هو المَحْذُوفَ؛ دَلَّ عليه جـوابُ القَسَمِ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي في تأخير عقابِ الكُفَّار].

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ هذه الجُمْلَة مناسَبَتُها لما قبلها أنَّها تعليلٌ لما قبلها، فارتباطُها به ارتباطُ العِلَّة بالمَعْلولِ؛ يعني أنَّه في إمساكِهِ للسَّموات والأَرْض كان

---

(١) الألفية (ص٥٩).

حليمًا غفورًا، ولولا حِلْمُه ومَغْفِرَتُه لزالت السَّمَواتُ والأَرْضُ وهَلَكَ من فيهما.

و(الحليمُ) اسمٌ من أَسْماء الله، ومعناه ذو الحِلْم، والحِلمُ هو تأخير العقوبة عن مُسْتَحِقِّها، تأخيرُ عُقُوبةٍ وليس تركَ عقوبةٍ؛ لأنَّ تَركَ العُقُوبَة عَفْوٌ، ولكنَّ تأخيرَ العُقُوبَة عن المُسيءِ يُسَمَّى هذا حِلْمًا؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيانِ[1]

فبِحِلْمِه عَزَّوَجَلَّ تتأَخَّرُ العقوبات؛ لعلَّ النَّاس يتوبون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَوْله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ هذا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويمحو أَثَرَهُ بالكُلِّيَّة، وسبق لنا: أنَّ المَغْفِرَة هي سِتْرُ الذَّنْب والتَّجاوُزُ عنه؛ وذلك لأنَّها مَأْخوذَةٌ من المِغْفَر الذي يُغَطِّي الرأس ويَقيهِ السِّهامَ، وليست -كما قيل- مُجَرَّدَ السِّترِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ السِّترِ لا تَحْصُلُ به الوِقايَة، بل لا بُدَّ مع السِّتْر من الوِقايَةِ.

ويدل لهذا المَعْنى قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِعَبْدِه إذا خلا به وقَرَّرَهُ بِذُنوبِهِ يقول: «كُنْتُ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[2]؛ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ السِّتْـرَ غَيْرُ المَغْفِرَة، وأنَّ المَغْفِرَة لا بُدَّ فيها مِنْ عَدَمِ المُؤاخِذَةِ وعَدَمِ العُقُوبَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على إِمْساكِ السَّمَـواتِ والأَرْضِ فهذه الأَجْرامُ العَظيمَة أَمْسَكَها الله تعالى بقُدْرَته بدون معاناةٍ وبدون تَعَبٍ وإنَّمـا يقولُ

(١) النونية (ص٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

للشَّيْء: (كن) فيكونُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، قال الله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت:١١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده؛ حيث سخَّر لَهُم السَّمَوات والأَرْض -بل سَخَّرَ لهم ما في السَّمَواتِ والأَرْضِ أيضًا- وهذا من كمال رَحْمَتِه، فلولا رَحْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ بعباده لوَقَعَتِ السَّمَواتُ على الأَرْض وهَلَكَ النَّاسُ وما تَرَكَ عليها من دابَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ السَّمَواتِ والأَرْضَ مَخْلوقتانِ من جُمْلَة المَخلوقاتِ، مُسَخَّرتانِ بأَمْرِ الله؛ ففيه ردٌّ على الفلاسِفَة الذين يقولون بِقِدَمِ العالَمِ وقِدَمِ الأَفْلاكِ وأنَّ الفَلَكَ التَّاسِعَ -كما يزعمون- هو المُدَبِّرُ لما تحته!!

بل نقول: هذه الأَفْلاكُ كُلُّها مَخْلوقَةٌ لله مُسَخَّرَةٌ بِأَمْرِه، ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن تَزولَ لَزالَتْ ولم يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أن يُمْسِكَها؛ وجه الفائِدَة: أنَّها مَخْلوقَةٌ من مَخْلوقات الله فليست قديمَةً، فإنَّ إِمْساكَها دَليلٌ على أنَّها قائمةٌ بِأَمْرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحد يَسْتَطِيعُ أن يُدَبِّرَ هذه المَخْلوقاتِ العَظيمَةَ الكبيرَةَ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: توجيه الخَلْقِ أنَّهم إذا رأوا في هذه الآياتِ؛ السَّمَواتِ والأَرْضِ، إذا رَأَوْا ما يُزْعِجُهم ويُقْلِقُهم أَلَّا يَرْجِعوا إلى أَحَدٍ إلا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فالزَّلازِلُ والبَراكينُ والكسوفُ والصَّواعِقُ وغَيْرُها مِمَّا يُخَوِّفُ العالَمَ لا نرجع فيه إلا إلى الله؛ لأنَّه هو الذي يُمْسِكُ السَّمَواتِ والأَرْضَ أن تزولا، ولا أَحد يُمْسِكُهُما إذا زالتا إلا اللهُ.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأُمُور؛ هل نلجأ إليه بالصِّفَة التي أَرْشَدَنا إليها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكسـوف؟ أو نلجأ إلى الله تعالى بالصِّفَة التي أَرْشَدَنا إليها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صلاة الكُسُوفِ فقط وما عداه فإننا نلجأ إلى الله تعالى بالدُّعَاء المُطْلَق؟

هذا مَحَلُّ خلافٍ بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ فمنهم من قال إنَّه إذا وُجِدَتْ آياتٌ أُفُقِيَّة تُخيفُ العبادَ فإنَّه يُشْرَعُ للعباد أن يُصَلُّوا صلاة الكُسُوفِ حتى يَذْهَبَ ما بهم.

فالذين قالوا بالأَوَّلِ؛ أَنَّه يُصَلَّى لِكُلِّ آيَةٍ تُخَوِّفُ العبادَ، اسْتَدَلُّوا بِقَوْل النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَـا عِبَادَه، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا -يَعْنِي كَاسِفَتَيْنِ- فَصَلُّوا وادْعُوا...»[1] إلخ.

قالوا: وتخويفُ العبادِ بالصَّواعِقِ والزَّلازِلِ أَشَدُّ وَقْعًا في نُفُوسِهم من الكُسُوفِ، فإذا شُرِعَتِ الصَّلاةُ للكُسُوفِ فَمَشْروعِيَّتُها لهذه الآياتِ من بابِ أولى.

وهذا اختيارُ شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ، واسْتَدَلَّ بِفِعْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين صلَّى صلاةَ الكُسوفِ في زَلْزَلَةٍ[3].

ولكـنْ في المذهـب[4] يقولونَ: إنَّه لا تُصَلَّى صلاةُ الكُسـوفِ إلا لِكُسـوفٍ أو للزلزلة؛ احتجاجًا بِفِعْلِ ابْنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١/ ٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الاختيارات العلمية (٥/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٠١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٣٢)، والبيهقي (٣/ ٣٤٣).

(٤) انظر: الهداية (ص١١٥)، والإنصاف (٢/ ٤٤٩).

ولكنَّ الصَّوابَ ما اختاره شيخُ الإِسْلام ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّ هذا الذي ذهب إليه يدلُّ عليه التَّعْليلُ في الحديث: «آيتانِ مِنْ آياتِ الله يُخَوِّفُ الله بهما عِبادَهُ».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثْباتُ العِلَّة والسَّبَبِ في أفعال الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وإثبات العِلَلِ في أفعال الله أو في أَحْكَامه يدُلُّ على كماله لا على نَقْصِه خلافًا للنَّاقِصِينَ الذين زَعَمُوا أنَّ إِثْباتَ الحِكْمَةِ فِي أَفْعالِ الله تعالى وأَحْكَامه تدلُّ على النقص؛ ولهذا نَفَوُا الحِكْمَةَ عن أفعال الله وأَحْكَامِهِ؛ يقولون: لأنَّ ذلك يَقْتَضي النَّقْص وأنَّه فَعَلَ لِغَرَضٍ أو حَكَمَ لِغَرَضٍ، والفاعِلُ لِغَرَضٍ ناقصٌ بدونه، وعلى هذا فيكون نَفْيُ الحِكْمَة عن أفعال الله وأَحْكَامه مِن تَنْزِيهِ الله تعالى عَنِ النَّقْصِ!

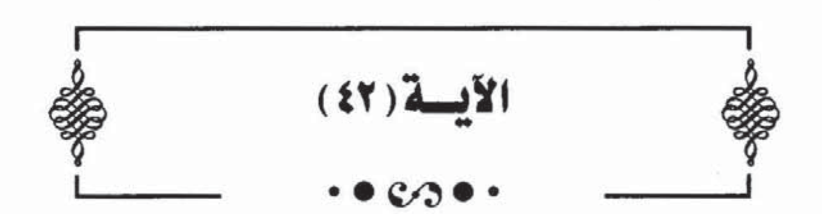
وفي الحَقيقة: أنَّ أيَّ إِنْسَانٍ يَعْتَقِدُ أن إثباتَ الحِكْمَةِ في أفعال الله تعالى وأَحْكَامِهِ نَقْصٌ فهو النَّاقِصُ، حتى إنَّ الإِنْسَان بمُجَرَّدِ ما يتأمَّل في المَسْأَلَة يَعْرِف أنَّ مَنْ فَعَلَ لِغَيْرِ حِكْمَة فقد أتى سَفَهًا، ومن فَعَلَ لِحِكْمَةٍ فقد أتى رُشْدًا؛ لأنَّ الرَّشيدَ هو الذي يَفعَلُ الشَّيْء لِحِكْمَةٍ وحُسْنِ تَصَرُّف والسَّفيهُ بالعَكْس؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء:٥].

وعلى هذا ففي الآيَة هذه وغيرها من النُّصوص الكثيرة في الكِتَاب والسُّنَّة والعَقْل الصَّريحِ ما يدلُّ على إثباتِ الحِكْمَة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الحِكْمَةَ من أجَلِّ صفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبيانُها في أَحْكَامِ الله وأفعاله من أَعْظَمِ الأُمُور وأَظْهَرِها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْباتُ الحِكْمَة لأنَّه عَلَّلَ إمساكَ السَّمواتِ والأَرْضِ بَكَوْنِ ذلك مُقْتَضَى حِلْمِهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثْباتُ هذين الاسْمَيْنِ لله وهما (الحليم) و(الغَفور) وإثباتُ ما تَضَمَّن ما تضمَّناه من الصِّفَة؛ لأنَّ كل اسمٍ من أَسْماء الله فهو مُتَضَمِّنٌ لصِفَةٍ؛ ليس في أَسْماءِ الله اسمٌ جامِدٌ أبدًا حتى اسْم الجلالة (الله) ليس بجامِدٍ بل هو مُشْتَقٌ من الأُلوهِيَّة، وكذلك بَقِيَّةُ الأَسْماءِ كُلِّها ليست جامدة بل هي مشتقةٌ من مَعانٍ تَدُلُّ عليها، والمعاني التي تدلُّ عليها أَسْماءُ الله قد تكون مُتَعَدِّدَةً في اسْمٍ واحد، كما تقدَّمَ في الدَّلالَة أنَّها تكون دَلالَةَ مُطابَقَةٍ ودَلَالَةَ تَضَمُّنٍ ودَلَالَةَ الْتِزامٍ.

•●۞●•



الآيــة (٤٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر:٤٢].

•• ❦ ••

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أقسموا؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي كُفَّار مَكَّة] وهذا يَحْتَمِلُ ما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ الضَّمير يعود على كُفَّار مَكَّة، ويُحْتَمَل أنَّه أَعَمُّ وأنَّ من النَّاس من أَقْسَموا وهم من غَيْرِ كُفَّار مَكَّة.

وَقَوْله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي حَلَفُوا به، وَقَوْله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي غايَةَ الأَيْمانِ؛ يعني: الأَيْمان التي بذلوا فيها الجَهْد وهي أَيْمانٌ مُغَلَّظَة بصيغتها كمِّيَّةً وكَيْفِيَّةً، فالأَيْمانُ المُغَلَّظَة بصيغتها كمِّيَّة وكَيْفِيَّة هي الأَيْمان التي بَلَغَتِ الجَهْدَ؛ أيك غايَةَ الطَّاقَةِ بالنِّسْبَة للمُقْسِم.

والأَيْمانُ -كما قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ- تُغَلَّظُ بالكمِّيَّة والكَيْفِيَّة والزَّمان والمَكانِ والهَيْئَة؛ خَمْسَةُ أشياءَ:

١- بالكمِّيَّــة؛ مثل: أن يقـول: واللهِ واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو العظيمُ العزيـزُ الغالِبُ، وما أشبه ذلك من الأَسْماءِ التي تدلُّ على الانتقام فيها لو كان الإِنْسانُ كاذِبًا.

٢- بالكَيْفِيَّة؛ بأن يأتي بها يعني بانفعالٍ شديدٍ يدلُّ على تَأَثُّرِه بالقَسَمِ.

٣- وأمَّا في الزَّمان؛ فأن تكون بعد صلاة العَصْرِ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة:١٠٦] أي: من بعد صلاة العَصْرِ.

٤- وفي المكان؛ بحيث يكون الإقسامُ في مكانٍ فاضِلٍ، وأَفْضَلُ الأَماكِنِ في البلدان المساجِدُ، قالوا: وتكون عند المِحْرابِ أو المِنْبَرِ في الجوامِعِ وعند الكَعْبَة؛ بَعْضُهُم قال تَحْتَ الميزابِ وفي الرَّوْضَة في المدينةِ.

٥- وفي الهَيْئَةِ؛ بأن يكون قائمًا لأَنَّه يَحْلِفُ وهو قائم، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لأنَّ العُقُوبَةَ أَقْرَبُ إلى القائِمِ منها إلى القاعِدِ.

فهذه خَمْسَةُ أشياء في تغليظِ اليمينِ.

لكن هل هؤلاء الكُفَّارُ أَقْسَموا جَهْدَ أَيْمانِهِم على هذه بهذه التَّغْليظاتِ الخَمْسَة؟ الله أعلم.

وعلى كُلِّ حالٍ: هم بذلوا أَقْصى ما يَسْتَطِيعون من اليَمِينِ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ هذه الجُمْلَة نقول في إِعْرابها كما قلنا في الجُمْلَة الأولى ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ اجتمع فيها شَرْطٌ وقَسَم وحُذِفَ جواب الشَّرْط، ولهذا جاءتِ اللَّام في الجواب: ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ ولو كان المَحْذُوفُ جوابَ القَسَمِ لم تأتِ اللَّام في الجوابِ؛ لأنَّ جواب الشَّرْط لا يَحْتاجُ إلى اللَّام وإِنَّما يُرْبَطُ بالفاء في مَحَلِّه وبِحَذْفِها ولا يحتاج إلى رابِطٍ إذا لم يكن من المواضِعِ السَّبْعَة المَعْروفَة.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بمَعْنى مُنْذِرٍ، وهو الرَّسُولُ ﴿لَّيَكُونُنَّ

أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قَوْله تعالى: ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ بِضَمِّ النُّونِ وهو مُشْكِلٌ: كيف ضُمَّتِ النون، والمَعْروف أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ مع نون التَّوْكيد يُبْنَى على الفَتْحِ؛ كما في قَوْلِه تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤] وهنا قال: ﴿لَيَكُونُنَّ﴾؟

والجوابُ على ذلك: أنَّ نون التَّوْكيد لا يُبْنَى معها الفِعْلُ إلا إذا كانت مباشِرَةً له لَفْظًا وتَقْديرًا، والنون هنا مباشِرَةٌ للفِعْلِ لَفْظًا لَكِنَّها غَيْرُ مباشرة له تَقْديرًا؛ لأنَّ الفِعْلَ هنا للجماعَةِ وليس للمُفْرَدِ، وأصله (يكونونَنَّ) فحُذِفَتِ النُّونُ لتَوالِي الأَمْثالِ؛ لأنَّهم يقولون إنَّ العرب يَكْرَهونَ أن تَجْتَمِعَ ثلاثُ كَلِماتٍ من نوعٍ واحِدٍ بَعْضها إلى بَعْضٍ فيحذفون أَوْلَاهَا بالحَذْفِ، وأولاها بالحَذْف على حَسَب قياسِهِم نونُ الرَّفْعِ؛ لأن حذفها معتادٌ، ولأن نون التَّوْكيد جاءت لَمِعْنًى لو حُذِفَتْ لاخْتَلَّ ذلك المَعْنى؛ لأنَّها جاءت للتَّوْكيدِ فلا نَحْذِفُها، لكن نحذف نون الرَّفْع؛ لأن حَذْفَها معتادٌ؛ فحذفنا نونَ الرَّفْعِ، وهي النونُ الأولى من الثَّلاثَة؛ بَقِيَتِ الواو تَلي النونَ، والنون حرفٌ مُشَدَّدٌ في هذا التَّرْكيبِ والحَرْفُ المُشَدَّد أَوَّلُه ساكِنٌ فحذفنا الواو لالتقاءِ السَّاكنَيْنِ فصارَتْ ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ حَذَفْنا الواوَ التي بين نونِ الفِعْلِ؛ لأنَّ النون في (يَكُونُنَّ) نون الفِعْلِ؛ ولهذا ما حذفناها لأنَّها أَصيلَةٌ، وحذفنا الواو لالتقاء الساكنِين.

فإن قال قائل: عندنا الآنَ ثلاثُ نوناتٍ، فلماذا لا تحذفوا واحِدَةً منها؟

فالجواب: أولًا: أنَّ هذه النونات ليست مُتَّصِلَةً تَقْديرًا، يعني ليس بعضها متصلًا ببعضها الآخر من حيثُ التَّقْديرُ؛ لأنَّ كان قد فصل بينهما الواوُ التي حذفناها لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ.

ثانيًا: أنَّ النون التي بعد الواو في ﴿لَيَكُونُنَّ﴾ النون الموجودة الآن نون الفِعْلِ فهي من بِنْيَةِ الكَلِمَة ولا يُمْكِن أن تُحْذَفَ.

على كُلِّ حالٍ: يَجِبُ أن نَعْرِفَ الفَرْقَ بين (لَيَكُونَنْ) وبين (لَيَكُونُنَّ)؛ ففي القُرْآن (لَيَكُونَنْ) كقَوْله تعالى: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢].

ففرق بين لَيَكُونَنْ وبَيْنَ لَيَكُونُنَّ:

فَقَوْله: (لَيَكُونَنْ) هذه للواحِدِ؛ ولهذا بُنِيَ الفِعْل معها على الفَتْحِ لاتصاله بنون التَّوْكيدِ لفظًا وتَقْديرًا، و(ليكونُنَّ) للجماعة؛ ولهذا لم يُبْنَ الفِعْل معها؛ لأن نون التَّوْكيدِ لم تُباشِرْه تَقْديرًا.

إذن: نون التَّوْكيد لا يُبْنى معها الفِعْل إلا إذا كانت مباشِرَةً له لفظًا وتَقْديرًا، وفي هذه الجُمْلَة: ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ لم تباشِرْه تَقْديرًا، أمَّا لفظًا فقد باشَرَتْه، وإنَّما قلنا لم تُباشِرْه تَقْديرًا؛ لأنَّه حُذِفَ منها واوُ الجماعة، فلم تباشِرْه تَقْديرًا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: ﴿أَهْدَىٰ﴾ هذه خَبَر (يكون) فهي منصوبَةٌ به بالفَتْحَة المُقَدَّرَة على الألف منعَ من ظهورها التَّعَذُّر، وهو اسْم تَفْضيلٍ.

وَقَوْله تعالى: ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ؛ أَيْ: أَيِّ وَاحِدَة مِنْهَا؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؛ إِذْ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ].

وَقَوْله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فأَتَوْا بـ﴿إِحْدَى﴾ الدَّالَّة على الإبهام، فلم يقولوا: أَهْدَى من النَّصارى ولا أَهْدى من اليهودِ، بل قالوا: أهدى من إِحْدى الأُمَم؛ لأنَّ الأَمْر الْتبَسَ عليهم؛ حيث إنَّ اليهود يقولون لَيْسَتِ النَّصارى على شَيْء والنَّصارى يقولون لَيَسَتِ اليَهودُ على شَيْء، وهؤلاء المُشْرِكونُ -كُفَّار مَكَّة- أُمَّةٌ جاهِلِيَّة لا يَدْرونَ مَنِ الحَقُّ معه، فلم يقولوا: أهدى من النَّصارى ولا أهدى من

اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهُما؛ أهدى من أيِّ واحِدَةٍ؛ لأنَّ الأَمْرَ عندهم الْتبَس.

ولكن يبقى النَّظَر: ما هو الدَّليلُ على تَخْصيصِ كَلِمَة ﴿ٱلۡأُمَمِ﴾ بالأُمَّتَيْنِ اليَهودِيَّة والنَّصْرانِيَّة، ولماذا لا يقال إنَّها أَعَمُّ من اليهود والنصارى، فهناك مَجوسٌ يدينون بعِبَادَة النِّيرانِ، ويُمْكِن أن يُوجَدَ أناسٌ آخرون يدينون بديانةٍ أخرى؟

الجواب: إمَّا أن نَلْتزِمَ بالعموم ونقول: إنَّهم يقولون أهدى من إحدى الأُمَمِ؛ من أيِّ أُمَّةٍ كانَتْ من اليهود أو النَّصارى أو المجوس أو الوَثَنِيِّينَ الذين يعتقدون أنَّهم على دينٍ أو ما أشبه ذلك، فكأنَّهم يقولون أهدى مِنْ كُلِّ الأُمَمِ، لكن لم يُعَيِّنوا لأنَّهم لم يَدْرُوا مَن هو الذي على حَقٍّ.

وإما أن يُقالَ خُصَّ هذا الجانِبُ بأُمَّتينِ فقط لأنَّ المَعْروفَ أنَّهم على دينٍ هُمُ اليهود والنَّصارى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ هنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ ولم يَقُل: فلما جاءهم الرَّسُولُ؛ ليطابِقَ ما قالوه حتى يكون أَبْلَغَ في إلزامِهم بما قالوا؛ لأنَّهم قالوا: إن جاءهم نذيرٌ ليكُونُنَّ، فلما جاءهم نذيرٌ على حَسَبِ ما فرضوه وما قَدَّروه: جاء الأَمْرُ كذلك؛ فلما جاءهم نذيرٌ كما يقولون هم، والمُرادُ به مُحَمَّد ﷺ بلا شَكٍّ، ولكن -كما أشرت- نُكِّرَ ولم يُعرَّفْ متابعةً لكَلامِهم؛ حيث قالوا لئن جاءنا نذيرٌ؛ يعني: فلَمَّا جاءهم نذيرٌ، وكما طلبوا تمامًا وباللَّفْظِ: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ هنا شَرْطِيَّةٌ، وفِعْلُ الشَّرْطِ ﴿جَآءَهُمۡ﴾ وجوابه ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

و(لَمَّا) تأتي في اللُّغَة العَرَبِيَّة على أَوْجُه:

أَحَدها -كما هنا-: شَرْطِيَّة.

والثاني: أن تأتي جازِمَةً كـ(لَمْ) إلا أنَّه بينهما فروقًا ليس هذا مَوْضِعَ ذِكْرِها؛ لأنَّنا لا نَتكَلَّمُ عن النَّحْو؛ كقَوْله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: بل لم يذوقوا عذابي، ولَكِنَّهم حَرِيُّونَ بأن يَذوقوه.

والثالث: أن تكون بمَعْنى (إلَّا) كقَوْله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بمَعْنَى (حين) مُجَرَّدَةً عن الشَّرْطِ؛ مثل أن تقول: زُرْتُكَ لَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ؛ أي: حين طَلَعَ الصُّبْحُ.

فهذه أربعة معانٍ لـ(لَمَّا).

وَقَوْله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مجيئُه] يعني أنَّهم جاءَهُم نذيرٌ كما فرضوا ولَكِنَّهم ما كانوا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يَزِدْهُم إلا نفورًا عن الحَقِّ وبُعْدًا عن اتِّباعِهِ؛ قال: [تَباعدًا عن الهُدى] والعياذُ بالله.

وهذا أمرٌ مُشاهَد؛ فإنَّ قريشًا لما بُعِثَ فيهم النَّبِيُّ ﷺ نَفروا منه وآذَوْه بالقَوْلِ وبالفِعْلِ، ووَصَموه بِكُلِّ عَيْبٍ، وكانوا قبل أن يُبْعَثَ يُجِلُّونه ويَحْتَرِمونه ويُسَمُّونَه (الأَمينَ) فلما بُعِثَ لم يكن أمينًا وكأنَّه رَجُلٌ غَيْرُ الرَّجُلِ الذي كانوا يَعْرِفونه!! كُلُّ هذا يُكَذِّبُ قَوْلَهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢].

• • ۞ • •



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

•●○●•

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عن الإيمانِ مفعولٌ له] يعني أنَّ كَلِمَة ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفعولٌ له؛ أي مَنْصوبَة على أنَّها مفعولٌ له؛ أي ما زادهم إلا نفورًا لأَجْلِ الاسْتِكْبارِ في الأَرْض، وهذا أَحَدُ الاحْتِمالَيْنِ في الآيَة الكريمَةِ.

والاحتمال الثاني: أن ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ بَدَلٌ من كَلِمَة ﴿نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم إلا نُفورًا، وهذا النُّفور هو الاسْتِكْبار في الأَرْضِ، وهو احتمالٌ قويٌّ جدًّا: أن تكون اسْتِكْبارًا بدلًا أو عَطْفَ بيانٍ من كَلِمَة ﴿نُفُورًا﴾؛ إذن ما زادهم هذا الكَلَامُ، هذا المجيء، إلا البُعْدَ عن الحقِّ والاسْتِكْبارَ في الأَرْض.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ مَعْطوفٌ على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾.

﴿وَمَكْرَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العَمَلِ ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾ من الشِّرْكِ وغَيْرِه] فقدَّر العَمَل قَبْل السَّيِّئ ليكون السُّوءُ مَوْصوفًا به العَمَلُ، والعَمَلُ السَّيِّئُ يكون مكرًا، هذا ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعل المَكْرَ مضافًا إلى شَيْءٍ مَحْذُوفٍ وهو العَمَل، وجَعَلَ السَّيِّئَ صفةً لذلك الشَّيْءِ المَحْذُوفِ؛ أي: مَكْرَ العَمَلِ السَّيِّءِ، بمَعْنى: أنَّهم

ما زادهم إلا نُفُورًا واسْتِكْبارًا في الأَرْض وأن يَمْكُروا مَكْرَ العَمَلِ السَّيِّئِ.

والمَكْر هو الخديعة وهو التَّوَصُّل بالأَسْبَابِ الخَفِيَّة إلى الإيقاعِ بالخَصْم والعَدُوِّ، وأمَّا التَّوَصُّلُ بالأَسْبَابِ الظَّاهِرةِ فليس بِمَكْر.

فإن قلتَ: هذا المَعْنى لا يَنْطَبِقُ على عمل هؤلاء؛ لأنَّ هؤلاء يُظْهِرون عَمَلَهُمُ السَّيِّئَ؟

فالجواب: أنَّ هؤلاء تارةً يُظْهِرونَه، وتارةً يُخْفونه كما في اجتماعِهِم بدار النَّدوة ماذا يصنعون بالرَّسُولِ ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] وإنَّما ذُكِرَ المَكر دون الشَّيْء المُعْلَن الظَّاهِرِ؛ لأنَّه أَعْظَمُ قُبْحًا من الشَّيْءِ المُعْلَن الظَّاهِرِ فصار هؤلاء جَمَعوا إلى الكَذِبِ المَكْرَ والخِداعَ، والعياذُ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو الماكر...] إلخ؛ يعني أنَّ هؤلاء مَكَروا السُّوء وعَمِلُوا السُّوء بِصِفَةٍ عَلَنِيَّة وصِفَةٍ خَفِيَّة، وهل الماكر بِغَيْرِه يَنجو؟

الجوابُ: إذا كان مكرًا سَيِّئًا فإنَّه لا ينجو، بل سَيحيقُ به مَكْرُهُ ويُهْلِكه ويُدَمِّرُه؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦] أمَّا إذا كان المَكْرُ بحَقٍّ فإنَّه لا يَحيقُ بأَهْلِه، بل يَحيقُ بِعَدُوِّهِ؛ ذلك لأنَّ المَكْرَ بحَقٍّ مَمْدوحٌ وليس بِمَذْمومٍ.

وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهنا لم يَقُلْ إلا بالماكِرِ بل قال إلا بأَهْلِهِ؛ إِشَارَة إلى بيانِ الاسْتِحْقاق لهذه الجَريمَةِ التي وقعت منه وأنَّه أَهْلٌ لأن يَحيقَ به مَكْرُهُ، فكُلُّ ماكِرٍ بِغَيْرِ حَقٍّ أَهْلٌ لأن يَحيقَ به مَكْره.

قال: [وَوَصْفُ المَكرِ بالسَّيِّئِ أَصْلٌ، وإضافتُه إليه قَبْلُ اسْتِعْمالٌ آخَرُ قُدِّرَ فيه مُضَافٌ حَذَرًا من الإِضافَةِ إلى الصِّفَة] هذا كَلَام قليلُ الفائِدَة مُعقَّدُ المَعْنى في الواقِعِ.

فَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَصْلٌ] يعني جارٍ على الأَصْلِ؛ لأنَّ الأَصْلِ أنَّ الوَصْفَ يَنْفَصِلُ عن المَوْصوفِ ولا يُضافُ إليه المَوْصوفُ؛ فأنت تقول: مَرَرْتُ بزيدٍ الفاضِلِ، فتجعل الصِّفَةَ مُنْفَصِلَةً عن المَوْصوفِ تابعةً له، وليس مضافًا إليها.

قال تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ مَكْر السَّيِّئِ، فهنا لم يُوصَفِ المَكر بالسَّيِّئِ ولكنْ أُضيفَ المَكْر إلى السَّيِّئِ، وَقَوْل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إضافتُه إليه قَبْلُ] مَعْنى (قَبْلُ) يعني: قبلَ هذه الجُمْلَةِ، ويعني بذلك قَوْله تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

وَقَوْله: [استعمالٌ آخَرُ] على خلافِ الأَصْلِ؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّ الصِّفَةَ تَقَعُ تبعًا للمَوْصوفِ لا أنَّ المَوْصوفَ يُضافُ إلى الصِّفَة.

لكن يَجوزُ أن يُضافَ المَوْصوفُ إلى الصِّفَة؛ ولهذا يَمُرُّ بكم دائمًا قَوْلُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: «هذا من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِهِ» مثل قَوْلهم: هذا مَسْجِدُ الجامِعِ؛ أصله: (هذا المَسْجِدُ الجامِعُ) لكن أضيفَ إلى صِفَتِه وهو كثيرٌ، كما أنَّ -أيضًا- الصِّفَةُ تضافُ إلى المَوْصوفِ أحيانًا؛ مثل: طاهِر القَلْبِ؛ هذه صِفَةٌ مُضافَةٌ إلى مَوْصوفِها؛ كما قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأَلْفِيَّة:

.... كَطَاهِرِ القَلْبِ جَميـلِ الظَّـاهِرْ(١)

فهذا من بابِ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ.

إذن: نأخُذُ من هنا أنَّه يجوز إضافَةُ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ، وإضافَةُ المَوْصوفِ

---

(١) الألفية (ص٤٢).

إلى صِفَتِه؛ والأصل من ذلك أن تقع الصِّفَةُ تَبَعًا للمَوْصوفِ على أنَّها نعتٌ له وتُعْرَبُ بإِعْرابه.

وفي الآيَة الكَريمَة: إضافَةُ المَوْصوفِ إلى الصِّفَة ووَصْفُ المَوْصوفِ بالصِّفَةِ في أوَّلِها وآخِرِها؛ فإضافَةُ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ ولو كان في غَيْرِ القُرْآن وأردنا أن نُحوِّلَه إلى أن تكون الصِّفَةُ تبعًا للمَوْصوف لقلنا: استكبارًا في الأَرْض والمَكْرَ السَّيِّئ؛ لكن هنا صار من بابِ الإِضافَةِ.

وفيها أيضًا وَصْفُ المَوْصوفِ بالصِّفَةِ قَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أيُّهما الأَصْلُ هنا بين المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وَوَصْفُ المَكْرِ بالسَّيِّئِ أَصْلٌ] لو قال بَدَلَ [أصل]: جارٍ على الأَصْلِ؛ لكان أَوْضَحَ وهذا هو مُرادُه، قال: [وإِضافَتُه إليه قَبْلُ] يعني به إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ في قَوْلِه: مَكْرَ السَّيِّئِ؛ يقول: [استعمالٌ آخَرُ] يعني جارٍ على اسْتِعْمالٍ آخَرَ في اللُّغَة العَرَبِيَّة؛ لأنَّ اللُّغَة العَرَبِيَّة أحيانًا تُضيفُ المَوْصوفَ إلى صِفَتِهِ؛ واضِحٌ؟

قال: [قُدِّرَ فيه مُضافٌ] حَسَب شَرْحِهِ هو وتَفْسيرِهِ؛ حيث قال: [﴿وَمَكْرَ﴾ العَمَلِ ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾ حَذَرًا من الإِضافَةِ إلى الصِّفَة].

وهذا الذي قاله الأخير يُنازَعُ فيه، وذلك لأنَّه لا داعِيَ إلى ذلك، فلا حاجة إلى أن نُقَدِّرَ مَحْذُوفًا لِأَجْلِ أن نَمْنَعَ إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَة؛ لأن إضافَةَ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة كثيرٌ شائِعٌ ليس هذا أمرًا محذورًا في اللُّغَة العَرَبِيَّة حتى نقولَ نَحْتاجُ إلى تَقْديرِ ما يُصَحِّحُه؛ ولهذا نقول: (مَكْرَ السَّيِّئِ) جارٍ على أَصْلِهِ؛ بمَعْنى أنَّه لا حاجَةَ إلى أن يُقَدَّرَ فيه شيءٌ مَحْذُوفٌ.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَنْتَظِرونَ] هذا تَفْسيرٌ

لِيَنْظرونَ بمَعْنى يَنْتَظِرون، وهناك ضابطٌ -وليس قاعِدَةً-: أنَّ (يَنْظُر) إن تَعَدَّتْ بـ(إلى) فهي بمَعْنى النَّظَر بالعَيْنِ؛ كقَوْله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] وإن تَعَدَّتْ بـ(في) فهي بمَعْنى النَّظَر الفِكْرِيِّ؛ كما في قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف:١٨٥] وإن تَعَدَّتْ بِنَفْسِها فهي بمَعْنى الانْتِظارِ، مثلما هنا في قَوْله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناها: (هل يَنْتَظِرون) من الانتظارِ وهو التَّرَقُّب، فهل يَنْظرونَ؛ يَنْتَظِرون يعني يَتَرَقَّبون.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّة بمَعْنى الطَّريقَةِ، والإضافَةُ هنا إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من باب الاخْتِصاصِ؛ يعني إلا السُّنَّة التي جرت لِلَأَوَّلينَ وليس المُرادُ السُّنَّةَ التي فعلها الأولون؛ لأنَّ الأولين مفعولٌ بهم وليسوا هم الفاعلينَ، وإنَّما الفاعِلُ من الله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُنَّةَ اللهِ فِيهِمْ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ] يعني ما يَنْتَظِرُ هؤلاء الذين كذَّبوا الرَّسُول ﷺ إلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ، وهي -أي سُنَّة الأولين- تَعذيبُهُم بِتَكْذيبِ الرُّسُلِ.

قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لَنْ تَجِدَ لسُنَّة الله تبديلًا بِرَفعها أو تبديلًا بِتَحْويلِها إلى قومٍ آخرين؛ يعني أنَّ سُنَّة الله ستَقَعُ في أعيان الذين يَسْتَحِقُّونَها، فلن تُبَدَّلَ فتُرْفَعَ ولن تُحَوَّل إلى قومٍ آخرين فيَسْلَمَ منها من اسْتَحَقُّوها، بل هي واقِعةٌ على من استحَقُّوها عَيْنًا.

مثال ذلك: المُشْرِكونُ -من قريش- كَذَّبوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ التَّحْويلُ معناه أن تُحَوَّلَ عُقوبَتُهُم إلى بني تَميمٍ مثلًا، هذا لا يُمْكِن؛ لأنَّ هذا ظُلْمٌ؛ أن يؤاخَذَ قومٌ بجريمَةِ آخرينَ، هذا مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

ومثال آخَرُ: كذَّبَتْ قريشٌ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فبدلًا من أن يعاقِبَهم الله نَعَّمَهُم، وهذا مَعْنى قَوْله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فالعذابُ لن يُبَدَّلَ بِنَعيمٍ، ولن يُحَوَّلَ عن مُسْتَحِقِّه إلى قومٍ آخرينَ.

فسُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ لا بُدَّ أن تقع فيمن يَسْتَحِقُّها بدون تبديلٍ لها بنِعْمَةٍ وبدون تحويلٍ لها إلى غَيْرِهِم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كامِلُ الحِكْمَة، كامِلُ العَدْل، فهو كامِلُ الحِكْمَة فلن يُبَدِّلَ النِّقْمَة بنِعْمَةٍ على من استحَقَّها، وكامِلُ العدل لا يُمْكِنُ أن يُحَوِّلَ الانْتِقامَ إلى قومٍ آخرينَ لا يَسْتَحِقُّونه.

فهذه الصِّفَةُ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا...﴾ إلخ، هي من بابِ الصِّفاتِ السَّلْبِيَّةِ لَكِنَّها تَتَضَمَّنُ كمالَ عَدْلِ الله وكَمالَ حِكْمَتِه، ويُمْكِنُ أن نقول: وتمام سُلْطانه أيضًا بحيث لا يُكْرِهُه أَحَدٌ إلى أن يُحَوِّلَ النِّقْمَة إلى آخرين أو أن يُبَدِّلَها بنِعْمَة.

قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ لَا يُبَدَّلُ بِالْعَذَابِ غَيْرُهُ ولَا يُحَوَّلُ العَذَابُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الإِنْسَان إذا كان في عافية أو إذا كان قبل أن يَنزِل به الأَمْرُ قد يجد من نَفْسِه القُوَّةَ على تنفيذه فإذا نزل به الأَمْرُ تَغَيَّرَتْ حالُه؛ وَجْهُ الدَّلالَة: أنَّ هؤلاء أَقْسَموا بالله لَئِنْ جاءَهُم نذيرٌ ليكونُنَّ أهدى من إِحْدى الأُمَمِ، فلما جاءهم النَّذيرُ تَغَيَّرَتْ حالُهم، وهذا يقع كثيرًا للبَشَرِ، فما دام الإِنْسَانُ لم يَنْزِلْ به الأَمْر يَظُنُّ أنَّه قادِرٌ عليه فإذا نزل به الأَمْرُ عَجَزَ عنه؛ ولهذا يَنْبَغي للإِنْسَان أَلَّا يتعَجَّلَ فيحْكُم على نَفْسِه بالحال التي كان فيها سالمًا من نزولِ الأَمْر به، بل يَنْتَظِرُ حتى يَنْزِلَ به الأَمْر، فكثيرٌ من النَّاس مثلًا يقول أنا أستطيعُ الصَّبْرَ على الحَجِّ مثلًا وسأَحُجُّ، ولكن عندما

يحين الأَمْرُ يَجِدُ من نفسه العَجْزَ، أو يقول: أنا أستطيع أن أقومَ ثُلُثَ اللَّيْلِ الآخِرِ كُلَّه، ولكن إذا جَدَّ الجِدُّ وجد نَفْسَه عاجزًا.

فالمُهِمُّ: أنَّه يَنْبَغي للإِنْسَانِ ألَّا يكونَ مُتَسَرِّعًا فيقيس حالَه في حالِ الرَّخاء على حاله بحالِ نُزولِ الأَمْرِ به؛ لأنَّ الإِنْسَانَ بَشَرٌ تَخْتَلِفُ حالُه بين سلامَتِهِ من الأَمْرِ وبين وقوعِ الأَمْرِ فيه

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: دليلٌ على عُتُوِّ هؤلاء المُكَذِّبينَ لرسول الله ﷺ؛ حيث كانوا قبل أن يُبْعَثَ إليهم يُقْسِمونَ أَغْلَظَ الأَيْمانِ بأنَّهم سيكونونَ أهدى من غَيْرِهم، ولكن لَمَّا جاءهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما زادهم مجيئُهُ إلا نُفورًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإِشَارَةُ إلى أنَّه لا يَنْبَغي للإِنْسَانِ النَّذْرُ -أي أن يَنْذِرَ الطَّاعَة- لأنَّه قد لا يوفَّق في القيام بها، فهؤلاء أَقْسَموا ولما وُجِدَ مُوجِبُ الطَّاعَةِ لم يقوموا بالطَّاعَةِ.

وهذا نظيرُ قَوْله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النُّور:٥٣] فهم أَقْسَموا بالله أنْ لو أَمَرَهم الرَّسُولُ ﷺ لَخَرجوا فنهاهم الله بل أَمَرَ نَبِيَّه أن يقول لهم لا تُقْسِموا.

ونظير ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [التَّوْبَة:٧٥-٧٦].

ولهذا جاء النَّهْي من النَّبِيِّ ﷺ عن النَّذْر، وبيانُ أنَّه «لا يأتي بِخَيْرٍ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هـؤلاء رَدُّوا الحَـقَّ استكبـارًا في الأَرْض -أي يريـدون الاسْتِكْبارَ- وهذا على وَجْهِ إِعْرابها بأنَّها مفعولٌ لأَجْلِه؛ أي إنَّه ما رَدُّوا الحَقَّ إلا أن يكون لهم الكبرياءُ والعُلُوُّ في الأَرْض.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تسميةُ أَعْمالِ الكافرينَ مَكرًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ﴾ وقد ذكرنا في التَّفْسيـرِ: أنَّ أَعمالَ الكافرينَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: قِسْم يجاهرون فيه بِكُفْرِهِم ولا يأتون به على سبيلِ المَكْرِ، وقسمٌ آخر يأتونَ به على سبيلِ المَكْرِ، والثاني أَشَدُّ؛ ولهذا ما مكر قومٌ بأنبيائِهِم إلا مَكَرَ الله بهم وآخِرُهُم مُحَمَّد ﷺ؛ حيث اجتمع القومُ في دار النَّدْوَةِ يَتَشاوَرونَ ماذا يفعلون به فمَكَرَ الله بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ من أراد السُّوءَ حاقَ به السُّوء؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ومن قواعد العامَّةِ يقولون: (مَنْ حَفَرَ لِأَخيهِ حُفْرَةً وقع فيها) فالإِنْسَانُ إذا أراد المَكْرَ، والعياذُ بالله، فإِنَّ مَكْرَهُ يَحِيقُ به.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإِشَارَةُ إلى أنَّ المَكْرَ يكون سيِّئًا ويكون حسنًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وَقَوْله قَبْلُ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ﴾ وهو كذلك، فإِنَّ مَكْرَ الله تعالى بأعدائه الذين يَمْكُرون به مكرٌ حَسَنٌ يُثْنَى عليه به، ومَكْرُ أولئك سَيِّئٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الفاعِـل للسَّبَبِ مُنْتَظِـرٌ للمُسَبَّـب شاء أم أبى، فالإِنْسَانُ العاصي نقول له: أنت مُنْتَظِرٌ العُقوبَةَ الآن مُتَرَقِّبٌ لها حتى وإن كان لا يطرأ على باله أنَّه سيُعاقَبُ؛ لأنَّ فاعِلَ السَّببِ مُنْتَظِرٌ للمُسَبَّب ولا بُدَّ.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٠)، تفسير الطبري (١١/ ١٣٤).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثُبُوتُ القياسِ -أو إن شِئْتَ فقل: استعمال القياسِ- لِقَوْله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيقيس حالَ هؤلاء بحال الأَوَّلين الذين كَذَّبوا فعُوقِبوا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: ومِنْ فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أنَّ سُنَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ في عِبادِهِ واحِدَةٌ فكل من أطاع اللهَ أثابَهُ وكُلُّ من عصى الله عاقبَه؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولا يقالُ مثلًا إننا أُمَّةٌ شَـرَّفَنا الله عَزَّوَجَلَّ وعَظَّمَنا وكَرَّمنا فلا يؤاخِذُنا كما آخَذَ مَن قَبْلَنا، بل نقول: إنَّ مُقْتَضَى التَّشْريفِ أن نكون نحن أَشَدَّ عِبَادَةً له مِمَّن سبقنا؛ لأنَّ الإِنْسَانَ إذا كُرِّم يَنْبَغي أن يقومَ بمُقْتَضَى هذا التَّكْريمِ، وليس إساءَةُ من لم تُكْرِمْه إليـك كإساءَةِ من أَكْرَمْتَه بلا شَكٍّ؛ ولهذا كُلُّ من كان مُغْتَبِطًا بنِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ وَجبَ عليه مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ الله ما لا يَجِبُ على مَن سِواه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: كمال قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمَتِه؛ حيث إنَّ سُنَّتَه لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّـر؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وَجْهُ كَوْنِها من كمـال القُدْرَة: أنَّ العاجِزَ لا يَسْتَطِيعُ أن يجعل أفعالَهُ على وتيرةٍ واحِدَةٍ، بل قد تتخَلَّف وتتغَيَّرَ لِعَجْزِه عن الاطِّرَادِ، وأمَّا كَوْنُه من تمام الحِكْمَةِ فلأنَّ مُعاقَبَةَ السَّابِقينَ كان لِسَبَبٍ، وهذا السَّبَبُ إذا وُجِدَ في الآخِرينَ فإنَّه يَعْمَل عمله لأنَّ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ أنَّ الأَسْبابَ لا تتخلَّفُ عنها مُسَبَّباتُها؛ ففي قَوْلِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فيها إثباتُ تمام القُدْرَةِ وتَمامِ الحِكْمَة.

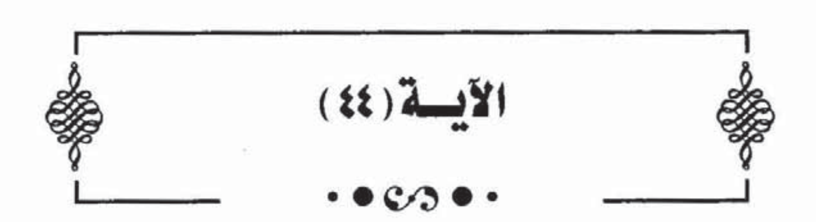
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الشَّيْءَ الذي يَسْتَمِرُّ ويؤخَذُ به يسمَّى سُنة، يقال: هذه سُنَّة فلانٍ؛ أي طريقَتُه؛ ولهذا يُفرَّقُ بين السُّنَة وبين العارِضِ؛ فالعارِضُ لا يُمْكِن

أن يُجْعَلَ طريقَةً مُتَّبَعَةً، والشَّيْءُ المطَّرِدُ يُسمَّى سُنة، ويَدُلُّ على هذا التَّفريقِ قَوْلُه ﷺ: «صَلُّوا قَبْلَ المَغرِبِ، صَلُّوا قبلَ المَغرِبِ، صَلُّوا قَبْلَ المَغرِبِ» ثم قال في الثَّالِثَةِ: «لِمَنْ شاءَ»(١) كراهية أن يتَّخِذَها النَّاسُ سُنَّة؛ يعني سُنَّة مطَّرِدَة يَفْعلونَها دائمًا.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الصلاة قبل المغرب، رقم (١١٨٣)، من حديث عبد الله بن مغفل المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

••∞••

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الهَمْزَةُ هنا للاسْتِفْهامِ، والمُرادُ به التَّوْبيخُ والتَّقْريعُ، وهذه الهَمْزَةُ الاسْتِفْهامِيَّةُ هل هي داخِلَةٌ على الجُمْلَة الموجودةِ المَذْكورَةِ، أو على جُمْلَةٍ محْذُوفَةٍ يُعَيِّنُها السِّياقُ؟

في هذا قَوْلانِ لأَهْلِ العِلْمِ في النحو؛ فمنهم من يقول: إنَّها داخِلَةٌ على هذه الجُمْلَة المَذْكورَة، وعلى هذا القَوْلِ يقولون: إنَّ التَّقْديرَ (وَأَلَمْ يَسيروا) فيجعلون الواوَ مُقدَّمَةً على الهَمْزَةِ؛ لأنَّه لا يُمْكِن أن تُجْعَلَ الهَمْزَة مُقَدَّمَةً على الواو، والواو حَرْف عَطْف تَقْتَضي معطوفًا عليه، فيقولون: إنَّ الهَمْزَة مُتَأَخِّرَةٌ والواو حَرْفُ عطف، وهذه الجُمْلَة مَعْطوفة على ما سبق.

وهذا الوَجْهُ لا شَكَّ أنَّه أَسْهَلُ وأَيْسَرُ؛ إذ لا يَتكَلَّفُ الإِنْسَانُ فيه العَناءَ في ذلك الشَّيْءِ المَحْذُوفِ المقَدَّرِ.

وهو القَوْلُ الثاني: أنَّ الهَمْزَة داخِلةٌ على مَحْذُوفٍ يُعَيِّنُه السِّيَاقُ، ففي مثل هذه الآيَة، نقول: تَقْديرُ الكَلَام: أَغفَلُوا ولم يَسيروا في الأَرْض أو كَلِمَةً نحوها، وهذا

التَّقْديرُ قد يكون سهلًا في بَعْضِ المواضِعِ، بمَعْنى أن بعض المواضِعِ قد يكون المَعْنى فيها ظاهِرًا ويُمْكِنك بِكُلِّ سهولَةٍ أن تُقدِّرَ ذلك المَحْذُوفَ، لكن أحيانًا يَصْعُبُ عليك أن تُقدِّرَ ذلك المَحْذُوفَ لاحتمالِ السِّيَاقِ لأَوْجُهٍ مُتعَدِّدَة؛ لهذا نقول: إنَّ القَوْلَ الآخَر أَقْرَبُ وأَسْهَلُ أن نَجْعَلَ الواوَ حَرْفَ عَطْفٍ والجُمْلَة هذه معطوفة على ما سبق، والأَصْلُ تَقديمُ ذلك الحرف العاطِفِ على الجُمْلَة، والتَّقْدير: وَأَلَمْ يسيروا.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ السَّيْرُ هنا هل هو سَيْرُ القُلوبِ أو سَيْرُ الأَقدامِ أو كِلاهُما؟

نقول: الأَوْلَى أن نقول إنَّه شامِلٌ فيكون سَيْرُ القلوب هو سَيْرُ الأَقْدامِ، أَمَّا سَيْرُ القلوب فإنَّه بالنَّظَر في تاريخ الأُمَم السَّابِقَةِ وما جرى عليهم وما جرى لأَهْلِ الخَيْرِ العاملين بالقِسْط، فيسيرُ الإِنْسَانُ بِقَلْبِه في أرجاء العالَمِ وهو جالسٌ على كُرْسِيِّه لا يَتَحَرَّكُ.

وأَمَّا السَّيْرُ بالأقدام فهو أن يتقَدَّمَ الإِنْسَانُ إلى هذه المواضِعِ ليَعْتَبِر، ومن ذلك قَوْلُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**زُوروا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[1] فإنَّ زيارَةَ القُبورِ سيرٌ بالأقدام، يذهب الرَّجُلُ إلى المَقْبَرة ويَقِفُ ويشاهد هذه القُبُورَ ويَعْتَبِرُ بهؤلاء القومِ الذين كانوا أَشَدَّ منه قُوَّة وكانوا أَكْثَرَ منه مالًا، ومع ذلك آلُوا إلى ما آلُوا إليه حتى يَعْرِفَ أنَّه سوف يَؤُولُ إلى ما آل إليه هؤلاء، طالَتِ المُدَّة أم قَصُرَت.

إذن: السَّيْرُ في الأَرْض يكون بالقَلْبِ وبالقَدَمِ، وأَيُّهما أَنْفَعُ للمَرْءِ: السَّيْرُ بالقَلْبِ أم السَّيْرُ بالقَدَمِ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٧)، من حديث بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: السَّيْرُ بالقَلْبِ أَشْمَلُ وأَهْوَنُ؛ لأَنَّه بإمكانِ الإِنْسَانِ أن يَطوفَ الدُّنْيا كُلَّها في ساعَةٍ واحِدَةٍ، وأسهل؛ والسَّيْرُ بالقَدَمِ أَشَدُّ تأثيرًا لأَنَّه يشاهِد؛ فـ(ما راءٍ كَمِنَ سَمِعَ) ولهذا أمر النَّبِيُّ ﷺ إذا دخلنا على ديار المُعَذَّبينَ، أَمَرَنا أَلَّا نَدْخُلَ إلا ونَحْنُ باكون أن يُصيبَنا ما أصابَهُم[1] حتى نَعْتَبِرَ ونُصَحِّحَ المَسيرَ.

وَقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿فِى﴾ هنا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّها بمَعْنى (على) ولا تصح أن تكون للظَّرْفِيَّةِ؛ لأنَّ الظَّرْفِيَّةَ تَقْتَضِي أن يكون السَّائِرُ في جوف الظَّرْفِ، ومعلومٌ أنَّ السَّائِرَ في الأَرْضِ لا يَسيرُ في جَوْفِ الأَرْضِ، هل هو يفتح نَفَقًا ليسير فيه؟ لا، بل يسير على ظَهْرِها؛ قالوا فـ(في) بمَعْنى (على) ونظيرها قَوْله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] أي على جُذوعِ النَّخْلِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (أل) يُحْتَمَل أن يُرادَ به الجِنْسُ، ويُحْتَمَل أن يراد بها العَهْدُ، فعلى الأَوَّل يكون المُرَادُ بالسَّيْرِ في جِنْسِ الأَرْض التي أصيبَتْ بِغَضَبٍ والتي لم تُصَبْ، وعلى الثاني يكون المُرَادُ بالأَرْض التي أصيبت بالغَضَبِ، فتكون (أل) هنا للعَهْدِ الذِّكْري؛ لأنَّ العَهْدَ الذِّكْري لا بُدَّ أن يكون هناك مذكورٌ تعود عليه (أل) أمَّا إذا لم يكن هناك مذكورٌ فهو عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فينظروا الفاء هنا قيل إنَّها عاطِفَة، وقيل إنَّها سَبَبِيَّة؛ فعلى أنَّها عاطفة يكون الفِعْلُ بعدها مَجْزومًا، وعلى أنَّها سَبَبِيَّة يكونُ الفِعْل بعدها مَنْصوبًا؛ فعلى كَوْنِها سَبَبِيَّة يكون التَّقْديرُ: أَوَلَمْ يسيروا في الأَرْض

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فِبَسَبَبِ سَيْرِهِم يَنْظُروا، وعلى أنّها عاطِفَةٌ يكون المَعْنى: أوَلَمْ يسيروا في الأَرْض ولَمْ يَنْظُروا كيف كان عاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهم؟

والنَّظَرُ هنا هل هو نَظَرُ القَلْبِ أو نَظَرُ العَيْنِ؟

الجوابُ: إذا قلنا إنَّ السَّيْرَ سَيْرَ القَدَمِ فالنَّظَرُ نَظَرُ العَيْنِ، وإذا قلنا إنَّ السَّيْرَ سَيْرُ القَلْبِ فالنَّظَرُ نَظَرُ القَلْبِ؛ إذن: تكون شاملةً للأَمْرَيْنِ حَسَبَما نُفَسِّرُ السَّيْرَ فيما سبق.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذه الجُمْلَة الاسْتِفْهامِيَّة عَلَّقَتْ (ينظروا) عن العَمَلِ، يعني: فينظروا كيف كان عاقِبَتُهُم؛ يعني أيَّ عاقِبَةٍ كانت لَهُم: هل نُعِّموا وأُكْرِموا أو عُذِّبوا وأُهْلِكُوا فينظروا، فإذا نظر الإِنْسان العاقِلُ فسوف يَعْتَبِرُ ويقيس الحاضِرَ على الغائِبِ.

وَقَوْله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾: (عاقِبَةُ) الشَّيْءِ مآلُهُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عاقِبَة الذين من قَبْلِهِمُ الهلاكُ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] فانظروا إلى آثارِهِم كانت الدَّمار فإذا كانت الدَّمار وسَبَبُه التَّكْذيب والاسْتِكْبار فإنَّ السَّبَبَ الذي كان فيما سبق مُؤَدِّيًا إلى هذا الهلاكِ فإنَّه سيكون مؤدِّيًا إليه فيما لَحِقَ ولا فَرْقَ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: (كانوا) الضَّميرُ يعود على السَّابِقين ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: أقوى منهم قُـوَّةً، ومع ذلك لم تَنْفَعْهم قُوَّتُهم ولم تَمْنَعْهُم، وأُهْلكوا، وانظر إلى قَوْل عادٍ: مَنْ أَشَـدُّ منا قُـوَّة؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وكانت عادٌ مِن أقـوى الأُمَمِ أَجْسامًا وصَلَابَةً وعَزْمًا، حتى إنّهم تَحَدَّوْا وقالوا: من أَشَدُّ منا قُوَّة؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأَهْلَكَهُم بأَلْطَفِ الأَشْياءِ؛ أَهْلَكَهُم بالرِّيحِ؛ قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزُّخرُف:٥١] فافتَخَرَ بِجَرَيانِ الأَنْهارِ وهي المياه من تحته، فأُهْلِكَ بالغَرَقِ بالماء الذي كان يَفْتَخِرُ به.

فالإِنْسانُ العاقل إذا رأى حالَ هذه الأمم وقُوَّتها وأنَّ هذا لم يَنْفَعْهُم ولم يَمْنَعْهم من عقابِ الله فلا بُدَّ أن يَعْتَبِرَ.

قال: ﴿وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الواو هنا في قَوْله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا﴾ يُحْتَمَلُ أن تكون عاطِفَة ويُحْتَمَل أن تكون للحالِ والتَّقْدير: وقد كانوا أَشَدَّ منهم قُوَّةً.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأَهْلَكَهُم الله بِتَكْذيبِهِمُ رُسُلَهُم] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ هنا إذا تأَمَّلَ الإِنْسان الآيَةَ، يقول: إنَّ الله تعالى لم يذكر عاقبة هؤلاء المُكَذِّبينَ في الآيَة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلماذا لم يَذْكُرْها؟

الجواب: اعتمادًا على هذا السَّائِرِ الذي يسير فيَنْظُرُ، فمعناه: احْكُمْ أنت بِنَفْسِكَ على هؤلاء؛ فلا حاجة لأن أُخْبِرَك بأنَّ الله أَهْلَكَهُم؛ لأنَّه سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارِهِم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ يَسْبِقَه ويَفُوتَهُ ﴿فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ اللَّام هنا يُسَمِّيها النَّحْويُّون لام الجُحُودِ وهو النَّفْيُ؛ لأنَّها وَقَعَتْ بعده -أي بعدَ النَّفْيِ- وضابِطُ لام الجحود أن تقع بعد كَوْنٍ مَنْفِيٍّ، وإذا أردنا أن نُقَرِّبَها إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد (ما كان) أو (لم يكن) قال

تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧] اللَّام نُسَمِّيها لامَ الجُحُود، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] اللَّام لامُ الجُحُودِ.

فإذا وقعت اللَّامُ بعد (ما كان) أو (لم يكن) داخِلَةً على الفِعْل المضارِعِ فإنَّها تَنْصِبُ الفِعْلَ المضارع أو ننْصِبُه بـ(أن) مُقَدَّرَةً بعد اللَّامِ على الخلاف، إنَّما نُسَمِّي هذه اللَّامَ لامَ الجُحودِ، لكنَّ الضَّابِطَ الذي قُلْتُ أولًا: وهي الواقِعة بعد كونٍ مَنْفِيٍّ أَعَمُّ من قَوْلنا هي المَسْبوقَةُ بـ(ما كان) أو (لم يكن)؛ لأنَّه يُمْكِنُ أن تأتي بعد (كائِنٍ) تقول: لَسْتُ بكائنٍ لِأُعَذِّبَكَ؛ مثلًا، أو غَيْر كائنٍ ليكون وما أشبه ذلك، فإذا قلنا بعد كونٍ منفي كانت أعَمَّ، لكن إذا كنا نخاطِبُ شَخْصًا مُبْتَدِئًا في النَّحْو فقد يصعب عليه تَصَوُّر كَلِمَة (كونٌ مَنْفِيٌّ) فنقول له: إذا وَقَعَتْ بعد ما كان أو لم يكن، فهي لام الجُحُودِ.

وتنصب الفِعْل المضارع إمَّا بِنَفْسِها كما هو مَذْهَبُ الكُوفِيِّينَ، وإمَّا بأن مُضْمَرةً بعد اللام.

قَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾: ﴿مِن﴾ حَرْفُ جر زائدٌ زائد؛ زائد في الإِعْرابِ، زائِدٌ في المَعْنى أي أنَّه يزيدُ في المَعْنى، وما هي زِيادَةُ المَعْنى؟

توكيدُ النَّفْي، يعني أنَّ هذا النَّفْيَ مُؤَكَّدٌ.

وَقَوْله تعالى: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ إذا قلنا ﴿مِن﴾ حرف جر زائد فنُعْرِب ﴿شَىْءٍ﴾ على أنَّها فاعِلٌ مرفوع بضَمَّة مُقَدَّرة على آخره مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحَرَكَةِ حَرْفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسْبقه ويَفوتهُ] وهذا تَفْسيرٌ لا بأس بِبَعْضِ اللَّوازِمِ،

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] ولكِنَّ العَجْزَ في الواقِع هو عَدَمُ القُدْرَةِ على الشَّيْء، وهذا أولى من تَفْسيرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

يقول: ما كان الله تعالى ليَحُولَ بينه وبين ما يُريدُ عَجْزٌ في قُدْرَتِهِ بل هو قادِرٌ على كلِّ شَيْءٍ من إيجادِ مَعْدومٍ أو إيجادِ مَعْدومٍ أو تَغْييرِ حالٍ أو غَيْرِ ذلك، فالله تعالى لا يُعْجِزُه شَيْءٌ؛ لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض؛ لأنَّ أَمْرَه عَزَّوَجَلَّ إذا أراد شيئًا أن يقول كُنْ فيكونُ، بدون أيِّ عَمَلٍ، كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَجْعَلُ الشَّيْء على حَسَب مُرادِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا يُعْجِزُه شَيْء لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض، وإذا كان لا يُعْجِزُه شَيْء، لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض فإنَّه لن يَعْجِزَ عن إهلاكِ المُكَذِّبينَ الذين كَذَّبوا رسول الله ﷺ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي بالأشياءِ كُلِّها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها] الجُمْلَة مَوْقِعُها مِمَّا قبلها أنَّها تعليلٌ؛ فلما قال ما كان الله لِيُعْجِزَه عَلَّلَ هذا الحُكْمَ المنْفِيَّ بِقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

والعِلْم إدراك الشَّيْء على ما هو عليه، والقُدْرَةُ التَّمَكُّنُ من الفِعْل بلا عجز، والقُوَّةُ التَّمَكُّن من الفِعْل بلا ضَعْفٍ، فهي أَخَصُّ من القُدْرَة من وَجْهٍ، وأَعَمُّ منها من وجهٍ آخر كما سَنَذْكُره.

فما هو وَجْهُ كَوْنِه عَزَّوَجَلَّ لعِلْمِه وقُدْرَتِهِ لا يُعْجِزُه شَيْء؟

الجواب: لأنَّ العاجزَ عن الشَّيْء إمَّا أن يكون لعَدَمِ عِلْمِه للأَسْباب التي يغيِّرها به، وإمَّا أن يكون لعَدَمِ قُدْرَتِهِ، فلو تأَمَّلْتَ عَجْزَ أيِّ عاجِزٍ لوجدت السَّبَبَ في عَجْزِه إمَّا أنَّه لا يَعْلَمُ وإمَّا أنَّه لا يَقْدِرُ.

فلو قِيل لرجُلٍ: نُريد أن تُصلِحَ هذه السَّاعَة الخَرِبَة قال: أعطني إيَّاها، وهو لا يَعْرِف أبدًا وما دَرَسَ، وعنده آلاتٌ لإِصْلاحِها وعنده قُوَّةٌ بَدَنِيَّة، فهل يَقْدِرُ أن يُصْلِحَها؟

والجواب: لا؛ لأنَّه ليس عنده عِلْمٌ، فلا يقدر أن يُصْلِحَها بل يُمْكِن أن يُفْسِدَها أكْثَر.

ورجل آخر: عنده عِلْمٌ وقد درس عِلْمَ تَصْليحِ السَّاعاتِ مثلًا، لكن ليس عنده قُدْرَةٌ بَدَنِيَّة وهو مشلول، فهل يُمْكِن أن يُصْلِحَها؟

الجواب: لا يُمْكِن؛ لِعَدَمِ القُدْرَة.

إذن: انتفاء عجْزِ الله عَزَّوَجَلَّ لكمالِ عِلْمِهِ وكمال قُدْرَتِهِ، وبهذا نعرف أنَّه لا يوجَدُ نَفْيٌ مَحْضٌ في صفاتِ الله، بل كُلُّ نَفْيٍ في صفاتِ الله فهو مُتَضَمِّنٌ لِثُبوتِ كمالِهِ، ولا يُمْكِن أن يوجد نفيٌ مَحْضٌ؛ ولهذا لما نفى العَجْزَ بيَّن السَّبَب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّنا يَنْبَغي أن نَنْظُرَ إلى عاقِبَةِ السَّابِقين نَظَرَ اعْتِبارٍ بِمآلِهِم حين كَذَّبوا رُسُلَهُم وليس اعتبارًا بقُوَّتِهم وصناعَتِهِم وطِرازِهِم وما أشبه ذلك، وإذا طبَّقْنا هذا على واقِعِ النَّاسِ اليوم الذين يَذْهَبون إلى ديارِ ثَمودَ؛ وجدنا أنَّهم يَذْهَبون إليها لا لِيَعْتَبِروا بما صَنَعَ الله بهم من العُقُوبَةِ لتكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ولكن لِيَنْظُروا كيف كانت قُوَّتُهم وصِناعَتُهم وزخارِفُهم وما أشبهه، وهذا حرامٌ، فلا يجوز أن يذهب الإِنْسَان إلى ديار هؤلاءِ المُكَذِّبينِ لهذا الغَرَضِ؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تَدْخُلوا على**

هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبينَ إِلَّا أَنْ تَكُونوا بَاكِينَ، فإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»(١).

مَسْأَلَة: السَّيْرُ في الأَرْض لِلاعْتِبَارِ لَا بَأْسَ بِهِ، وإذا كانت مَصْلَحَتُه أكثر من نقصه كان مَحْمُودًا، وإن كان نَقْصُه أَكْثَرَ من مَصْلَحَتِه فإنَّه لا يَنْبَغي، فمثلًا لو ذهب ينظر في آياتِ الله تعالى في الجبالِ الشَّاهِقَة وفي الأَنْهار وفي البِحارِ وما أشبه ذلك، فهذا حسنٌ مَحْمودٌ، لكن إذا كان يُكَلَّفُ من النَّفَقَة أكثر مِمَّا يَنْتَفِعُ به الإِنْسَان فإنَّه يُنْهَى عنه؛ لأنَّ في ذلك إِضاعَةَ المالِ، أمَّا إذا كانت النَّفَقَة قليلَةً أو كان هذا الرَّجُلُ ذا مالٍ كثيرٍ لا يَتَضَرَّر به، ولَكِنَّه يَنْتَفِع به من النَّاحِيَة الإيمانِيَّةِ فلا بأس به

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في التاريخ عِبَرًا يَعْتَبِرُ بها العاقِلُ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اسْتِعْمالُ قياسِ الْأَوْلَى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فإذا كان الله تعالى أَهْلَكَهُم مع كَوْنِهِم أَشَدَّ منهم قُوَّة، فإنَّ إهلاكَ هؤلاء من باب أولى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن قُوَّة البَشَرِ مهما عَظُمَتْ لا تمنع من الله شيئًا؛ لِقَوْله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولذلك لما قالت عادٌ: مَنْ أَشَدُّ منا قُوَّةً، قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ في السَّيْرِ في الأَرْض قَلْبًا أو قَدَمًا عِبْرَةً لا للمُرْسَلِ إليهم، بل وللرُّسُلِ أيضًا؛ فإنَّ إِهْلاكَ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ انتصارٌ للرُّسُل، فمَعْلومٌ أنَّ الله إذا أَهْلَكَ عَدُوَّكَ فإنَّه انتصارٌ لك بلا شَكٍّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: نَفْيُ العَجْزِ عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّ فيها نَفْيَ العَجْزِ عنه لِكَمالِ عِلْمِه وقُدْرَتِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ من صفاتِ الله تعالى ما يكون سَلْبِيًّا -أي مَنْفِيًّا عن الله- والقاعِدَة العامَّة: أنَّ كلَّ صِفَةِ نَقْصٍ فهي مَنْفِيَّةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ كلَّ صِفَةِ كَمالٍ فهي ثابتَةٌ له، ولكنَّ التَّفْصيلَ لا بُدَّ فيه من دليلٍ؛ لأنَّ هذه قاعِدَة عامَّة؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، ولِقَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] لكِنَّ التَّفْصيلَ بأنَّ هذه الصِّفَة المُعَيَّنة ثابتَةٌ لله أو مُنْتَفِيَةٌ عنه لا بُدَّ فيها من دليلٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا ينفي شيئًا عن نَفْسِه إلا لِثُبُوتِ كَمالِ ضِدِّه؛ لأنَّه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فيُسْتَفادُ من ذلك: أنَّ كُلَّ صِفَةٍ مَنْفِيَّةٍ عن الله لا يرادُ منها مُجَرَّدُ النَّفْيِ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ النَّفْيِ المَحْضِ ليس فيه فائِدَةٌ؛ إذ إنَّ النَّفْيَ المحض عـدمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشَيْءٍ، فضلًا عن أن يكون كَمالًا؛ ولأنَّ النَّفْيَ قد يكون سَبَبُه العَجْز، كما في قَوْلِ الشَّاعِرِ:

قُبَيِّلَـــةٌ لا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

هذا ذَمٌّ؛ لأنَّهم لعَجْزِهِم لا يَسْتَطِيعـون، فلا يَظْلِمونَ النَّاسَ ولا يَغْـدِرونَ بالذِّمَم.

وقد يكون سَبَبُه عَدَمَ القابِلِيَّة لا لِلْكَمالِ، ولكن لأنَّه غَيْرُ قابِلٍ لهذه الصِّفَة، كما لو قلتَ: إنَّ جدارَ بَيْتِنا لا يَظْلِمُ، فهو صحيح أنَّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا، لكن لا لأنَّه كامِلُ

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص٢١٥-٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٢).

العَدْلِ، ولكن لأنَّه لا يَقْبَلُ كَلِمَةَ ظُلْمٍ، فنَفْيُها عنه كثُبُوتِها له، حتى لو قلتَ: جِدارُنا يَظْلِمُ، فلا أَحَد يُصَدِّقُكَ.

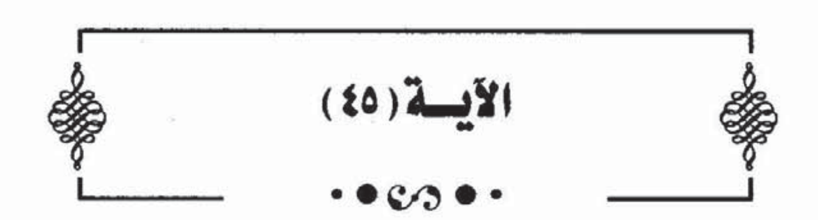
إذن: فصِفاتُ الله المَنْفِيَّة التي يُسَمِّيها العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ السَّلْبِيَّةَ تَتَضَمَّنُ كمال الضِّدِّ، يعني لكمال عِلْمِه وقُدْرَتِه، فلا يُعْجِزُه شَيْءٌ في السَّمَوات ولا في الأَرْضِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إِثْباتُ أنَّ السَّمَواتِ أَكْثَرُ من واحِدَةٍ؛ لأنَّها جاءت بصيغة الجَمْعِ: السَّمَوات، وهي سَبْعٌ بنَصِّ القُرْآنِ والسُّنَّة؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥]، والسُّنَّةُ كذلك ظاهِرةٌ في أنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ، كقول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَواتِ السَّبْعِ ومَا أَظْلَلْنَ**»[(١)].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْباتُ اثنينِ مِنْ أَسْماءِ اللهِ؛ وهما العليم والقديرُ، وما تَضَمَّناه من صِفَةٍ أو حُكمٍ من صِفةٍ وهي العِلم والقُدْرَةُ، أو صِفَةٌ أو حُكمٌ وهو: أنَّه يَعْلم ويَقْدِرُ على كُلِّ شَيْءٍ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٨٧٧٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٥٦٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٧٠٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٤٧٢)، والحاكم (٢/ ١٠٠)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر:٤٥].

•••

(لو) هذه شَرْطِيَّةٌ، و(لو) تأتي شَرْطِيَّةً كما هنا، وتأتي للتَّمَنِّي مثل قَوْله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وتقول مثلًا: لو كان لي مِثْلَ مالِ فلانٍ، يعني أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شَرْطِيَّة وتأتي للتَّمَنِّي، وتأتي أيضًا مَصْدَرِيَّة بمَعْنى (أنْ).

فهنا هي شَرْطِيَّة، وإذا كانت شَرْطِيَّةً، فإما أن يكون جوابُها مثبتًا وإمَّا أن يكون مَنفِيًّا، فإن كان مُثْبَتًا فالأَكْثَرُ فيه إثباتُ اللَّام، وإن كان مَنْفِيًّا فالأَكْثَرُ فيه حذف اللام.

مثال ذلك في الإثبات: قَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥] الجواب: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ وفيه اللامُ، وقال تعالى في نفس السُّورَة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] الجواب: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ وحُذِفَتْ منها اللام.

أما إذا كان جوابُها منفيًا بـ(ما) فإنَّ الأكثر عدم اقتران (ما) باللَّامِ فتقول مثلًا: لو جاءني ما أَهَنْتُه، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا

تَـرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقد تقترن اللَّام بـ(ما) لَكِنَّها قليلةٌ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَلَو نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا[1] ....

والأَكْثَرُ (ما افْتَرَقْنا).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ أي يعاقِبُ، والمؤاخَذَةُ بالذَّنْبِ العُقوبَةُ عليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ يَشْمَلُ الكُفَّارَ ويَشْمَلُ العُصاةَ من المُؤْمِنين.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: (ما) يجوز أن تكون مَصْدَرِيَّةً؛ أي بِكَسْبِهم، ويجوز أن تكون مَوْصولةً، فإذا كانت مَوْصولَةً فلا بُدَّ من تَقْدير العائِدِ، وتَقْديره: بما كَسَبوهُ.

وَقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: بما اكْتَسَبوا من المعاصي، وسَمَّى الله تعالى المعاصيَ كَسْبًا؛ لأنَّ العامِلَ ينالُ جَزاءَها، فكأنَّه كَسَبَ هذا الجزاء، مع أنَّه كَسْبٌ خاسِرٌ؛ ولهذا إذا اقْتَرَنَ مع العَمَلِ الصَّالِحِ أتى بغير هذا اللَّفْظِ؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] ففرَّقَ بينهما.

أما إذا أُفْرِد أحدهما عن الآخرِ فيصِحُّ الكَسْبُ في الخَيْراتِ وفي السَّيِّئاتِ.

---

(١) صدر بيت وعجزه: ولكن لا خيار مع الليالي. غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

وَقَوْله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي الأَرْضِ؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي الأَرْضِ] وأعاد الضَّميرَ على غَيْر مذكورٍ، قال بعضهم: إنَّه أعاده على مذكورٍ، وهو قَوْله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، والكَلَام كُلُّه في سياق واحِدٍ، في سياق العاصينَ ومآلِهم وعُقُوبَتِهم، فالكَلَامُ نَسَقٌ واحِدٌ فالأَرْض إذن: مذكورة.

وقال بعضهم: هي غَيْر مذكورة، لَكِنَّها معلومَةٌ من السِّيَاقِ لأنَّ الدَّوابَّ إنَّما هم على ظَهْرِ الأَرْضِ، فمَعْلومَةٌ من السِّيَاق، وما عُلِمَ من السِّيَاقِ فإنَّه لا يَحْتاجُ إلى مَرْجِعٍ مذكورٍ؛ ألم تَرَ إلى قَوْله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] فَقَوْله تعالى: ﴿تَوَارَتْ﴾ أي: الشَّمْسُ، مع أنَّه لم يَسْبِقْ لها ذِكر، لَكِنَّها معلومَةٌ فإنَّها هي التي تتوارى بالحِجابِ.

وَقَوْله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ نَسَمَة تَدِبُّ عليها] ﴿مِن﴾ حرف جَرٍّ (زائِدٍ زائد)؛ لأنَّها جاءَتْ بعدَ النَّفْي: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ما ترك عليها دابَّةً لَكِنَّها دخلت عليها ﴿مِن﴾ لتُؤَكِّدَ العُمومَ؛ وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَسَمَةً تَدِبُّ عليها] النَّسَمَة هي كل ذاتٍ تَتَنفَّسُ، لأنَّها مَأْخوذة من النَّسَم وهو التَّنَفُّس وكل شَيْء فيه رُوحٌ فإنَّه يتَنَفَّس.

والمَعْنى: هَلَكَ كُلُّ شَيْءٍ على الأَرْض؛ أَمَّا البَشَرُ العاصون فهَلاكُهُم واضِحٌ، وأمَّا غَيْرُهُم فبِشُؤْمِ الأَوْساط تَمُوتُ هذه الدَّوابُّ، إمَّا بأن يَمْنَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَطَرَ والنَّباتَ فتموتُ هذه الدَّوابُّ؛ لأنَّها لا تجد عَيْشًا أو أنَّها تموت بأَوْبِئَةٍ تَجْتاحُها بسبب أعمالِ النَّاسِ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يَوْم القِيامَةِ].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: النَّاسَ، والفاعِلُ هو الله، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي: مُدَّةٍ ﴿مُّسَمًّى﴾ مُعيَّنٍ، وهو يومُ القِيامَة، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة هود: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٤] أي: أَجَلٍ مُسَمًّى مُعيَّنٍ عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يَعْلَمُ هذا الأَجَلَ إلا اللهُ؛ فإنَّ عِلْمَ السَّاعَةِ لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وقد حجز عنه أَعْلَمَ البَشَرِ وأَعْلَم المَلائِكَة حين سأل جبريلَ النَّبيَّ ﷺ عن السَّاعَةِ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١).

والأَجَلُ المُسَمَّى لا بُدَّ أن يَجيءَ، فكُلُّ شَيْءٍ مُسَمًّى فهو قريبٌ، لكنَّ الأَجَلَ المُبْهَم هو الذي يَنْتَظِرُه الإِنْسانُ إلى أن يَحْصُل، أمَّا المُسَمَّى فلا بُدَّ أن يُوصَلَ إليه.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انْتَهتِ المُدَّة وصار يومُ القِيامَة، سواء كانَتِ القِيامَةُ الكُبْرَى أو القِيامَة الصغرى، فالقِيامَةُ الكُبْرَى العامَّةُ لجميعِ النَّاسِ، والصُّغْرى مَوْتُ كُلِّ إِنْسانٍ.

وَقَوْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على أعمالِهم بإثابَةِ المُؤْمِنينَ وعِقابِ الكافرينَ].

جُمْلَة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جوابُ شَرْطِ قَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾.

فإذا قال قائِلٌ: ما وَجْهُ ارتباطِ الجوابِ بالشَّرْطِ في قَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ يعني قد تَتَوَقَّعُ: فإذا جاء أجلهم عاقبَهُم الله؟

فيقال: إنَّ قَوْله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ أَبْلَغُ من: (فإذا جاء

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَجَلُهُم عاقَبَهُمُ الله)؛ لأنَّ مِن هؤلاء مَن قد يَعْفو الله عنهم فلا يُعاقِبُهُم، ولَكِنَّه ذكَر أنَّه بصيرٌ بأعمالِهم يُجازيهِم عَليها، وإن شاء ألَّا يعاقِبَهُم فعَل فِيمَن يَسْتَحِقُّ العَفْوَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: سَعَةُ حِلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجْهُهُ: أنَّه لو يُؤَاخِذُهُم بما كسبوا ما ترك عليها من دابَّةٍ، ولكن يَحْلُم عَزَّوَجَلَّ ويُمْهِلُ؛ لَعَلَّ النَّاسَ يتوبونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ قُدْرَةِ الله تعالى؛ حيثُ يَقْدِرُ على إهلاكِ العالَمِ بِلَحْظَةٍ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ شُؤْمِ المعاصي وأنَّها قد تَعُمُّ العاصِيَ وغيْرَه، بل المُكَلَّف وغَيْر المُكَلَّف، وإلا فهذه الدَّوابُّ التي هي أَكْثَرُ بكثيرٍ من البَشَرِ ومن الجِنِّ ما ذَنْبُها وهي غَيْرُ مُكَلَّفَة؟ لكن هذا مِنْ شُؤْمِ المعاصي وأنَّها تَشْمَلُ حتى من ليس بِمُكَلَّفٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرِيَّة؛ لِقَوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ فأَثْبَتَ لِلْعَبْدِ كسبًا، والجَبْرِيَّةُ يقولون إنَّ الإِنْسَانَ مُجْبَرٌ على العَمَلِ لا يَسْتَطِيعُ أن يَكْتَسِبَ، بل يُجْبَرُ على أن يَعْمَلَ خيْرًا أو شَرًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ في مُجازاةِ العاملينَ بِعَمَلِهِم؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ولكن لِحِلْمِه يُؤَخِّرُهم إلى أجلٍ مُسَمًّى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه مهما حَلَّ بالبَشَرِ من عُقُوبَةٍ مُدَمِّرَةٍ أو مُنَغِّصَةٍ، فإنَّما ذلك بما كَسَبَتْ أَيدِيهِمْ.

• • ۞ • •